محمد المجذوب

ذكريات لا تنسى

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله المصطفى محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد .. فعندما كتبت (مشاهداتي في جزرالفيلبين) لم أتصور قط أن أخوات لها سيعقبنها متلاحقات حتى يبلغن المئات من الصفحات.. ولكن شاء الله أن تكون تلك الرحلة فاتحة رحلات مماثلة إلى تركية وقبرس المسلمة فأندونيسية فالهند، وأخيرا إلى باكستان.. ومن يدري فلعل في الغيب رحلات أخرى تشمل مناطق للمسلمين، سيكون من الخير أن أشهدها عن كثب، وأن أكتب عنها مزيدا من هذه الحلقات، إذا قدر الله لي منذوحة من الأجل تتسع لمثل هذا المجهود، الذي يتطلب من الطاقات ما يفتقده في العادة شيخ في السبعينات من سنيه، يجد نفسه أمام عدد آخر من المؤلفات لا تقل عن الخمسة، كلها ينتظر منه الاتمام أو المراجعة لوضع اللمسات الأخيرة قبل تقديمها إلى الطبع..

ولقد كان لتشجيع الإخوة من مطالعي هذه المشاهدات، سواء في المملكة الغالية أو بعض الأنحاء الأخرى من العالم الإسلامي، إيحاؤه الدافع إلى جمع متفرقها في سفر واحد، يضع بين أيدي القراء عملا فكريا وأدبيا متكاملا يوفر لبعضهم متعة المعرفة، ويقدم لجميعهم صورا حية عن إخوة لهم لا يحسن أن يجهلوا واقعهم، والوشائج التي تؤلف بينهم على تباعد مواقعهم.

على أني لم أكد أضم بعضها إلى بعض حتى وجدتها تستوعب سفراً لا تقل صفحاته عن المئات الست، فكان من رأي بعض الإخوة أن نجزّىء هذا العمل فنقدمه إلى القارىء في كتابين أو أكثر.. وعلى هذا استقر الأمر، وها هوذا الجزء الأول منه، وقد اقتصرنا فيه على الحلقات الخاصة بالفيلبين وتركية فقبرس ــ المسلمة ــ فأندونيسية، على أن يعقبه الجزء الثاني الذي نقدم فيه (مشاهدات وتأملات في ربوع الهند) ثم الثالث (مع المجاهدين والمهاجرين في ربوع باكستان) ولعلّ ذلك أن يكون قريبا إن شاء الله.

وأنا إذ أصوغ هذه الكلمات لا أزعم أني أتحف قراء هذا الكتاب بما لا يعلمون، إذ لم يكد السُيَّاح والمؤرخون والرحالون يدعون ثغرة لم تسدَّ من هذه الجوانب، بيد أني أزعم أن في كتابي رؤية خاصة للأحداث والناس تمثل الواقع المنظور من خلال أحاسيسي الذاتية، فإذا كان له من ميزة فمن هذه الناحية، وهي ناحية تؤكد أن على كل فقرة منه نفثةً من روحي، من حقها أن تلامس موضعها المقابل من أحاسيس القراء ذوي الرؤية الإسلامية.

وحسبي هذا ـ بعد مرضاة الله ـ مردوداً يُشْعِرني بالكثير من الرضى والاطمئنان.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

من جوار مسجد قباء..

المؤلف

مشاهداتي
في جزر الفيلبين

الجمعة ٢٥ / ٧ / ١٣٩٨ هـ

كانت الساعة ٢٫٤٥ عندما أقلتنا التريستار السعودية من مطار جدة إلى دبي ثم إلى بومباي بالهند. وفي ردهة المطار قضينا بعض الليل بانتظار الطائرة التي أقلتنا إلى مدراس ثم من هناك إلى كوالا لامبور عاصمة ماليزية، ومن ثم إلى سنغافورة فمانيلا عاصمة الفيلبين. وبعد لأي عرفنا الطريق إلى مصلحة الشؤون الدينية التي وجّهنا إليها المسؤولون عن الدورة، وبعد انتظار يوم استقللنا الطائرة إلى (سيبو) التي كانت أول مكان وطئته قدما ماجيلان، وفيها لقي مصرعه ثم إلى (أليغان) ومنها بالسيارة إلى ماراوي حيث أقيم مركز (تدريب معلمي العربية) في معهد منداناو.

ولم يكن المشاركون في الدورة قد وصلوا إلا أقلهم، فتأخر عقدها حتى وصولنا، وبعد إجراء الترتيبات الفنية افتتحت، وباشر كل منا عمله في نطاق المنهج المناسب، وبعد أيام وصل بعض الأعضاء الآخرين، ثم تتابع المدرسون حتى استتم عددهم واحداً بعد آخر.

ضمت الدورة فريقين من مدرسي العربية العاملين في مختلف مناطق الفيلبين، أحدهما من حملة الثانوية المحلية، وهم الأكثرون، والثاني من الجامعيين الذين تلقوا دراساتهم في الجامعات العربية.

كانت رغبة الجميع شديدة في حضور الدورة، يحدوهم لذلك الأمل في مزيد من المنفعة، وربما كان بعضهم يتوقع من ورائها تعيينا من قبل بعض المؤسسات الإسلامية في المملكة يعود عليه براتب حسن.. وهذا ما رفع عدد المتقدمين، وبخاصة من القسم الثانوي، فكان القبول منهم على أساس الامتحان الكتابي.

وقد تبين بعد التجربة أن هؤلاء الثانويين ليسوا سواء، فصنفوا حسب مستوياتهم وقدرتهم على فهم العربية، فكان منهم الأول أ والثاني ب، بخلاف الجامعيين الذين قبلوا جميعا فتألف منهم فصل واحد. وكان ثمة بعض النسوة ممن تخرجن في الأزهر طلبن إشراكهن في الدورة فأبرق المسؤول إلى الرياض مستوضحا بشأنهن فجاء الجواب بقبولهن، ولكن لم يحضر منهن سوى اثنتين كانتا على مستوى عالٍ من الحشمة وحسن السلوك، ولكل منهما زوج في الفصل نفسه، وقد أُخِّرَ مجلسهن من حيث أخرهن الله.

كانت الدروس سبعة لكل يوم، والحضور منتظماً لا يتخلف عنه أحد إلا لعذر مقبول. وسيطر الاجتهاد على الجميع كلاً ضمن حدود طاقته.

وقد جرى أول امتحان في مادة الأدب العربي، لأني ـــمدرسهاـــ كنت أول العائدين من الفيلبين، ثم تتابعت الامتحانات لكل مادة أنهى صاحبها أيامه المقررة.. وفي النهاية أجريت تطبيقات عملية في أصول التدريس من قبل كل أستاذ مختص.

وفي وسعنا القول أخيراً إن الدورة قد حققت ما يؤمل فيها من الخير في حدود الزمن القصير الذي خصص لها.

مشاهدات وممارسات

لقد أتيح لنا جميعاً المشاركة في العديد من وجوه النشاط الإسلامي خارج نطاق الدروس، وكان ذلك عن طريق المدارس العربية الإسلامية، وعن طريق الخطب المسجدية.

فمن عادة أصحاب هذه المدارس إقامة الاحتفالات السنوية لإعلان أسماء الناجحين والناجحات من طلابهم، في مواكب يفرغون عليها الكثير من مظاهر البهجة، ولعل الغرض الأول هو الدعاية لمدارسهم واجتذاب الإنتباه إليها، لأنها كلها من النوع الخاص الذي يقوم على الأجور والتبرع.. فكان علينا ـــأساتذة الدورةـــ أن نحضر هذه الإحتفالات ونلقي فيها بعض الكلمات التوجيهية التي كانت تستقبل بكثير من الرضى. وقد أسهم في حضور هذه الإحتفالات كل مشارك في الدورة من الأساتذة، في مدرسة أو أكثر طوال مدة الدورة تقريباً.

كذلك شارك الأساتذة في خطب الجمع، إذ كانوا يوزَّعون على مختلف المساجد. وكثيرا ما يكون بعض هذه المساجد على مسافة عشرات آلاف الأمتار من مركز الدورة. وقد كان نصيبي من هذه الخطب كبيراً، إذ ألقيت العديد منها خارج منطقة ماراوي سيتي أيضاً، فخطبت في كل بلد قدرت لي زيارته مع مدير الدورة بعد امتحان مادة الأدب. كزنبوانغا وكوتاباتو وباسيلان. وفي

طريق عودتي إلى المدينة، ألقيت بعض المحاضرات في المركز الإسلامي وغيره بمانيللا العاصمة. هذا فضلاً عن الدروس اليومية التي كنت ألقيها على المصلين عقب صلاة العصر في مسجد معهد ماندناو مركز الدورة، وفيها أجيب على الكثير من الأسئلة المتعلقة بالعقيدة والعبادة والبدع..

ومما يلفت النظر أن هذه الخطب كانت ذات وقع طيب وعميق في النفوس، إذ كان المسلمون يزحفون بكثرة إلى كل مسجد أو مدرسة ينتظر أن يتكلم فيها أحد الأساتذة. وكان مع كل خطيب مترجم ينقل مضمون كل فقرة من كلامه إلى لغة القوم.

خصائص نبيلة

ولابد هنا من الإشارة إلى بعض مميزات المسلمين في تلك البقاع، فهم على الغالب طيبو القلوب محبون للعرب، وبخاصة أهل المملكة السعودية، ولاسيا إذا كان الوافد عليهم قادماً من أحد الحرمين، ولذلك كانت استجاباتهم سريعة لكل دعوة إلى خير. ونضرب على ذلك بعض الأمثلة:

التدخين ظاهرة عامة بين الرجال والنساء، وبخاصة المدرسين منهم، وقد كدرنا ما رأيناه لدى طلاب الدورة من إدمان على هذه الآفة، حتى لا يكادون يفارقونها أثناء الفسح بين الدروس. وهذا ما دعاني إلى معالجة هذه الظاهرة في الفصول، فنبهت إلى خطر التدخين وقدمت الأدلة المقنعة على تحريمه.. وكذلك فعلت في بعض الاحتفالات المدرسية، حيث بينت مضارها الاجتماعية، وبخاصة في أوساط التلاميذ الذين سينشأون على تقليد مدرسيهم في هذا الأمر.. ثم جاءت المفاجأة الغريبة إذ تبين لنا أن معظم طلاب الدورة قد انقطع عن التدخين لفوره، ثم أخبرنا مدير مدرسة (كامل الإسلام) أن مدرسيه قد هجروا هذه العادة الرديئة بمجرد سماعهم توجيهاتنا.

ومثل ثان هو ما لاحظناه من انتشار السفور في أوساط المسلمات حتى ليتعذر التفريق بين المسلمة وغير المسلمة، وشيوع مصافحة النساء للرجال.. فقدر الله لنا بعض التوفيق في إصلاح هذا الوضع، إذ جعلت أذكر المسلمين في كل مناسبة بما يوجبه الإسلام على المسلم من التميز بسلوكه المترفع عن مسالك الآخرين.. وجاءت الاستجابة كذلك سريعة إذ حل التستر محل التكشف في الأوساط القريبة من أمكنتنا، ولم ندع فرصة أثناء الاحتفالات المختلطة إلا انتهزناها للتذكير بهذه الفضائل المنسية، فلم تذهب توجيهاتنا سدى ولله الحمد.

ثم مثل ثالث وهو خاص ببعض البدع الدينية. فقد ذكِرَ لنا بعض من هذه البدع التي لم نرها، وهي ليست أكثر من أمثالها في أنحاء العالم الإسلامي، وحدث أنني دعيت لإلقاء خطبة الجمعة في أحد المساجد البعيدة عن ماراوي، وهناك شاهدت طبلا ضخماً قد دلِّي بحبال من سقف المسجد، وقد سبق أن رأينا مثل هذا الطبل في متحف جامعة مندناو الحكومية ووصف لي بأنه أداة التبليغ

بمواعيد الصلاة عند المسلمين، فكان لابد لي من الكلام عن هذه الظاهرة، فذكرت جمهور المصلين بأخطار البدع ووجوب الوقوف عند حدود الشريعة الغراء في كل شيء، وبينت لهم كذلك صلة هذا الطبل بمواريث الوثنية التي كان عليها أجدادهم قبل الإسلام، مما لا يزال قائماً في معابد الوثنيين.. ثم أنهيت ذلك التوجيه بإثارة مؤثرة إذ أشهدتهم على تبليغي إياهم، وأشهدت الله عليهم، فكان لذلك رجعه البالغ إذ ما كادوا يفرغون من الصلاة حتى هبوا جميعاً للتخلص من تلك البدعة، وما هي سوى لحظات حتى كان الطبل منبوذاً خارج المسجد بفضل الله وتوفيقه.

من هذه الأمثلة يتضح للمفكر أهم خصائص هؤلاء الإخوة المسلمين، من حيث قربهم من الفطرة، وسلامتهم من التعقيدات التي تستبعد الكثيرين غيرهم، فما إن تلامس قلوبهم كلمة الخير، بالأسلوب الحكيم، حتى تقابلها بالاستجابة الراضية. فضلا من الله ونعمة.

حوار فاتفاق

وهناك حادثة أخرى تؤكد بشكل أكبر صفاء تلك الطبائع واستعدادها الطيب للتوجيه السليم وكانت في الأيام الأخيرة من شعبان.

لقد ألف المسلمون هناك الاختلاف حول بدء رمضان ونهايته، وقلما يعرفون عاماً اتفقوا فيه على ذلك، كما أخبرونا، فلما وجدونا بين أظهرهم عرضوا الأمر علينا رجاء التوفيق بينهم.. وعقدوا معنا اجتماعاً خاصاً لهذه الغاية في معهد ماراوي الإسلامي، حضره العديد من أعيان المسلمين الذين يسمونهم السلاطين، ولما طرح الموضوع كلفني الإخوة بالإجابة عليه، فأوضحت لهم المعلوم من الدلائل الشرعية ومفهومات كبار الفقهاء وبخاصة شهادة الثقات من المسلمين عن الرؤية، والأخذ بشهادة أي بلد إسلامي يقع في منطقة الرؤية، وقد شارك الحضور من الأساتذة وأهل العلم من القوم في الحوار الذي انتهى إلى الإتفاق التام، وبُثّ ذلك الحوار يومئذ من الإذاعة المحلية في ماراوي ولعلها المرة الأولى التي يجتمع بها مسلمو تلك المنطقة على الإتجاه الواحد في موضوع الصوم.

وبمناسبة الكلام عن الصوم أجد واجباً عليّ أن أذكر الذين يهمهم أمر المسلمين في الفيلبين بأن في المناطق النائية عن ماراوي كثيرين من أهل الإسلام لا يعلمون أن فريضة الصوم تستوعب رمضان كله، فبعضهم يصوم الأسبوع، وبعضهم يصوم أكثر أو أقل.. وفي اعتقادي أن المسؤول عن ذلك أولئك الذين يسمونهم العلماء، فقد لاحظت أن بعضهم يتساهل في هذا الأمر ولا يؤكد على المسلمين ضرورة الحفاظ على حرمة الشهر كله.. وفي ظني أنه لو فعل لوجد الاستجابة المتوقعة، وذلك بدافع من تقدير القوم الفطري للمنتسبين إلى علوم الدين.

السبيل ممهدة ولكن..

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى أمر هام لعله من أهم المساعدات على سلامة تلك القلوب واستعدادها الطيب للخير. ذلك هو خلو تلك المناطق الإسلامية من آثار الصوفية والطرقية وما إليها، كالبهائية والقاديانية ونحوهما، ولكن يؤسفنا القول بأننا أصبحنا نخشى تسرب هذه الضلالات إلى هذه البقاع، بعد وصولها إلى أندونيسية القريبة، كما فهمنا ذلك من رسالة وصلت إلى بعض المبعوثين في ماراوي من (الملحق الديني) في جاكرتا بتاريخ ٢٨/ ٧/ ٧٨ الأمر الذي يستدعي اليقظة والتحرك لمواجهة الخطر قبل تسلله فاستفحاله.

أجل.. أن في غياب الطرقية والنحل الهدامة عن ساحة الحياة الإسلامية في الفيلبين خيراً كثيراً، إذ يجعل سبيل الدعوة السليمة إلى القلوب نقياً ممهداً، بيد أن هذا يتطلب بالدرجة الأولى عزائم ترتفع إلى مستوى المسؤولية والحاجة، وتحسن الانتفاع بالجو العلماني الذي يحكم البلاد، فيعطي كل ذي دين الفرص الصالحة لعرض ما عنده، بشرط واحد هو ألا يستغل إمكاناته للطعن على الدعوات الأخرى.

ولقد لمسنا أثر هذا الجو في تحول العديد من النصارى إلى الإسلام عن رضى واقتناع.. وفي مدخل المسجد الذهبي الأنيق الذي شيدته الحكومة اللوبية في مانيلا، واجهنا رجلاً يعمل مع جماعة التبليغ، ولما سألناه عن أثر نشاطهم في غير المسلمين فتح خريطة واستل منها كدساً من (الإستمارات) على كل واحدة منها صورة صاحبها أو صاحبتها وتوقيعه، وبيان عن هويته ومؤهلاته.. وجعل يقول: هؤلاء كلهم قد تحولوا إلى الإسلام بعد الإطلاع على مبادئه.. وأكد لنا أن الجو ملائم أمام المزيد من هؤلاء، لو وجدنا العون الكافي من الكتب المفيدة التي تحسن عرض الحقائق الإسلامية.

آفاق واسعة للدعوة

وفي مانيلا كذلك التقينا برجل فاضل من سكان (داباو) الواقعة في الطرف الأقصى من جزيرة مندناو، يقوم بمساع نبيلة لتثبيت الإسلام في المسلمين، ولنشره بين غيرهم، وقد حدثنا عن مئات من الأفراد اعتنقوا الإسلام على يده، وهم أحوج ما يكونون إلى معلمين يتولونهم بالتدريب والتوجيه.

ثم علمنا من مصادر متعددة أن في بعض الأنحاء من جزيرة لوزون ــ التي فيها مانيلا ــ قبيلة تحولت بأجمعها إلى الإسلام، ويتراوح عددها ما بين الثلاثين والأربعين ألفاً وهي تنتظر من يعينها

على إقامة المساجد، ونشر التعليم الإسلامي الذي لا يكادون يعرفون عنه شيئاً، وكان السبب في نقلتها إلى الإسلام، ما بلغها من أن الإسلام كان دين آبائها الأقدمين، وإنما خرجوا منه تحت ضغط القوى الأسبانية أيام الغزو الأول، فرأوا في العودة إليه اليوم تصحيحاً لوضع خاطىء لا ينبغي له الاستمرار.

وأنا أنقل هذا النبأ العظيم إلى المؤسسات المعنية بالدعوة الإسلامية في كل مكان، وفي مقدمتها دار الإفتاء والبحوث والدعوة والإرشاد، ومجلس الدعوة الإسلامية في الرياض والجامعة الإسلامية في المدينة، والجامع الأزهر بالقاهرة، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وندوة العلماء في لكهنؤ بالهند، وجمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت، ثم إلى المحسنين الذين يتبرعون عادة بالملايين لإقامة المساجد، والإسهام في أعمال البر في كل مكان من العالم الإسلامي، وبخاصة في الرياض والحرمين.. فلعل الله أن يلهمهم الخير فيخصوا حاجة هؤلاء الإخوة ببعض مبراتهم التي يريدون بها وجه الله، فيكونوا إن شاء الله من المضعفين.

مقترحات تنتظر دراسة

والحديث في موضوع الدعوة يستدعي التفكير في البحث عن أصلح الأساليب لإنجاحها. وقد درجت المؤسسات المعنية بهذا الشأن على إيفاد مبعوثين لها من خريجي بعض الجامعات الإسلامية ليقوموا بعمل التعليم والتوعية في الأقطار التي تحتاج إلى ذلك.

ولا جرم ان للكثير من هؤلاء جهوداً طيبة يستحقون عليها الثناء والدعاء، ولكن الذي لا يجوز إغفاله أن معظم هؤلاء لم يعطوا الفرص الكافية للتدريب على أصول الدعوة، ولم يتزودوا من الثقافة العامة بما تتطلبه المواقف المختلفة والمذاهب الخطيرة التي هم معرضون لمواجهتها.. ولهذا نرى أن نضع تحت أنظار المسؤولين عن الدعوة في المملكة بوجه خاص بعض المقترحات التي نراها مساعدة على تحقيق المنشود في مناطق المسلمين من جزر الفيلبين.

إن مشكلة التعليم الإسلامي وتوسيع مساحة العربية لا يحلها استقدام بعض الطلبة للدراسة وتعيين بعض خريجيهم للقيام بذلك في بلادهم. والذي نقدره أن خيرا من ذلك وأجدى إنشاء وحدة تعليمية كاملة في إحدى المدن الوسطى، تتألف من روضة أطفال وأقسام للدراسة الإبتدائية فما فوق حتى الثانوية. ثم كلية واحدة للدراسات الإسلامية، على أن تردف بكليات أخرى فيما بعد تسد حاجة المسلمين إلى العلوم الضرورية، وتؤهل طلابها ذكورا وإناثا، لإنقاذ مناطقهم من التخلف، وتكون الدراسة في كل هذه الأقسام بالعربية والإنجليزية فقط، إذ لا حاجة إلى تدريس اللغات المحلية لأنها أكثر من أن تحصر، ولأنها ستظل حية في الاستعمالات اليومية خارج نطاق الدراسة.. ثم لأن المسلمين هناك يؤمنون بضرورة التعريب حتى تصبح لغة القرآن هي لغتهم الرسمية.

وبما أن جامعات المملكة على اختلافها —ومعها رابطة العالم الإسلامي— تشارك عادة في استقدام الطلاب المسلمين من الفيلبين للدراسة، فسيكون من الخير تشاركها أيضا في تمويل هذا المشروع كل بما تتسع له إمكاناته. وقد سبقت تجربة صغيرة وناجحة في هذا المضمار، إذ تعاونت الجامعة الإسلامية والرابطة في إنشاء (معهد التضامن الإسلامي) في مقديشو، وكان مأمولاً أن تكبر تلك التجربة وتزداد نمواً لولا الصدمة الشيوعية التي قلبت الأوضاع، فسخت المعهد وأحرقت العلماء، ولا تزال تتخبط في طريقها الضائع حتى اليوم.

إن منشأة من هذا الطراز ستسهم إلى حد كبير في خدمة الإسلام والعربية، وستغني عن ابتعاث الدعاة غير المجربين، بما تنشئه هناك من أجيال تنشر النور والخير في مختلف الأصقاع من ديار المسلمين، وستجد الفرص جد مواتية لعرض الإسلام عرضاً ناجحاً على غير المسلمين إن شاء الله.

النشاط التبشيري

وما دمنا في حديث العلم والدعوة فطبيعي أن نلقي نظرة ولو عابرة على أعمال الدعاة الآخرين ومدى نشاطهم هناك.

يقول لي أحد المسلمين في مانيلا: لقد أصبحت الفيلبين الدولة البابوية الثانية بعد الفاتيكان.

وهي قولة حق، فالسائح في معظم هذه الجزر يرى نفسه أبداً محاطاً بمظاهر النصرانية: تماثيل وكنائس ورهباناً ورواهب.. ولولا بعض المآذن تلمح بين الفينة والأخرى لما صدق أن ثمة شعباً مسلماً يقارب خمسة ملايين، فضلا عن أن يتصور كون هذه الجزر كلها كانت ذات يوم أقطاراً إسلامية لا ينازع سلطان الإسلام عليها منازع.

ولنقف من طوابع هذه النصرانية على ظاهرتين اثنتين في (ماراوي) البلد الذي مازال المسلمون يؤلفون كثرته الكاثرة. فهناك مؤسسة تبشيرية تحتل بقعة واسعة من وسط (ماراوي) فيها أقسام التدريس على مختلف درجاتها، ويتبعها مرفق صحي، وفي هذه المؤسسة يتلقى الكثيرون من أبناء الموسرين ذكوراً وإناثاً، كل ما من شأنه أن يجعلهم غرباء عن أمتهم ودينهم.

وفي الطرف الأقصى من ذلك البلد تقع جامعة منداناو التي أشرنا إليها والتي تتألف من عدة كليات يتمرس فيها أبناء المسلمين باستكمال ما فاتهم في المدارس الإنجليزية ومعاهد التبشير السابقة من ألوان الاستغراب.

وفي جانب من هذا الجامعة قسم خاص للدراسات الإسلامية أنشىء بأموال المملكةالعربية السعودية، ولكنه غارق كسائر أقسامها في غمرات الاختلاط الذي لا تلمح فيه العين أثراً للإسلام.

وفي منبسط من الأرض قرب الجامعة يقوم مسجد المغفور له الملك فيصل، تحفة من الفن الإسلامي البارع الجمال... إلا أنه ويا للأسف كالزهرة الناضرة في جحيم الصحراء، لا يكاد يأنس بالصلوات إلا قليلاً.

ولعلي لم أترجم مشاعري وحدها عندما وقفت أحدّق في قسم الدراسات الإسلامية وأتملى النظر إلى طلعة هذا المسجد وأنا أتمتم: ليت المال الذي أنفق عليهماقد أنشئت به تلك المؤسسة الإسلامية التي أحلم بها، إذن لأعانت على إنقاذ هذا الجيل الذي يراد سلخه من كل مقوماته في تلك المصانع التبشيرية.

ولا يحسن المرور بذكر جامعة مانداناو دون الإشارة إلى بواعث إنشائها في تلك البقعة من مناطق المسلمين. ويمكن تلخيص تاريخها في عبارة وجيزة، هي أنها واحدة من تظاهرات التنمية، التي تصطنعها السلطات الحاكمة، لإيهام المسلمين بأنها بدأت تعيرهم بعض اهتماماتها.. ومن أجل ذلك أسندت إدارتها إلى مسلمين، لينوبوا عنها بتنفيذ التنظيم المرسوم، الذي عهد بتصميماته إلى قس أميركي، بوصفه مدير التخطيط الموجه لمستقبل الجامعة.

ولقد حدثني رفيق رحلتي الأخ الدكتور عبد الرحيم أنهم دعوهم —بعد سفري— لإلقاء بعض المحاضرات في تلك الجامعة، واستمعوا إلى مديرها يتحدث عن الجامعة وأهدافها، وكان من حديثه أن الحكومة ترغب في جعل العربية لغة التدريس فيها، وفي سائر مناطق المسلمين رعاية لرغباتهم، ولكن يحول دون ذلك عدم توافر الكفايات القادرة على الوفاء بهذه الحاجة.

ومهما يكن غرض القوم وراء هذا الاتجاه فإنه يطرح أمام الحكومات الإسلامية، ذات الغيرة الصادقة على العربية، فرصة رائعة لإتحاف لغة القرآن بأجل الخدمات.. ولن يكلفها ذلك سوى جزء ضئيل من موازناتها المتخصصة للألعاب الرياضية مثلاً.

مشكلات لابد من حلها:

ومن الظواهر التي استرعت انتباهي في هذه الربوع ما لاحظناه في (حفلات التخرج) المدرسية التي كنا ندعى لحضورها والخطابة فيها، من كثرةالفتيات وقلة الفتيان.. وقد تكررت هذه الظاهرة في كل الحفلات التي شهدناها، حتى اضطررت إلى تتبعها بإجراء بعض الإحصاءات —التقريبية— فانتهيت إلى العلم بأن كل خمسة من الطلاب بينهم ثلاث فتيات على الأقل، وقد ترتفع النسبة إلى $\frac{٤}{٥}$ في بعض المناطق..

وسألت بعض الإخوة الفيليبينيين عن وضع المرأة المسلمة بإزاء هذه الكثرة، وحركة الزواج بين الشباب، والمهور، وتعدد الزوجات.. فكان الجواب غير سار، لأن غلاء المهور يقلل من فرص التزاوج، والفقر يحول دون التعدد، فالمصير إذن هو تراكم النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً.

و يؤسفي أن أقول إن هذه الأوضاع الشاذة قد حَدَت العديد من الفتيات المسلمات للتزوج من نصارى، حتى يوشك أن يكون هذا شيئا معتاداً لا يستحق اللوم فضلا عن الاعتراض.

ولقد خرجت من دراستي لهذا الجانب وأنا على يقين أنه لابد من قيام أهل العلم بحملة صادقة على غلاء المهور، والترغيب في التعدد، الذي إذا كان مشكلة في بعض بلاد المسلمين فإن فقدانه هنا هو المشكلة.

مدارس فقيرة

على أن ذلك كله سيظل بعيد التوقع مع وجود هذا الفقر الشامل لمعظم الطبقات، ولذلك عمدت في خطبي المدرسية إلى دعوة أصحابها لإدخال بعض الصناعات و بخاصة المنزلية على برامج التعليم، حتى يتمكن الطالب والطالبة من التزود ببعض الأعمال المساعدة على تنظيم الحياة وز يادة الدخل، والاستغناء عن طلب الوظائف الحكومية.

ولكن.. كيف يتاح لهذه المدارس الأهلية الفقيرةالنهوض بهذه الأعباء، وهي العاجزة عن توفير الأبنية اللازمة لها إلا عن طر يق المساعدات العربية، التي لا تكاد تفي ببعض حاجاتها. ولكم أشعر بالأسى حين أتذكر يوم ز يارتنا لأقدم مدرسة أقيمت لتعليم الإسلام والعربية في ماراوي قبل أربعين سنة، وهي مدرسة (كامل الإسلام)، فلم نكد نصل إلى المنصة المعدة للزوار إلا بعد أن غالبنا مخاضة من الوحل.

ولكنها تستحق التقدير

ولا يحسن بنا أن نختم الحديث عن هذه المدارس قبل أن نسجل لها تقديرنا الكبير لما تقوم به من مجهودات مشكورة في سبيل تثبيت معاني الإسلام، وترسيخ جذور العربية، لا في الألسنة فقط بل في أعماق القلوب.. والمفكر الملم بواقع هذه البلاد لا يستطيع أن يتجاهل دور هذه المدارس الفقيرة في الحفاظ على الطابع الإسلامي في المدرسة والشارع والبيت، بإزاء تلك المدارس الأخرى التي تخلت عن التعليم الإسلامي واللغة العربية، لتنشىء الجيل الذي لا يكاد يعرف عن دينه شيئا خارج حدود الهو ية الموروثة، و يوشك أن تبتلعه نهائياً موجة السلوك الأمر يكي التي تر يد أن تدمر كل ما يمت إلى القيم الإسلامية بأي صلة.

بين الأصالة والتقليد

في العاصمة (مانيلا) وصباح اليوم التالي لوصولنا، قصدنا إلى مكتب الخطوط لحجز مكان لنا في الطائرة المتجهة إلى سيبو، ولما فرغنا من ذلك عدنا بسيارة أخرى إلى الفندق ولكن السائق ــذا الوجه الصينيــ لم يسلك بنا الطريق الذي أتينا منه، بل راح يدور هنا وهناك، وكأنه لا يعرف المكان المقصود. ولما كرر زميلي الدكتور عبدالرحيم تنبيهه قال: ألستم تريدون نساء؟ــ. فأنا آخذكم إلى فندق يسركم.

قال ذلك بلهجة طبيعية، وكأنه يشير إلى طعام أو شراب.. ولم يستح من أزيائنا ولحانا.. وبعد أخذ ورد، وكلام يشبه الإنذار باللجوء إلى الشرطة رضي أن يبلغنا مأمننا..

وفي ذلك المساء نفسه خرجنا للتمشي قليلاً، على رصيف الميناء المظلل بالنارجيل، فلم نكد نجد موضعاً نستريح فيه، لأن أفضل تلك الأمكنة مشغول بالأوضاع الشيطانية.

وقد سبق لهذه الظاهرة أن واجهتنا في كوالا لامبور ــعاصمة ماليزيةــ حيث اضطررنا للمبيت في واحد من أفخم فنادقها، وكان مما آذانا هناك مشهد امرأة تجلس على متكأ أريكة فوقها رجل في وضع مخز لا يقيم وزنا للأذواق ولا للأخلاق، وذلك على مشهد من الداخلين والخارجين والنزلاء الغارقين في جو الموسيقى والأضواء الخافتة..

أذكر هذا لأخلص إلى القول بأن هذه الأوباء الخلقية لم تزل حتى الآن غائبة عن مجتمعات المسلمين في هاتيك الربوع ولله الحمد.. فالمرأة المسلمة في الفيلبين بخاصة لا تنفك محافظة على امتيازها الذي توارثته من تقاليد مجتمعها المتميز، فلم نلمح هناك أي ظاهرة من الهبوط الذي تعيشه الأوساط الأخرى. إلا أننا لا نكتم ألمنا لما واجهناه في بعض المدارس من اختلاط ترفضه قيم الإيمان.. وكأني بهذه المدارس قد أرادت من وراء ذلك إبراز (تقدميتها) لتجتذب بنات (الكبار) الذين لا يرون الخير إلا في مجاراة الكَفَرة، والأخذ بنصيب كبير من تقاليع الحضارة المدمرة.. هؤلاء الطالبات اللواتي شاهدنا أمثلة منهن في أكثر من بلد، هن اللواتي يشددن بمجتمعهن النظيف إلى التمرغ في مستنقعات الإثم، الذي لا تفقد رؤية معالمه في أي مكان من ربوع غير المسلمين في الفيلبين.

وحتى الآن كان حديثنا عن الجانب المتعلق برحلتنا إلى الفيلبين، ولكن الكلام عن الإسلام والمسلمين في تلك الجزر سيظل أبتر ما لم يتناول الرصد الدقيق للجوانب الأخرى التي تكتنفها هناك، والتوقعات التي لا مندوحة للمفكر المسلم عن التطلع إليها.

من عالم إلى عالم

أول ما يواجه الباحث في شؤون المسلمين هناك من أحوالهم هو التخلف والفقر، أما التخلف فبارز في رداءة الطرق التي تخترق مواطن المسلمين، وكأنها لم تتصل بوسائل التمهيد أو التعبيد قط، فالحفَر تملأ السبل وتضعضع السيارات، وتعرض ركابها للنصب الشديد، وتحرم السكان من نعمة السرعة التي حققها العلم الحديث، فالمسافر في السيارة كالراكب ظهر الدواب، لا يبلغ غايَته إلا بعد شياط ومياط. ولهذا أثره في تأخر الحياة الإقتصادية وجمود الناس على ما يشبه الأعمال البدائية، فلا صناعات ولا مصانع، ولا إنتاج خارج حدود العمل الزراعي الأولي، اللهم إلا بعض معامل قليلة ومحدودة قامت حديثا لتصنيع النارجيل الذي هو المورد الرئيسي هناك.

على أن المسافر لا يكاد يفارق مواطن المسلمين إلى أصقاع النصارى حتى يخيل إليه أنه انتقل من عالم إلى عالم. فالطريق التي هي هناك مثال الرداءة والإزعاج تستحيل هنا جواد لا مثيل لها إلا في أرقى بلاد العالم، والمصانع على اختلاف أنواعها تطل عليه من هنا وها هنا شاهقة جبارة، مشرفة على المرافىء التي تنقل فائض نتاجها إلى مختلف أرجاء الدنيا. ونشير من ذلك بخاصة إلى ما يشاهده المرء أثناء مروره في مدينتي (أليغان) و(كاغيان) الواقعتين في الطريق من ماراوي إلى مطار هذه الأخيرة.

وطبيعي أن يكون لتلك المفارقات انعكاساتها البارزة على حياة السكان، فبينما ترى ملامح الفقر والتخلف على كل مظاهر السكان المسلمين ومواطنهم، ترى هنا كل ظواهر النشاط والتقدم ماثلة ناطقة في وجوه النصارى وتصرفاتهم ومساكنهم.

ولا تفسير لذلك كله سوى أن ثمة تخطيطاً يستهدف حرمان المسلمين كل أسباب التقدم، وحصرهم أبداً في جو من التأخر لا سبيل معه إلى الأمل بمستقبل أفضل.. وهذا كله مع العلم أن مناطق المسلمين وبخاصة في منداناو تمتاز بروائع الطبيعة من حيث الجمال والغابات والمياه وكل الأسباب المساعدة على الرقي والرفاه.. وحسبنا أن نخص بالذكر من ثرواتها الطبيعية تلك البحيرة العذبة التي تكاد تشبه بموقعها الأبيض المتوسط، ومع أنها تمد المنطقة المحيطة بالأسماك التي لا تنضب، وتصل بين أجزائها بالوسائل الملاحية المختلفة، ففيها من الإمكانات ما لا يزال ينتظر الأذهان المفكرة، والأيدي التي تحسن الاستغلال، وفي ظني أن أي إقليم متقدم لو أعطي مثلها لأعطته من المردود ما لا يصل إليه الخيال.

كنوز.. ولكن!!

ونظرة مماثلة إلى الجبال والسهول والمناخ الريان توحي بأن ثمة كنوزاً لا نهاية لها من الخير، لكنها كاليتيم الموهوب لا يجد من يأخذ بيده إلى الفاعلية المؤهل لها.

المطر كل يوم، لم أذكره أخلف يوما واحداً، ينهمر بقوة حتى يغرق الأرض، فإذا كف عن التهطال لم تكد ترى له أثراً تحت قدميك. والخضرة تكسو كل شبر من الأعالي والأداني إلا السبل التي تعبدها الأرجل والسيارات، ومع ذلك فكل معتَمَدِهم الأرز لطعامهم فقط، والنارجيل الذي يغطي السهول والهضاب، وأنواع من الثمار والخضار لا أعلم أنها تشحن إلى خارج المنطقة.. أما الأنعام من بقر وغنم فكأزاهير البادية لا تكاد تلمحها العين إلا في الندرة، والأغرب من ذلك أن مالك البقرة والجاموسة لا هم له بشيء من لبنها ومشتقاته.. فلا جبن ولا زبد ولا شيء من الموارد الأولية للحيوان. وقد سمعنا أخيراً أن جامعة منداناو ــ التي حدثناك عنها ــ قد بدأت الاهتمام بهذا الجانب، فاستحضرت بعض البقر الحلوب، وجعلت تعرض بعض لبنه للبيع في قوارير.. ونأمل أن يكون لذلك أثره في توجيه أفكار الناس إلى هذا المورد الذي لم يجربوا معرفته بعد! ولعل ذلك أن يكون أيضا سببا لتحريك الهمم الراقدة ودفعها إلى تغيير هذا الواقع الاقتصادي الذي لا أعرف له مثيلاً في غير هذه الأوساط.. ومن يصدق أن شقة مؤلفة من ثلاث غرف وتوابعها، وفيها كل ما يتطلبه النزلاء من فرش وسرر وثلاجة ومقاعد، لا تكلفك مع ذلك أكثر من خمسين دولاراً للشهر.. وأن فتى يشتغل ليل نهار في خدمة شقتين ولا يتقاضى أكثر من عشرين دولاراً طوال الشهر.. وأن سريراً للنوم يتسع لعدة أفراد، وقد صنع من أروع الخشب الملون، وَوشّيَ لوحاه بأدق النقوش المحفورة بغاية الإتقان، لا يعدو ثمنه خمسين دولاراً!...

وحسبك من هذا وما وراءه من أوضاع، دليلا على ما أشرت إليه من التخلف العام، الذي لا تجد له تعليلاً في فقدان الذكاء، أو انعدام المواهب، لأن الذكاء والموهبة بعض صفات المسلمين في جزر الفيلبين، وإنما يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى غياب الحوافز المشجعة على التطور الصاعد، ولو هي توافرت لهؤلاء الإخوة لكان جديراً بهم أن يحيلوا بقاعهم الفاتنة جنانا، تفيض عسلاً وذهباً، وأنعاماً تنافس أسترالية على أسواق العالم.

لا بد من الأمن أولاً

على أن استثمار هذه الطاقات الطبيعية والبشرية تقتضي جيشاً من الخبراء ذوي الاختصاص بمختلف وجوه التنمية، ولا سبيل إلى ذلك ما لم تسترد هذه الربوع الحزينة أمنها، ولا مطمع لها بالأمن ما لم يملك المسلمون حقهم في تقرير مصيرهم، والتفرغ لتدارك ما فاتهم من أشواط في طريق الترميم والبناء. ويومئذ يثار الضمير الإسلامي لِحشد الخبراء العارفين بأساليب العمل، وتجد صناديق التنمية العربية، والبنوك الإسلامية المبرأة من الربا، طريقها الصحيح إلى إقامة مختلف المشروعات المحققة لأكبر أنواع النجاح.

أما في الظروف الراهنة، حيث لا يأمن الزراع على أنفسهم فضلاً عن ثمار تعبهم، فمن غير المعقول وجود الخبير أو المالي الذي يقدم على أي ضرب من المغامرة.

مجهود دون مردود

أثناء تجوالنا في بعض هذه البقاع الإسلامية من الفيلبين شاهدنا المجهود الجبار الذي ينهض به الفلاح، وهو يغوص مع جاموسته إلى ركبها في مستنقعات الأرز، فأشفقنا عليه ودعونا له الله، وكان معنا في السيارة أخ من تلك المناطق، فقال: وليته ينتفع بهذا الجهد الذي يبذله.

وسألت الأخ عما يعنيه بذلك فقال: إنهم يحرثون ويجهدون و يستصلحون حتى إذا حان موعد الحصاد أحاط بهم الجنود يطاردونهم، فيقتحمون بيوتهم لاستلاب الصالح من محتوياتها و يذبحون جواميسهم الحرّاثة، فلا يملك هؤلاء المساكين سوى الفرار بأرواحهم وأبنائهم، إذا أتيح لهم الفرار، وهكذا كلما نضج الثمر في مكان فاجأه الجنود ليستولوا عليه ويحولوا بينه و بين أولئك البائسين.. ومن أجل ذلك ترى الكثير من حقول المسلمين خاو ية غير مزروعة، لأن أصحابها لا يأملون بخيرها..

وطبيعيٌّ أن المقاومة مستحيلة في مثل هذا الجو الرهيب لأن عاقبتها قتل الرجال وهتك الأعراض، وتدمير المساكن.. وقد رأينا بأعيننا بقايا الحرائق في العديد من مناطق المسلمين حتى في وسط ماراوى نفسها، ذلك لأن الجيش الباسل يجد إبادة العزل من المدنيين في مساكنهم، أسهل عليه وأنجح من مواجهة المجاهدين في معاقلهم!

و يل للظالم من المظلوم

ولعل القارىء يتذكر أخبار الأربعة والثلاثين ضابطاً الذين قضى عليهم المجاهدون في أحد قطاعات الثورة، إذ أذاعت الوكالات العالمية أنباء مصرعهم دون تعرض للأسباب الباعثة على ذلك الحادث، وقد علمنا نحن تفصيلات الواقعة على حقيقتها، فإذا هي كما يلي:

كان على رأس هذا الفريق من العسكر يين جنرال عرف بقسوته الهائلة على المسلمين المدنيين، وقد بلغ به الطغيان أن أقدم على هتك الأعراض، وخص بهذه الجريمة أسرة قائد المجاهدين نفسه في ذلك القطاع.

ولما جرى الاتفاق على مبادىء الهدنة في طرابلس الغرب، أسرع هذا الجنرال إلى الإتصال بالقائد المذكور يستدرجه للتسليم و يغر يه بالوعود —قبل أن تحميه اتفاقية الهدنة— ولم يكن قد بلغه أي توجيه بوقف القتال من قبل المسؤولين عن الثورة، فما كان منه إلا أن قابل خداع الجنرال بخداع مثله، فاستدرجه إلى منطقة القتال ليفاوضه على التسليم الذي يطلبه، وهناك سلطت على الجنرال ومن معه القذائف التي طالما سلطوها على فرائسهم، وبذلك شفى الرصاص صدور المظلومين من أولئك الظالمين في ظروف حربية لا تشملها أحكام الهدنة.

وبديهي ألا تشير محطات الإذاعات الأجنبية يومئذ إلى خلفيات الحادث، بل تكتفي بعرضه على الصورة التي تخيرتها، لتؤلب الرأي العام العالمي على رجال الثورة، إذ تعرضهم في صورة الوحوش التي لا تقيم وزنا للدم الإنساني، ساكتةً حتى الخرس عن جرائم أصحابهم، التي أغرقت مواطن المسلمين بدماء الأبرياء دونما ذنب سوى كونهم مسلمين.. والويل للظالم من المظلوم.

والحديث عن تخلف مسلمي الفيلبين يسوق إلى الكلام عن ثورتهم التي ملأت أخبارها صحف العالم حينا من الدهر، ثم سكتت عنها أو كادت، حتى لكأنها استحالت رماداً لا حرارة فيه.

مقاومة لم تتوقف

لقد بات معلوماً أن هذه الثورة إنما تفجرت كرد فعل للتعصب الصليبي، الذي انطلق كالسيل الجارف يدمر على المسلمين، إزهاقاً للأرواح، وانتهاكاً للحرمات، واغتصابا للأرض.. وقد شاهدنا بالعين قرى كانت مقراً للمسلمين حتى قبل سنوات قليلة، وقد استحالت اليوم أملاكا للنصارى، بعد أن اجتاحوها بقوة الحديد والنار، ولم يبقوا من أصحابها المسلمين إلا من تأخر به الأجل.. فاستطاع الفرار من الموت إلى حيث وجد ملجأه في كنف إخوانه من أهل القرى الأخرى.

كل هذا قد بات من بدائه المعلومات، ولكن الذي يجهله الكثيرون، وبخاصة مسلمي البلاد العربية هو أن هذه الثورة ليست حدثا جديداً، بل هي امتداد تاريخي لثورات تكاد لا تنقطع منذ الغزو الأسباني لعذراء ماليزية ــ الفيلبين ــ قبل مئات السنين.

إن الهزائم التي حلت بمسلمي الأندلس على أيدي متعصبة الأسبان قد أثارت كَلَبَهم لمطاردة المسلمين حيث كانوا، ومن هنا جاء غزوهم لهذه الجزر، وتسميتهم سكانها المسلمين بالمورو.

لقد كان المسلمون هم وحدهم أصحاب السلطان في هذه البقاع لا ينافسهم فيها أحد، فلما استبانت لهم أهداف هؤلاء الغزاة وقفوا دون مطامعهم كالسد الحاجز، وبذلوا في سبيل دينهم وحرياتهم كل ما تتطلبه الحرية والدين من البذل.. وكادوا يتغلبون عليهم فيردوهم على أعقابهم يلعقون دماءهم، لولا الخيانات التي اقترفها بعض سلاطينهم، فباعوا أنفسهم وأوطانهم للعدو، بل لقد جاوز بعضهم في الخيانة كل حد، فانسلخوا من دينهم ليدخلوا في دين هذا العدو الطاغي، مقابل بعض الفضلات من مائدته. وهكذا استطاع الغزاة ترسيخ أقدامهم في بعض هذه الجزر، ليجعلوا منها جسوراً للانطلاق إلى سائرها. ومنذ ذلك العهد لم تتوقف المقاومة الإسلامية قط هنا وهناك، حتى كان عام ١٨٩٨ يوم سلِّط على الأسبان منافسوهم الأميركان، فمازالوا بهم حتى أجلوهم عن الجزر كلها.

بين الأسبان والأميركان واليابان

ولم يكن حظ المسلمين من الأميركان أقل شراً منه عند أسلافهم الأسبان، إذ أعلن هؤلاء منذ الوهلة الأولى أن هدفهم تنصير المسلمين، فكان الفرق بين العدو ين أن الأول يشد بالمسلمين إلى الكثلكة، في حين يشدهم الثاني إلى البروتستينية.. بيد أن الأميركيين كانوا أكثر واقعية إذ ما كادوا يلمسون تضحية المسلمين ذوداً عن دينهم ووجودهم حتى كفكفوا من غُلَوائهم، وألانوا جانبهم للمسلمين، وصرفوا النظر عن محاولة التنصير، واعترفوا للمسلمين بالحقوق الأساسية، كما تركوا لهم المناطق التي ظلوا يحكمونها طوال العهود الأسبانية، إلى أن كانت أيام الحرب العالمية الثانية، وقام اليابانيون بغزو الجزر الفيلبينية، في ما غزوا من أقطار جنوب شرق آسيا، فوقف المسلمون مع الأميركان ونصارى البلاد في وجه الطغيان الجديد، حتى انتهت الحرب ونزح اليابانيون عن الجزر، ثم رأى الأمر يكيون أن يتركوا البلاد لأهلها، فغادروها عام ١٩٤٦ على أن للنصارى دولتهم وللمسلمين دولتهم أيضاً، إلا ان النصارى لم يكادوا يطمئنون إلى قوتهم حتى شرعوا بالزحف على ديار المسلمين يدمرون ويحرقون و يقتلون، وكان على المسلمين أن ينظموا أمرهم لرد هذا الزحف الشرس استبقاء لوجودهم ودفعاً عن دينهم.. وهكذا انتهى الأمر بشبابهم أخيراً إلى اللجوء للجبال حيث لا تزال أعداد كبيرة منهم ترابط في الأدغال، إيثاراً للموت بحر ية على الاستسلام المهين إلى سكاكين الجزار ين.

مفاوضات ومغر يات

وغير خاف على المتتبعين لأحداث الثورة الإسلامية في الفيلبين المراحل التي مرت بها حتى الساعة، فقد لقيت أول الأمر مساندة بعض الدول العربية، فتلقت السلاح والمال والمعونات المختلفة، وقامت بعض الجهات بتدر يب المجاهدين في ولاية صباح ـــ الماليز ية ـــ وغيرها، وكان لذلك أثره في رفع معنويات المجاهدين وإضعاف شوكة العدو، وبخاصة بعد الذي لاقاه من هزائم منكرة على أيدي هؤلاء الأبطال، حتى لم يعد يجرؤ على الدنو من معاقلهم، واكتفى بالانتقام من العزّل، فكلما أنزل المجاهدون ضربة بجيش العدو عمد هذا إلى مساكن أهلهم فدمرها، وإلى أعراضهم فانتهكها، وإلى مساجدهم فهدمها على من فيها.. ولكن المساندة الإسلامية ـــ العربية بخاصة ـــ كانت متناسبة مع عدوانه، حتى إذا أحس بمبل بعض مصادر البترول العربي إلى حجبه عنه، لم يسعه إلا أن يعمد إلى الحيلة، فدعا إلى الدخول في مفاوضات حول حقوق المسلمين، وأعلن اعترافه بالمبادىء الأساسية للثورة.. وانطلت الحيلة على وسطاء الخير من الحكومات العربية، فأشاروا على قادتها بإعلان الهدنة، لكي يتاح لحكومة ماركوس تنفيذ ما تعهدت به، وهكذا سكتت البندقية، وتكلم القلم، ثم تألفت لجان وقف إطلاق النار، وكان تأليفها على الصورة التي انتهى إليها خدمة رائعة لأعداء الثورة، إذ كشفت لهم الأستار عن كثير من أسرارها.. ثم راحوا

يستغلون جمود الحركة الثورية، فيطرحون عن طريق عملائهم من كبار المرتزقة المغريات المختلفة لاجتذاب بعض قادة المقاتلين إلى الانسحاب من الأدغال التي ضاقت بهم في ظل الهدنة، التي لم يكن لها من أثر بالنسبة إليهم سوى إثارة الملل وضياع الأمل. فلم يعدم هؤلاء العملاء الوسيلة لإقناع بعض المقاتلين بالتسليم للحكومة مقابل شروط حسبوها خيرا للمسلمين، ولكنها لم تر النور حتى الآن، بل كانت منّ الخدع الكثيرة التي لُوِّح بها للمسلمين دون جدوى.

جهاد بغير إمداد

ولقد لقينا بعض هؤلاء المستسلمين فحدثونا عن الدوافع التي أكرهتهم على هجر الأدغال بعد العديد من المعارك التي خاضوها مع العدو، فكان بعضها فقدان المعونة، حتى ليقسم أحدهم بالله أنه لم يقبض قط من العون سوى ألفي ريال طوال السنين الأربع التي قاد فيها آلاف المجاهدين!

ولقد توالت علينا شهادات المقاتلين من مختلف القطاعات عن انقطاع العون سواء في العتاد أو الطعام، حتى ان بعض القادة ليشكون أنهم ومن معهم لا يكادون يجدون القوت لولا فضل الله عليهم بما وفر لهم من الأعشاب البرية التي يقيمون بها أصلابهم.

وقد أدى هذا الانقطاع إلى انتشار الشكوك في هذه القطاعات، حتى أصبح كل فريق يتهم الفريق الآخر بأنه يحتكر الوارد من العون وحده.. ولعل هذه الشكوك من أخطر ما يهدد الثورة من داخلها في الظروف الراهنة.

تخطيط يهودي

ولنقف قليلا على ظاهرة الاستسلام التي نحن بصددها:

هناك حالتان خطيرتان. أما الأولى فهي الحفاوة الكبرى التي تستقبل بها السلطات القائد الذي يستسلم لها، إذ تسلّط عليه الأضواء، وتعرض مشاهده وتصريحاته بمختلف وسائل الإعلام المنظورة والمسموعة والمقروءة، لتوهم زملاءه بأن الخير في متابعته.. وأما الثاني فهو خاص باستسلام الأفراد العاديين، فإن الواحد من هؤلاء يقدم على التسليم هربا من السأم الحاصل من توقف المعارك، ودفعا للحاجة التي لا يطيق مدافعتها، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه في وضع لم يكن ليتصوره، ذلك أن السلطة التي يواجهها لا تريد أن تصدقه إلا أن يقدم إليها البرهان الحاسم على صدقه معها، وأول ذلك الاعتراف بأسماء رفاقه وأمكنتهم وتحركاتهم ومدى استعدادهم، وآخره قيامه باغتيال بعض هؤلاء الرفاق.

وهكذا بدأت سلسلة من الاغتيالات في مختلف المناطق القريبة من معاقل الجهاد، حيث

يصطاد الأخ أخاه، انقاذا لنفسه من الموت الذي يتهدده من خلفه.. ثم تستمر حلقات الجريمة وفق التخطيط الذي لا نستبعد أن تكون وراءه أيدي المستشارين الذين قدمتهم إسرائيل للرئيس ماركوس، ليكرروا بين المسلمين المجازر نفسها التي جربوها في فلسطين.

وطبيعي أن يكون لهذا التخطيط الجهنمي أثره الرهيب في بذر الريب وتفكك الصفوف وإثارة الضغائن، التي ستجر قريبا أو بعيدا إلى عمليات للثأر بين أسر القتلي وأسر القاتلين وقبائلهم، مما يعطي العدو أنجح الفرص لتمزيق البقية الباقية من عرى الوحدة بين المجاهدين أنفسهم.



• معهد ديغوسي الإسلامي

استفهامات حائرة

في هذا الجو المحموم تثور الظنون وتنطلق التساؤلات، ومعظمها يتركز حول القيادة: ماذا تعمل؟.. أين تذهب المعونات؟ لماذا تخص بالدعم فريقا دون غيره؟..

وأكبر هذه الاستفهامات الحائرة ينصب على طابع القيادة: إن الإسلام هو مفجّر هذه الثورة، فلماذا تسند قيادتها إلى أصحاب الفكر غير الإسلامي؟.. من المستحيل أن يؤتمن على المصير غير الموثوقين إسلاميا.. ثم.. إن الإسلام يفرض الشورى.. فلِمَ تعالج القضية كلها بالرأي الفردي الاستبدادي؟..

وذات يوم وفد لزيارتنا عدد من الشباب المتعاونين مع الثورة، وعرضوا لنا القضية بتفصيل دقيق، ولكنه لا يخرج عما توصلنا إليه. وكان مما قالوه: إن المقاتلين مصممون على الاعتصام في الجبال وفاء بعهودهم، وهم على الرغم من كل العوامل المثبطة على مستوى عالٍ من المعنويات، ولكنهم يريدون قيادة إسلامية لا تتأثر بيمين ولا يسار.. ولا تتحكم فيها أهواء السياسة من هنا وهناك.

وأدركنا ما يرمي إليه هؤلاء الشباب المثقف من إقصاء قيادتهم عن الانسياق في تيارات المتناقضات العربية.. التي توشك أن تحطم مسلمي الفيلبين كما مزقت من قبل مسلمي فلسطين.

تطلعات وأمنيات

وتلخيصا لما خبرناه من واقع الثورة، وموقف المسلمين حيالها، عرضنا على الشباب الأفكار التالية بغية الوقوف على رأيهم فيها:

قلنا لهم: المجاهدون المعتصمون في الأدغال الذين يعيشون القضية ساعة فساعة، هم أصحاب الرأي الأعلى والأسدّ في الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه دستور الثورة. والذي أراه أن على قادة هذه القطاعات، وكلهم من أهل العلم والدين، أن يجتمعوا للتداول في هذا الموضوع، ثم يتفقوا على اختيار ممثل عن كل قطاع، ومن هؤلاء الممثلين يتألف المجلس الاستشاري، الذي بدوره يختار اللجنة التنفيذية العليا لقيادة الثورة، ثم تختار هذه اللجنة من أفرادها وليّ الأمر لمدة معينة يعاد بعدها انتخابه أو سواه للولاية العامة، بشرط الاّ يصدر أمرا هاما إلا بموافقة اللجنة أو أكثر أعضائها. أما المعونات المادية والعسكرية فتحال إلى مجلس القطاعات الاستشاري ليتولى توزيعها حسب حاجة المناطق.

وبهذا التنظيم نغلق النوافذ دون الشكوك والظنون والاستبداد، ويكون كل قطاع مطمئنا إلى أن الأمور تجرى على الوجه الأصح والأكمل ولمصلحة الجميع.

هذا ولابد من قيام تنظيم سياسي يرافق هذاالتنظيم العسكري و يتعاون معه في انسجام تام، وتتحدد مهمته في التوجيه المعنوي والإعلامي في كل ما يتصل بشؤون الثورة، وإليه يعود حق التصريح والمفاوضة والاتصالات السياسية، واستقطاب التأييد للقضية في المحافل الدولية والعالمية..

و يبدو أن هذه الأفكار لامست ما في صدور الشباب من تطلعات وأمنيات فأعلنوا رضاهم عنها وتمنوا لو ننقلها إلى المسؤولين لإقناعهم بالتزامها.

ونقول الآن : لو استطعنا بتوفيق الله الاتصال بهؤلاء المسؤولين لبلغناهم ما أرادنا الشباب على تبليغهم إياه، ولأضفنا إلى ذلك التوكيد لهم بأن هذه الخطوط التنظيمية قد صادفت كامل الرضى من كل الشباب الذين هم عصب الثورة في كل مكان زرناه من تلك الجزر.. بل إننا لنقول لهم بكل يقين أن قبول هذه الأفكار، ووضعها موضع التنفيذ، هي السبيل الوحيد لاستعادة الثقة، وترميم الفَجَوَات التي بدأت تنتاب الصفوف العزيزة على كل مسلم، وإلا وإن لم يفعلوا فعليهم أن يتحملوا تبعة كل نكسة تتعرض لها القضية داخل الحركة نفسها.

تخلف مؤسف

ولقد يسّر الله لنا لقاء الكبار من الفريقين المختلفين كلا على حدة وفي أوقات متقاربة وعرضنا لهم خلاصة مركّزة للأفكار التي أحرزت موافقة الشباب في الفيلبين. فأبدى كل منهم رضاه عنها، ولم يرَ فيها موضعاً للاعتراض. وقد افترقنا يومئذ على أمل أن نعاود الاجتماع بعد أن يكون الأستاذ عبدالباقي أتم استشارته مع الأستاذ مسواري، إلا أننا لم نتمكن من رؤيته بعد ذلك!.

ثم تبين لنا بيقين أن هذا الفريق العزيز غير قادر على حرية التصرف لارتباطه بإحدى الجهات التي سبق أن مدت يد العون للثورة.. وهي لا ترى المصلحة في توحيد الصف، ومن أجل ذلك حالت أكثر من مرة دون التقائه مع فريق الأستاذ هاشم سلامات، على الرغم من الدعوات العديدة التي وجهت إليه من قبل كبار أصحاب الفضيلة العاملين في ميادين القضايا الإسلامية.

و بإزاء ذلك لم يكن بد من التخلي عن الفريق المتخلف والتعاون الجادّ مع الجانب الآخر، الذي اتضح أنه الجانب المؤيد من جمهرة المجاهدين.

الركود الذي تفرضه الهدنة

لقد أشرنا في إحدى الفقرات المتقدمة إلى (العملاء الكبار) الذين يقدمون خدماتهم للجهات العليا في تخريب عملية الثورة، فيتقربون إلى بعض قادتها حتى يستحوذوا على ثقتهم.. وقد نجح

بعضهم في التأثير على البعض، فاستنزلوه من معاقله.. وقد شجع هذا الوضع بعض (الصغار) فجندوا أنفسهم لخدمة العدو علنا و بكل ما أوتوا من قوة، حتى أصبحت لهم هذه الخدمة حرفة للارتزاق.

إن هؤلاء وأولئك يقدمون على فعلتهم وهم يرون و يعلمون ما يعانيه قومهم المسلمون من شقاء لا يوصف من قبل التعصب الصليبي، ولعلهم قد وجدوا في فترة (اللاحرب واللاسلم) التي يعيشها المجاهدون بانتظار التسوية الموعودة حافزا لإبراز أنفسهم على هذه الصورة، التي لا تفسير لها إلا بأنها تحد لحركة الجهاد نفسها.

وأخوف ما يخاف هو أن يتكاثر هؤلاء، حتى يمسوا قوة عائقة للثورة، وإنما تزداد قوتهم و يتفاقم خطرهم تبعا لحالة الركود، التي تفرضها الهدنة الممتصّة للطاقات.

بين الصبر واليأس

لقد خرجنا من دراستنا لأحوال المسلمين هنا بيقين تام أن السواد الأعظم منهم مؤيد للثورة حتى الموت، فهم موقنون أن الثورة هي حصنهم الأخير، ولو قُدّرَ لها الإخفاق، لا سمح الله، لاجتاحهم الإعصار الصليبي جميعا.. ولانتهت بهم الكارثة إلى الابادة أو الخروج من الاسلام والعياذ بالله!.

لقد عانى المسلمون قبل الثورة وأثناءها وخلال ركودها، ألوان المحن وهم يسمعون و يبصرون كل يوم عدوانا جديدا على أنفسهم وأموالهم وشبابهم، فلا يزيدهم ذلك إلا إيمانا بالثورة واحتقارا لأعدائها.

ولكن لكل طاقة حدودها، وآخر حدود الصبر أول حدود اليأس.. فإذا استمر الوضع على هذا البرود دون حركة فالعاقبة هائلة ورهيبة، ولا يستطيع أحد لها تصويرا.

حوار حار

في زانبوانغا ــ وأحسبها أروع حواضر الفيلبين ــ وجدنا سيارة المركز الإسلامي بانتظارنا في المطار، وبصورة عفوية امتطيناها أنا وزميلي مع مستقبلينا، ومضت تشق بنا الطريق الجميل بين الحدائق والقصور، حتى انتهينا إلى حيث أرادوا، وعلى مدخل المركز الفخم ألفينا الشباب والشابات بانتظارنا، وأقبلوا يصافحوننا بحفاوة بالغة، وعزّ عليّ أن أتساهل في ديني، فاعتذرت عن مصافحة الفتيات، وبينت حجتي من النهي النبوي الذي لا يسع المؤمن الملتزم خلافه. ولما ضمتنا قاعة الاستقبال الصغيرة لم يسرني ما شاهدته هناك من اختلاط الجنسين، وبخاصة ذلك التكشف

الذي بدت فيه الفتيات، من السراويلات الضيقة والأذرع الحاسرة، والشعر المسترسل في استهتار وإغراء.

ولم أتمالك فقلت، وفي لهجتي غصة لم أستطع كتمانها: أهذا هو المركز الإسلامي؟ .. إني أرى تناقضا غريبا، مسجد يعلن مظاهر الإسلام، وتبذّل يسجل الانحراف عن جادة الإسلام.. فكيف اجتمع هذان النقيضان في مكان واحد؟.

وكانت مفاجأة لم يتوقعها الحضور، وحاول كبيرهم لفلفة الموضوع فقال: هذا واقع لا يمكن تغييره دفعة واحدة.

قلت: ومتى تبدأون في تغييره؟.. أم ثمة توجيه خفي يراد به ايجاد إسلام من نوع خاص؟..

وهزّه هذا القول فأخذ يؤكد لي حرصه وزملائه على نشر الإسلام كما درسه في مكة التي قضى فيها سبع سنين.

فقلت: وهل رأيت في مكة مثل الذي أراه لديكم؟..

فلم يسعه إلا النفي.. ولم يسعني إلا التصريح بأني سأنقل مشاهداتي إلى الذين يتطلعون لمعرفة ما في هذه الديار من أحوال إخوانهم المسلمين.

والظاهر أن الحوار كان أكثر حرارة مما كان يتوقع، فكان هذا آخر عهدنا برؤيته، حتى لقد غاب عن حضور العشاء الذي دعانا إليه أحد أعيان المسلمين مساء ذلك اليوم، على الرغم من قيامه بالبحث عنه طويلاً.

جحور فوق الماء

والمسلمون في زانبوانغا هذه قليلو العدد، ويقال انهم في تضاؤل مستمر، ويغلب عليهم الفقر، ولذلك يستغرب المشاهد لهذا المركز ما هو عليه من الأناقة والفخامة.. في جانب منه مسجد رشيق البنيان جيل التنظيم، وفي الجانب المقابل قاعة رحبة صفت فيها مقاعد للدراسة، وألحق بها بعض الغرف كهذه التي ضمتنا، وبين القاعة والمسجد حديقة رائعة.

وعلمنا بعد السؤال أن هذه الأبنية من هبات الجيش الفيليبيني، وقد اختيرت لها هذه البقعة بالذات ليكون المركز كله في رعاية الثكنة العسكرية المجاورة.. ثم علمنا في مناسبة أخرى أن للجيش أعمالا كثيرة من هذا النوع، حتى بلغ ما بنته قيادة هذا المعسكر وحدها زيادة على السبعين مسجدا في أنحاء عدة من البلاد.

وكان دليلنا ضابطا مسلما من الجيش مضى بنا يرينا معالم المدينة، وأرانا خلال ذلك المسجد الجديد الكبير الذي بني بأموال بعض الدول العربية، وعليه صفيحة من الرخام تسجل ذلك بالإنجليزية. وألح زميلي على الدليل أن يدلنا على ما يسمى (كامب إسلام) فلم يسعه إلا الإجابة، وفي اعتقادي أن المتجول في زانبوانغا لا يعرف شيئا عن مأساة المسلمين ما لم يزر هذا الكامب.

إنه منطقة شاسعة تكون وحدها ما يشبه البلد، ولكنه بلد غريب رهيب.. سوار من الخشب مغروزة في جوف المياه الممتدة من المحيط الهادي، إلى مسافة تبلغ عدة كيلومترات وفوق هذه السواري صفّت ألواح الخشب، وعليها رفعت البيوت الخشبية، في امتدادات طويلة تصل بينها جسور من الخشب، هي الممرات التي يعبرها الآلاف من المسلمين، الذين لجأوا إلى هذا البلد فرارا من الموت بنيران العصابات الصليبية في سولو وهولو وغيرها.

ورحنا نتنقل خلال هذه الجحور المائية نستطلع أحوال الناس، ونقرأ في وجوههم الهزيلة الكسيرة ما تعجز عن ترجمته الكلمات.

لا ينسون هويتهم

وتمتمت في سري، وأنا أجيل الطرف في أرجاء هذه الأكواخ: ليت شعري.. لو أن شرارة من النار علقت بأحد الألواح فماذا يكون مصير هذه الألوف..؟ أغلب الظن أنهم لن يلبثوا إلا ساعة او بعض الساعة حتى يستحيلوا رمادا وقتارا، وحتى يتحقق لعصابات (الفيران) كل ما يشتهون دون أن يكلفهم ذلك شيئاً.

وكان لأزيائنا الإسلامية، من الجلابيب البيضاء، والغتر المماثلة، أثر لا يوصف في تلك النفوس المحطمة.

كثيرون أقبلوا يعانقوننا ويشمون روائحنا كأنما يتنشقون عبير أحبابهم.. وكثيرون أعجزهم الضعف فاكتفوا بالنظر والتحية.

وأتيح لنا من هؤلاء من يؤنسنا بعربية واضحة، فأخذوا يقصون علينا أخبار الفواجع التي ساقتهم إلى هذه المضاجع.. وكان مما علمناه هناك أن سلطات المدينة هي التي رفعت لهم هذه المآوي.. ولما سألنا عن السبب الذي دفعهاإلى إيثار هذه البقعة الوبيئة دون غيرها من الأرض الواسعة، جاء الجواب الجامع المانع بأنهم حُشِروا هنا حمايةً لهم من عصابات النصارى التي تريد أن تتخطفهم!.

وسألنا عن أحوالهم المعيشية فعلمنا أن أكثر ما يعولون على صيد البحر، والأقلون منهم يعملون في نطاق الخدمات الزراعية.. ولكن صياديهم كثيرا ما يفاجأون بالقراصنة يسلبونهم ما حصلوا عليه، فيرجعون إلى أهلهم خلوا من كل خير!.

والعجيب في أمر هؤلاء التعساء أنهم لا ينسون هُويتهم الإسلامية، فعلى بعض هذه الجسور أقاموا مسجداً من الخشب يؤدون فيه الصلوات، و يتعلم فيه صغارهم ما يربطهم بدينهم من القرآن والحديث والعربية.

بين المركز والكامب

وغادرنا (الكامب) إلى المسجد القريب لصلاة المغرب، وقد ضاق بالمصلين رجالا ونساء، ولبث كثيرون خارجه.

وكان لزاماً على أحدنا أن يستجيب لرغبة هذا الجمهور في سماع أي كلمة منا، فقدمني زميلي، وتغلبت على تعبي فحدثتهم بما ظننت أنه نافع لهم، وتولى ترجمة حديثي الضابط الدليل، وتجنبت احراجه فلم أتجاوز حدود الموعظة.. وما إن ختمت كلمتي حتى تدفق الناس عليّ من كل جانب، وأكثر من مرة كدت أهوي على وجهي أو ظهري تحت ضغط الزحام الذي أحاط بي يمطرني بالقبلات والعناق، وسلم الله فجاوزنا ذلك الضغط لنستأنف مسيرتنا باتجاه المسجد الذي بني كما أسلفت بمال العرب.. فانتهينا إليه وقد ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء.. وبعد الصلاة دُفِع بي إلى الكلام قبل أن أسترد أنفاسي من التعب الآنف.. ثم تلاني زميلي فتحدث بما فتح الله عليه، ومن ثم كان علينا أن نتلقى هجمة الجمهور الذي يأبى أن يدعنا نمر دون أن يأخذ حظه من مصافحتنا ومعانقتنا!

ولذنا بالسيارة التي أنقذتنا من الحصار.. إلا أنها لم تستطع انقاذي من آثار التصورات الفاجعة التي حملتها من مآسي (الكامب).. وجعلت أتساءل: هل في وسع المركز الضاحك الذي واجهناه ضحى اليوم، أن يمحو من صدورنا مشاهد البؤس التي حملناها مساء اليوم من هذا المعرض الباكي؟..

وقلت لنفسي: لو أتيح لحكام المسلمين، أو لأصحاب الملايين منهم، أن يشهدوا هؤلاء المشردين، الهاربين من الحِمام.. أكان في وسعهم أن يمروا بهم دون أن تلتهب أعصابهم حمية، أو تنصهر قلوبهم رحمة!..

وما أدري كيف قفزت إلى ذهني صورةالمتحَف الذي زرناه في ضاحية ماراوى، وتبين لنا أنه

أنشىء بأموال الآغا خان الأمير صدر الدين، دون أن يكون له فيه من حظ سوى تمثاله الذي نصب له في الدور الأعلى من البناء الفخم.

وتساءلت : ألم يلمح سيادته مأساة المسلمين في زانبوانغا.. وفي غيرها من مواطن المحن التي تنتاشهم هنا وهناك!.. أليس اسعاف هؤلاء أفضل في معايير الإنسانية ــعلى الأقلــ من إنفاق الملايين في مثل هذه السبيل!..

لو وقف نفط العرب

إن الحصار الذي يفرضه ورثاء الصليبية التاريخية على وجود المسلمين في جزر الفيلبين ما كان له أن يستمر طويلا، أو يسجل انتصارا، لو أمسكت البلاد العربية عونها عن قادة هذا الحصار نفطا أو مالا أو صداقة..

في أكثر من بلد إسلامي هناك سمعنا من يقول لنا: العرب عصب الحياة بالنسبة إلينا، وعلى عونهم بعد الله نعتمد في الذود عن وجودنا وديننا.. ولكنهم لن يستطيعوا معرفة واقعنا إذا اكتفوا باستطلاع أحوالنا عن طريق الهيليوكبتر، أو الإصغاء في قضايانا إلى أكاذيب الأعداء.. إننا نتمنى من هؤلاء الإخوة الأعزاء أن يتحسسوا من حاجاتنا على الطبيعة..

وفي أكثر من بلد إسلامي هناك سمعنا من يقول: كل محننا يمكن أن تنتهي لو وقف نفط المسلمين عن آليات قاتلينا ولو سنة واحدة..

ومعلوم أنه حتى المفاوضات، التي انتهت بحكومة الفيلبين إلى الاعتراف بوجود الثورة الإسلامية، ثم إلى تقرير الهدنة الكاذبة مع الثوار، لم تكن لتتم لولا حاجة الفيلبين إلى أمداد العرب والمسلمين، ولولا إقدامهم جديا على حبسها عنها في أدق الظروف وأحرج المواقف.

ولقد رأينا صحف الدولة ــوالصحف كلها للدولة في ظل الحكم العرفيــ تعلن بالمنشيت البارز وبين أهم الأخبار، البشرى المنتظرة بتدفق الأموال العربية على الفيلبين، ومن هذه اللافتات: (بدأت أموال العرب تتدفق على الفيلبين) وهذا وحده كاف لتوكيد قدرة المال العربي الإسلامي على إقناع السلطات الفيليبينية برد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها، ورفع أيدي القتلة عن رقاب المسلمين وأموالهم.

ولكن هذا الأمل سيظل في نطاق الأحلام، حتى تتحرر الإرادة من أهواء السياسة الدولية، التي لا تستطيع أبدا الموافقة على إنصاف المسلمين، فضلا عن الإقرار بحقهم في الحياة والعدالة والحرية.

ولكن علينا قبل أن نطالب أصحاب الأموال والطاقات العربية والإسلامية بتصريفها وفق مصلحة مسلمي الفيلبين، علينا أن نطالب المسؤولين عن قيادة الثورة بإخضاع تصرفاتهم لميزان هذه المصلحة وحدها..

لقد استطاع خصمهم استغلال اختلافاتهم إلى أقصى الحدود، وها هو ذا ماركوس يقول على ملأ من الملايين، جوابا على أسئلة المستفهمين: «نحن على أتم الإستعداد للبحث في قضية المسلمين.. ولكن مع من نبحث؟.. ومن الذي يستطيع الزعم بأنه يمثل المسلمين؟»·

إن هذا لَتَحَدٍّ كبير لقادة الثورة.. ولن يملكوا دفعه إلا حين يعون و يعملون جادين بقول رب العالمين: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)·



● المؤلف في أحد الاحتفالات بالفيلبين

صُور وذكريات من تركية وقبرص

إلى استانبول

في تمام الساعة ٤٫٣٠ من عصر الخميس ١٣٩٩/٩/٩ هـ حملتنا الطائرة من جدة إلى استانبول — زميلي الشيخ محمد شريف الزيبق وأنا — بعد أن تأخرت عن موعدها قرابة الساعات الثلاث.

وبعد ما يزيد على الساعتين ودون توقف أو هبوط حططنا في مطير استانبول.

أول ما واجهناه في أوضاع المطير مظاهر الفقر، إذ كان، وهو المحط الدولي، متخلفا في الشكل والعمران عن الكثير من أمثاله، ودون أمثاله مما شاهدناه في مختلف الأقاليم.

والإحساس الذي اعتورنا هناك هو شعور الغربة الثقيل، لأن العربي هناك كالمتنبي في (شِعب بَوّان) لا يسمع حرفا من لغة القرآن، اللهم إلا ما كان متداخلا في التركية، أو محوَّرا عن معناه المألوف، كغيره من الألفاظ العربية في لغات الأعاجم..

على أن من فضل الله علينا أن جمعنا في الطائرة بفتى تركي يتلقى دراسته في الجامعة الإسلامية بالمدينة، واسمه إسماعيل....، كان بوسعه أن يخفف عنا الكثير من شعور الاغتراب، فهو الذي ملأ عنا تذاكر الهوية التي لا مندوحة عن تقديمها لموظفي الجوازات، وهو الذي جاءنا بسيارة الأجرة التي حملتنا إلى أول فندق حللناه، حيث وُجِّهنا إلى غرفة حشرت فيها ثلاث أسرة وهي لا تصلح لأكثر من سرير واحد.

وقد علمنا أن الفندق واقع في القسم الأوروبي من البلد..

كنا نتوقع أن نلتقي في المطار بالأخ الفاضل الدكتور مصطفى بلكَه الاستاذ المساعد في جامعة استانبول.. ولكن تأخر موعد الطائرة حال دون ذلك، إذ علمنا أنه انتظرنا مع بعض الإخوة ثم

اضطروا إلى العودة. وقد سبق أن عرفت الدكتور بلگه في المدينة المنورة، وكان قد قدمها مع المرحوم والده قبل عدة سنوات، لمراجعة بعض المخطوطات في مكتبة عارف حكمة، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من المسجد النبوي، وفي اليوم الذي سبق طيراننا إلى استانبول اتصل به هاتفيا الدكتور كايد ــ الأردني ــ ليخبره بقدومنا.. وكنا نأمل ان يسهل لنا أمر النزول في الفندق المناسب، فلما لم نجده اضطررنا إلى تسليم أزمتنا إلى السائق، الذي جاء بنا إلى ذلك الفندق غير المريح.. وقد زاد سوءا بنوعية نزلائه الذين هم ما بين أجنبي وعربي متفرنج.. وفي اليوم التالي ومن مسجد الفاتح اتصلنا بمنزل الدكتور بلگه وسعدنا بوجوده هناك، واتفقنا على التلاقي في مسجد اسكندر باشا.

من تراثنا الإسلامي

انتهزنا فرصة وجودنا في جامع محمد الفاتح رحمه الله، فزرنا قسم المساكن المخصصة لطلاب العلم من ملحقاته الكبيرة، وهناك التقينا ببعضهم فإذا هم على غاية من الفضل والحب لدين الله، وإذا غرفهم الجميلة مَثَل في البساطة والنظافة التي هي من مميزات هذا الشعب العريق في الحضارة.

ومن هناك عرجنا على المكتبة الوطنية (مِلَّة) فسرّنا ما شهدناه من التراث الإسلامي في الأبنية والمخطوطات النادرة. وقد عرض علينا القيم الفاضل مخطوطا مجلداً أنيقا يحوي تراجم العديد من شعراء العثمانيين، وبينهم عدد من السلاطين والخلفاء ـ ومع كل ترجمة رسم صاحبها بالألوان، ونماذج من اشعاره بالعربية والتركية والفارسية.. وفي رأيي أن في هذا المجلد الأنيق شيئا قيما من التراث الذي ينبغي إخراجه للقراء المسلمين.. ولكم تشوقت أن أكون أنا الذي يتولى إخراجه مهما كلفني من مال مقابل ترجمته وطبعه على الوجه اللائق..

توهج روحي

دعينا للافطار ــ مع الدكتور بلگه ــ في منزل الصحفي المؤرخ الأستاذ (قدير مصري أوغلو) وبعد طواف طويل في منطقة تحوي أروع مناظر الطبيعة في الدنيا، حيث البوسفور، والحصن الذي أقامه السلطان محمد الفاتح في كتفه الغربي أثناء حصاره لحصون القسطنطينية. اهتدينا إلى المنزل المطل على كل هاتيك الروائع.. وهناك لقينا عددا من أئمة المساجد الشباب ــ وجلُّهم حليق ــ إلا إمام مسجد السلطان سليمان، الذي ساقتني الأقدار فيما بعد إلى مسجده حيث صليت وراءه الظهر، وفي أعقاب الصلاة والأوراد التقليدية، المتشابهة في سائر مساجد تركية دون استثناء، نهض الإمام فألقى حديثا طويلا استغرق قرابة الساعة غاب عني أكثر معانيه، ولكنني من خلال بعض ألفاظه العربية، ومن خلال هيئته وإشاراته المركّزة، استطعت الإلمام بروح المضمون الذي كان توكيدا على ضرورة الالتزام بالإسلام كلاً غير مجزأً.. وكنت ألاحظ أثره في وجوه القوم الذين لبثوا

يستمعون إليه باهتمام عميق، وقد لمست في هذا الفتى المرهف الشعور الكثيرَ من البراءة وحرارة الإيمان، من ذلك أنه ــ عندما قدم إلينا ماء زمزم للإفطار به في منزل الأستاذ قدير ــ أبى أن يشربه إلا واقفا انفعالاً بذكرى المشاعر المقدسة..

وهذا اللون من التوهج الروحي محسوس في الشباب التركي، الذي استعصى على دواعي الفساد، المعروض في كل مكان من تركية بكل وسائل الإعلام الرسمية والخاصة.. إلا ما رحم الله..

حوار ممتع

وعقيب صلاة المغرب وتناول الطعام التركي اللاذّ: بدأ الحديث في أحوال المسلمين في تركية وسائر البلاد الإسلامية، وقد اشترك في ذلك معظم الحضور الذين لا يقلون عن العشرة، ولم يكونوا جميعا ممن يحسن العربية، فتولى الدكتور بلكَه أمر الترجمة في ما بيننا. وجرى أكثر الحوار بيني وبين الأستاذ قدير.. تناولنا به عدة جوانب من المشكلات المعاصرة. وقد سُجل الحوار لينشر في جريدته الإسلامية التي تحمل اسم (السبيل) ولعله يريد بهذه التسمية التوكيد على أن الإسلام هو صراط الله المؤدي إلى الخلاص دون غيره. ولا غرابة في ذلك فالصحف الإسلامية الدائرة في هذا الفلك عديدة، ولها قراؤها الكثيرون المنتشرون في كل بلد، وبخاصة في نطاق الأناضول الثابت بقوة في وجه التمييع والمؤامرات الماسونية. وقد رأينا هذه الصحف الإسلامية تباع على أبواب المساجد.

على أن الحوار ــ على متعته ــ لم يستمر إلى النهاية، لأن الأخ الأستاذ فتحي يكن، وهو احد المشاركين فيه، لم يستطع صبرا على الوجع الذي كان يعانيه في ظهره، فاضطررنا إلى بتره على أن نعود لاستكماله في فرصة اخرى، وهي الفرصة التي لم نتمكن من التفرغ لها بعد ذلك.

مسجد الفاتح

لمسجد الفاتح في استانبول نوع من الامتياز ينفرد به عن سائر مساجد البلد ذي الألف ــ أو الآلاف ــ من المساجد..

إن مساجد استانبول هي أول ما يستقبل الزائر منها، فأنَّى تلفت يأخذ بصرك منظرها، شامخةً بقبابها، وصاعدة بمآذنها المميزة إلى عنان السماء..

والشيء الذي لا مندوحة من ملاحظته في كبريات هذه المساجد تقاربها في الشكل، فالقباب متعددة في كل واحد، وكلها كذلك منظم متناسق، فالقبة الكبري هي الوسطى، ثم تتفرع الأخريات متدرجة في الارتفاع والأحجام.. والمرجح أن يكون جامع الفاتح هو اقدمها جميعا.. ثم

تتابعت المساجد على نظام لم يكد يخالفه في شيء.. وهي بأسرها تعطيك صورة عن مفهوم المسجد في الإسلام.. فليس هو مقصوراً على الحرم الخاص بالصلوات، بل لكل من هذه المساجد الكبرى ملحقاته من الحدائق المحيطة به، ثم الأقسام الأخرى المعدة لخدمة أهل العلم مدرسين وطلابا.. فهناك جانب السكن، و يتألف من الغرف الكبيرة المقببة المنشأة على أجمل صورة، وقد روعي فيها جو البلاد البارد فزودت بما يتطلبه. وهناك المطابخ والمطاعم التي لابد منها لهؤلاء الوافدين طلبا للعلم من متباعد الأرجاء، للتدريب على المعاني الإسلامية، وللتزود بالمعرفة المؤهلة لنشر هذه المعاني في من وراءهم من أقوامهم..

وطبيعي ان يكون لكل واحد من هذه المساجد مكتبته الخاصة المزودة بآلاف المؤلفات، في كل ما يعوز طالب العلم وأستاذه من المراجع على اختلاف ضروبها وأحجامها..

و يؤسفنا أن ظروفنا لم تتح لنا الفرص الكافية للاتصال بالباقي من هذه المكتبات، فاكتفينا بز يارة قصيرة للمكتبة الوطنية —التي سبقت الإشارة إليها— ومضيت ذات يوم إلى مكتبة جامع سليمان ذات الشهرة العالمية، ولم أعلم إلا بعد الوصول إلى أبوابها المغلقة أنني في يوم الأحد، الذي لا يزال مع يوم السبت هو موعد العطلة الأسبوعية في تركية وقبرس والكثير من بلاد المسلمين و ياللأسف!..

صراع بين الإسلام وأعدائه

أشرت إلى بعض الطلبة الذين لقيناهم أثناء ز يارتنا لقسم السكن الخاص بالطلاب بمسجد الفاتح.. وقد علمنا منهم أنهم وزملاءهم ليسوا جميعا من طلاب العلم الشرعي بل أكثرهم من طلاب العلوم الأخرى، كالطب والهندسة وما إليها. وقد شكَـوا ما يلقونـه من مضايقات رجال الشرطة وأمثالهم، إذ لا يكادون ينفكون عن معاودتهم بالاستجواب والتفتيش بين يوم و يوم.. فلا يسلم كتاب من تقليبهم ولا ينجو فراش من تنقيبهم.. و يقول هؤلاء الشباب انهم إنما يفعلون ذلك بحافز من التضييق على العناصر الإسلامية دون غيرهم..

وقد حدث أن فوجئنا بعد أسبوع، ونحن نجتاز حديقة المسجد إلى داخله، بعدد من هؤلاء الطلاب وقد مدوا فُرشهم، وحشدوا أمتعتهم، على أعشاب الحديقة وتحت أشجارها، ورفعوا على سياجها لافتات بارزة تحمل بالحروف اللاتينية عبارات الاستنكار لأعمال الشرطة، الذين أجلوهم عن مساكنهم هناك بالقوة.. وفي تلك العبارات أكثر من إنذار لظالميهم..

وتجمع بعض هؤلاء حولنا يقصون علينا مأساتهم و يعلنون في تصميم حاسم أنهم لن يسمحوا لهذا العدوان بالاستمرار..

والحق أن في هذه التعابير، وما وراءها من دوافع إسلامية، صورة عن المخاض الذي تعيشه البلاد التركية في هذه الفترة من الصراع المحتدم بين الإسلامية والعلمانية.. بل بين الإسلامية والماسونية، التي تحكم كل شيء في هذه الديار الحبيبة.

ذكريات وذكريات

أسلفت الإشارة إلى أهمية مسجد الفاتح بالنسبة إلى غيره من مساجد استانبول. والآن أحب أن أتم ما بدأت من ذلك.

إن هذا المسجد رمز الفتح الإسلامي لمملكة بيزنطة الشرقية جميعا، فالمسلم المثقف لا يكاد يسمع اسمه حتى تتبادر إلى ذهنه ذكريات الجيش العظيم الذي ادَّخر الله له شرف الفتح العظيم، الذي بشر به رسوله الكريم بقوله صلى الله عليه وسلم (لَتفتحنَّ القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)(١). فكيف بالمشاهد له عن كثب، المقبل عليه للصلاة!...

وقد شاء الله أن يحتفظ هذا المسجد العظيم بالمتناقض من الذكريات، فكما يحمل باسمه ومعالمه الشهادة الصادقة بإخلاص الفاتحين الأولين وقائدهم المظفر، الذين أضافوا هذه الديار الشاسعة إلى عالم الإسلام. فأخرجوها من ظلمات الوثنية المتنصرة إلى جنة التوحيد المتألق بأنوار الوحي. كذلك يحمل الشاهد المبكي على المنعطف الرهيب الذي طرأ على مسيرة التاريخ الإسلامي في هذه الأرض.

إنهما الشاهدان المتناقضان في تاريخ هذه البلاد.. فعلى حين يسجل أولهما صورة المد الإسلامي السعيد، ينبري الآخر ليسجل مطالع الانحراف الذي انتهى أخيرا بالقضاء على الخلافة، رمز الوحدة الكبرى للعالم الإسلامي. ثم بالتمزق الذي حطم هذه الوحدة، ودمر السدود التي كانت تحميها فتدفقت المحن متلاحقة على المسلمين، وكان نصيب تركية منها ما نراه اليوم من أزمات لا نهاية لها، في الفكر والاقتصاد والصراع الفتاك ما بين اليمين واليسار.. وبين الشرق والغرب...

أجل في هذا المسجد يتذكر المؤمن أيام المد العظيم الذي جرف أكبر دول العالم القديم، ليرفع على أبراجها وجبالها ووهادها راية الإسلام رحمة الله تعالى للعالمين..

وفي هذا المسجد يتذكر المؤمن كذلك هجوم الكتائب المضللة التي قادها ضباط الاتحاد والترقي من عملاء الماسونية، لخلع الخليفة المظلوم عبدالحميد، واعتداءَهم على حرمة هذا المسجد بإطلاق الرصاص عليه.. وها هي ذي آثارها في جدرانه شاهدة عليهم، تذكر اللاحقين بجرائم السابقين...

---

(١) رواه أحمد والحاكم وفي الجامع الصغير رمز إليه بالصحة.

وفي هذا المسجد وجدنا الظروف المواتية للكلام في الإسلام، ففي حجرة المؤذنين التقينا ببعض أهل العلم، منهم الدكتور علي زكي رئيس المعهد العالي للتخصص في العلوم الدينية والعربية، وهو من خريجي الأزهر، والأستاذ صدر الدين.. المعيد في العربية بالجامعة، والسيد حسن... الطالب في الدراسات العليا بجامعة الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة. وكان ثمة بعض المدرسين والطلاب في معهد التخصص. ودار الحديث بيننا في شؤون الإسلام والمسلمين، وألفينا لديهم اهتماما كبيرا بهذه الجوانب.. والحق أن المسلم ليشعر من خلال مخالطته لأمثال هؤلاء الفضلاء أن الإسلام في تركية بخير، وهو يزداد كل يوم قوة وانتشارا ولله الحمد.

وقد انتفعنا ببعض هؤلاء الإخوة في الأيام التالية، إذ أعانونا بترجمة أفكارنا إلى الجمهور الذي جذبته هيئتنا فاحتشدوا حولنا.

ولقد رأيت أن أباشر أحاديثي إلى الناس بعد العصر من كل يوم، وان أدير أولها حول الروابط الأخوية بين الشعب التركي وإخوانه من شعوب العالم الإسلامي، ثم حول تاريخ الفتح الإسلامي لهذه الأرض، وحظ الفاتحين لها من الإيمان والتقوى وإخلاص الجهاد لله.. وجعلت أذكرهم بالرحم الذي يربطهم بأولئك الأبطال، الذين أكرمهم الله بأن ادّخر لهم شرف هذا الفتح العظيم.. وركزت على أهمية ارتباطهم بهذه المعاني كي يكونوا امتدادا لذلك الجيل المجيد من سلفهم الصالح..

وخلال الأسبوع الأول الذي قضيناه في استانبول وقفت حِصص ما بعد العصر في ذلك المسجد على ألوان من المقاصد الإسلامية.. وركزت بوجه خاص على تاريخ الوجود التركي في هذه الديار، وكيف انتقل زمامها من قبضة الكفر إلى سلطان الإسلام، وضربت المثل من استانبول نفسها، التي كانت مركز القيصرية البيزنطية، ومثابة النصرانية الشرقية، تنهض في كل ساحة منها أنصاب الشرك، وترتفع في مبانيها أبراج النواقيس، فانتزعها الله من أيدي الكافرين ليضعها في أيدي المجاهدين من أسلافهم الصالحين، فأورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم.. وما هي إلا برهة يسيرة حتى استحالت عاصمة للإسلام، ترتفع في جنباتها المآذن السامقة، والقباب الشامخة، ويدوّي في فضائها نشيده الخالد (الله أكبر. الله أكبر) خمس مرات في اليوم والليلة. فيتردد صداه عاليا مجلجلا في سائر أرجاء هذه الديار، معلنا أن الأمس واليوم والغد كلها للإسلام بفضل الله وقوته، مهما طغت أحقاد الجاحدين، وتكاثرت محاولاتهم لطمس معالمه.. (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره..) ولو كره الكافرون والمشركون والماسونيون.

الخلافة وما بعدها

وجرنا الكلام عن هذا الجانب إلى الحروب التاريخية التي شنتها الصليبية العالمية على هذه الديار بغية ردها إلى سلطانها مرة ثانية.. تلك الحروب التي سجلت أكبر انتصاراتها أخيرا في إلغاء الخلافة بأيدي أعداء الإسلام من الصليبيين واليهود والمضللين من أبناء المسلمين...

وكان عليّ أن أذكرهم بأن المحاولات لا تنفك مستمرة لإخراج هذه الأرض من سلطان الإسلام، كما حدث في الأندلس، التي ساد فيها حكم الإسلام ثمانية قرون، ودخل معظم أهلها في دين الله، ومنها انتشر إلى أوروبا نور الحضارة الذي نقلها من ظلمات الجهل والتخلف إلى ضياء المعرفة والتقدم، ومع ذلك خرج منها المسلمون مطرَّدين مشرَّدين، لأنهم غفلوا عن تحركات العدو، وغرقوا في اللهو، فجاءهم الدمار من حيث لم يحتسبوا، بعد أن نسوا تحذير ربهم إياهم في قوله تعالي (.. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ٤/١٠٢) وبعد أن انصرفوا عن الجهاد والاستعداد له غافلين عن إنذار الله الذي يقول لهم (.. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ٢/٢١٧).

ولقد أكدتُ هذه المعاني في مجالس الإخوة الذين التقينا بهم من أهل العلم، ليكونوا على ذكر من هذه الحقيقة، ولينذروا قومهم بها فينتفعوا بالعبرة من اخطاء المسلمين السابقين، ولا يكونوا هم العبرة للاحقين من الأجيال..

وهكذا مضت دروس الأسبوع الأول، توجيها عاما في قضايا المسلمين، بثت في الصدور شعور المسلم بمسؤوليته نحو نفسه وأهله وأمته، ليكون أبدا حارسا يقظا على الثغرة التي تليه من المعسكر الإسلامي..

واذا ما انتهت الحصة تواردت الأسئلة حول مختلف الجوانب والمشكلات.. وكثيراً ما كانت تنصب على نقاط شديدة الحساسية لاتصالها بأمور التوحيد والعقيدة.. وبالحكمة والموعظة الحسنة كنت أجيب عليها بالحق الناصع الذي تطمئن إليه العقول والقلوب والفطر السليمة..

محدثات في المساجد

ومن التقاليد التي تواجهك في كل مكان من مساجد تركية وقبرس سماعك المؤذن، بعد أداء السنة الأولى، يأخذ في ترتيل سورة الإخلاص مرة بعد مرة بعد أخرى، ثم يختم ذلك بالآية (سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) ويعقبها بقوله: (الفاتحة) ممدودة لما يريد بها من التنبيه إلى تلاوتها. ثم يرفع أذان الإقامة. فإذا ما تمت الصلاة، وقلما يتوافر لها الإطمئنان الواجب، يأخذ المؤذن في مجموعة من التلاوات والأذكار، ثم ينتهي إلى قوله:

(سبحان الله العلى الأعلى الوهاب) وهي إشارة البدء بالدعاء فيرفع الناس أكفهم لذلك، حتى إذا ما فرغوا من الدعاء ارتفع صوت المؤذن مذكرا: الفاتحة.

وفي مسجد الفاتح بوجه خاص تسمع هذا كله من مجموعة المؤذنين، وقدانطلقوا في نبرة واحدة، تملأ الفضاء وتهتز لها الأعصاب كأنها شيء من هزيم الرعد.. ومما يضاعف وقعها وشدتها ارتفاع ميزان المكبر!. وقد فاتحنا بذلك الإخوة المؤذنين ووددنا لو يخففون من هذا الزعيق بتنظيم حالة المكبر، فوعدونا خيرا.. وعرضنا لذلك ولغيره من الأمور أثناء زيارتنا، مع الدكتور بلكه لمفتي استانبول الذي استقبل ملاحظاتنا بمنتهى الأدب، الذي يتميز به أهل الفضل من علماء الترك..

مع مفتي استانبول

وكانت زيارة لطيفة تداولنا خلالها مختلف الشؤون الإسلامية، ووجدنا لدى سماحته تفهما لها وتجاوبا سارا معها، ومما ضاعف انشراحنا بهذه الزيارة خلو المبنى الخاص بمصالح الإفتاء من الموظفات، اللاتي يشاركن الرجال في مختلف الدوائر الرسمية وغير الرسمية. وقد صادف هذا اطلاعنا على ذلك الخبر الذي نشرته بعض الصحف الإسلامية عن تحرك الأزهر أخيرا لاستبعاد مئة وخمسين موظفة من ملاكه، وتحويلهن إلى غير الأزهر من مؤسسات الدولة، بعد أن طال سكوته عن هذه المهزلة!.

على أن ظاهرتين ما كنت أتوقع أن أواجهها هناك: أولها تلاقي سماحته مع كثرة الأزهريين على إزالة اللحية. وهم يعلمون جميعا توكيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على إطلاقها، وأما الثانية ففي تعليق صورة الطاغية الذي شتت شمل المسلمين فوق رأسه، وهو يعلم حق العلم هول الجريمة التي اقترفها في حق الإسلام بعامة، حين جرؤ على إلغاء الخلافة، وفي حق الشعب التركي بخاصة، يوم فرض العلمنة اليهودية على دينه ولغته، فكاد، لولا رحمة الله وأصالة الأتراك، أن يفقدهم هويتهم نهائيا.. على أن المفاجأة كانت اكبر عندما شاهدنا على حدبة التلفاز ومن مسجد الفاتح، ليلة السابع والعشرين من رمضان بعض موظفيه، وقد اعتمروا بعمائمهم الناصعة، وأقبلوا على ترديد الأناشيد احتفالا بليلة القدر، ولم ينسوا أن يختموا تلك الحفلة التقليدية بالدعاء الصارخ للطاغية الدونمي نفسه!..

وطبيعي أنهم لم يفعلوا ذلك عن طيب خاطر، بل نزولا على التوجيه المُلزم وطمعا في تضخيم الجائزة المنشودة.. وكل ما نرجوه ألاّ يكون لسماحة المفتي أي يد في ذلك التدبير المستوجب لغضب الله ورسوله...

ترمال حديقة المصايف

روائع ومنغصات

وقدرنا أن في المصايف أصناف الناس، وسيكون حظنا طيبا إذا استطعنا التحدث إليهم أو إلى بعضهم. وعلى هذا امتطينا السيارة الى ضفاف مرمرة. ومن هناك إلى الباخرة التي اقلتنا إلى (يَلَوة).

ومن الميسور تحديد هوية الأشياء كما هي خارج نطاق الأحاسيس، ولكن الصعوبة تتجلى أكثر فأكثر كلما حاولت تصويرها من خلال الانفعال بها.. ولهذا قلت في قصيدة لى أصف بعض مشاهد الطبيعة من ثنايا الرؤية النفسية:

وبعضُ الجمال يثير الشجونَ ... وفي بعضه نشوةٌ تُسكرُ
وابلغه ما أمات اللسان ... وراح الشعور به يزخر

وليس أحق بهذا القول من مشاهد مرمرة وهو يغلغل خلال الجزر وفي أحضان الجبال والسهول المستلقية على جانبيه. بيد أن هذه المشاهد ليست مقصورة على هذا الجانب من ذلك البحر، فكل جوانبه المحدقة باستانبول، والمتسللة خلالها، تتنافس في عرضها لضروب المفاتن.

ولقد غادرت أراضي الهند وماليزية وسنغافورة ثم جزر الفيلبين... وفي تصوري أني أفارق الجمال كله ولكني تلقاء هذه المفاتن أكاد أتخيل أني أعود إلى تلك الروائع نفسها.. ولا مجال للاسهاب في هذا الباب، فالكلام مهما رق وشف أعجز من أن يحيط بأسرار النفس.

وبعد ساعة ونيف وافينا ثغر يلوة، وسرعان ما راودني الغثيان حتى أكاد أذهل عن كل ما استشعرته من راحة القلب أثناء الرحلة البحرية، حيث وقع بصري على ذلك الصنم البغيض الذي نصبه المزوِّرون ليكون أول ما يستقبل الوافدين من معالم ذلك الثغر.. وتذكرت إذ ذاك قول المتنبي:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه ... غذاء تضوى به الأجسامُ

مَن وراء هذا التدجيل؟

ولعل من المفارقات الغريبة بل الموغلة في الغرابة أن النُّزُل الذي حللت فيه من مصيف ترمال كان يستقبلني صباح مساء بتزوير أكبر من مجرد إقامة ذلك الصنم ونُسَخِه الأخرى، المنثورة في كل مكان من تركية، التي يراد منهاأن تمجد أكبر عدو لها على مدى التاريخ... ذلك أن لوحة مرفوعة في صدر البهو من ذلك النزل تحمل على إحدى جانبيها رسم محمد الفاتح ويقابله على الجانب الآخر رسم ذلك البهلوان اليهودي!.. وأي مفارقة في العقول أكبر من الجمع على مستوى واحد بين باني تركية وهادمها... بين بطل إسلامي يدعو له المصلون بالرحمة مع كل صلاة، وعميل دونمي يلعنه المؤمنون صباح مساء!.. وكثيرا ما وجدتني أتساءل: من هذا الشيطان الذي يتولى تعليق هذه الصورة المذلة في كل مكان، حتى مكتب سماحة مفتي استانبول، لا يستثنى من ذلك إلا بيوت الله التي حفظها الله من هذا العار في كل الأرض التركية، على حين لم يحمِ بعض مساجد سورية من صورة ظله طاغية مصر، فتصدرتها بحماية السفهاء الذين فرضوا وجودهم ذات يوم على الشارع والمسجد جميعا...

وبعد جهد علمت أن وزارة الداخلية هي صاحبة الفضل في هذا التدبير.. فبأمرها ترفع هذه الرسوم، وبرجالها تصان من التمزق.. والويل لمن يمد إليها يدا، فإن عقابه لكبير في القانون.. ومع ذلك فقد تكاثرت العقوبات حتى سئمتها الوزارة نفسها أخيرا...

وشد ما أتعجب عندما أنظر على ورق النقد التركي، الذي ما انفك يحمل صورة مدمِّر تركية، فأراه متتابع الهبوط حتى ليكاد ينحدر عن ثمن الورقةالتي يطبع عليها، فأتساءل: أليس لهذه الصورة المشئومة من أثر في هذا الهوان؟...

المستقبل للإسلام

ومن كان مثلنا يطأ هذا البرلأ ول مرة فهوالضرير لا يحسن التحرك إلا بهداية الناس، فسألنا أول رجل واجهناه عن سيارات (ترمال) فما لبث أن ترك عمله وسار معنا حتى المحطة، ووقف بنا على أول سيارة تتهيأ للتحرك، وليس بغريب ما يجده الغريب في تركية من اللطف والحفاوة، فأنت في كل مكان واجد هذاالطراز من الناس ذوي الأدب الجم ولله الحمد.

ولعل لهذه السمة الراقية صلة بقلة حوادث الطرق التي ألفنا رؤيتها في بلادنا، حيث لا يكاد يخلو شارع من نثار الزجاج الدال على أن سيارتين تصادمتا.. والحق لا أذكر أني شاهدت أي حادث أو نثار في أي طريق جبته من تركية وقبرس خلال الخمسة الأسابيع التي قضيتها فيها، اللهم إلا مرة واحدة، حيث رأيت سيارة مرسيدس جديدة واقفة على الرصيف بجوار مسجد مراد، وقد طبق الجانب الأيسر من مقدمتها بسبب لم أعلمه ولم أسأل عنه..

واستقبلنا سائق الحافلة الصغيرة النظيفة ببشاشة، وأخذنا مكاننا بجانبه، وقد سرنا منظر الرجل، إذ كان ذا لحية جميلة، وابتسامة راضية، وفيه من ظواهر النشاط ما يؤكد أنه دون الخمسين من السنين.

و يظهر أنه أنس بنا كما أنسنا به، فجعل يباسطنا بكلمات لم نفهم معظمها، ولكن إشاراته وملامحه أبلغتنا كل ما ير يد. فعلمنا أنه حج إلى بيت الله الحرام، وزار المدينة المنورة، وأنه أخيرا عضو في مجلس الشورى المحلي لحِزب السلامة... وكأنه أراد مضاعفة سرورنا فجعل يؤكد لنا بكل وسائل البيان المتاحة له أن حزب السلامة منتصر لا محالة، ومعيد لتركية هو يتها الإسلامية السليبة بقوة الله وتوفيقه.

وغير عجيب أن تلمس مثل هذه الثقة بمستقبل الإسلام أنَّى حللت من هذه الأرض الطيبة. فهناك جيل من الشباب غير قليل العدد يؤمن بكل مشاعره أن ثمة وضعا غير طبيعي، وأنه لا مندوحة من تغييره لإنقاذ البلد.. وهو إحساس شائع في كل بلد هنا، على تفاوت قوته بين جانب وآخر.. في استانبول عاصمة الخلافة العظيمة طلائع من هذه القوة، قد امتلأت إيمانا بهذه الحقيقة، فهي تعيشها تفكيرا وأحلاما.. واستعدادا.

وقد حدث ذات يوم أن كنا في ز يارة زميل في فندق إسلامي، فإذا العديد من هؤلاء الفتيان المؤمنين، وقد خرج أحدهم وهو صحفي من السجن حديثا، حيث قضى ثمانية عشر شهرا بسبب نقده الصر يح للأوضاع الشاذة، و يعود اليوم ليستأنف جهاده بأقوى مما سبق. وأثناء الحديث أشار زميلي إلى واحد منهم وهو يقول: كان هذا أحد عدة آلاف من الشباب أخذتهم النشوة بانتصار الثورة الإسلامية في إيران، فخرجوا في شبه تظاهرة يهتفون: اليوم إيران و باكستان، وغداً تركية والأفغان... وفضَّت الشرطة تجمعهم.. وصدر على الأثر بلاغ حكومي يحذر من أي خطوة في طر يق الخميني، و ينذر بالعقاب الأشد كل من تحدثه نفسه بالخروج على النظام العلماني في تركية.. تماما كالذي حدث في دَولة عر بية كبيرة حين أعلن طاغوتها أن كل تفكير بمثل طر يق الخميني ممنوع، ومؤد إلى أكبر العقاب...

ودعينا ذات مساء لتناول طعام الإفطار في أحد المطاعم الكبرى في استانبول، حيث تقام حفلة تكريم لرئيس حزب السلامة الأستاذ نجم الدين أور بكان، بمناسبة عودته من رحلة لأداء العمرة.. وقد حالت ظروف الحفل دون اجتماعنا به، إذ كان المدعوون قرابة الألف و يتألفون من كل فئات المجتمع على اختلافها، فكانت تظاهرة سياسية تعلن رغبة الأمة كلها في تحقيق مبادىء السلامة القائمة على أساس الإسلام..

هذه الظواهر التي واجهناها في استانبول، وفي ترمالْ، إنما تصور ذروة الصراع بين المد الإسلامي الجديد في تركية الحديثة، والاتجاهات الملتو ية التي تتألف من أساطين الماسونية في كلا الحزبين ــ الشعب والعدالة ــ وعملاء الشيوعية الدولية الذين اتخذوا الإرهاب والقتل طر يقا لتحقيق ما لا يعلمون..

والإنسان ذو العقل السليم حين يواجه وقائع هذا الصراع الذي تؤججه الجهات الحاكمة ومَن خلفها، لابد أن يتساءل عن مدى قوة كل من الفريقين المتصارعين ليستطيع تحديد التوقعات المستقبلة. وقد استطلعنا رأي بعض المفكرين فكاد الجواب يكون واحدا، وهو أن التيار الإسلامي بتركية هو الأقوى، إذا كان مرجع القوة هو التفوق الفكري والعددي. أما من حيث الفكر فلا خلاف على أنه التعبير الحيّ عن مشاعر جماهير المسلمين على اختلاف مشاربهم ومسالكهم.. وما عداه من المذاهب الفكرية فكالعضو الدخيل على الجسم الحي، قد يستقر فيه إلى أمد، ولكنه مرفوض حتما، وهو معرض للفظ بين الفينة والأخرى.. بل ان الرأي العام في أوساط المسلمين مجمع على أن وراء الواجهة الحكومية أيدي اليهودية العالمية من حماة الصليبية، ومن غير الطبيعي أن يستمر صبر المسلمين على هذا الوضع الشاذ إلى الأبد..

على أن مشكلة المشكلات في حالة المسلمين هنا تتمثل في اختلافهم. وما أدري إن كنت قد أسلفت في ما تقدم اعلام القارىء بأن الإسلام في تركية يكاد يكون محبوسا في نطاق الطرقية، التي يسمونها بالصوفية.. فلا بد للمتدين من هذه الجماهير أن يكون له شيخه الذي يلتزم أمره، فلا يسائله: لم؟.. كما هو الشأن في كل طريقيي المسلمين. والمستثنون من هذا الحكم —إذا وجدوا— فقليل ما هم.. والمؤسف جدا أن معظم هؤلاء الشيوخ ينقصهم الوعي الذي يفرق بين العدو والصديق، وقد استطاع أساطين الحزبين العلمانيين الإحاطة بهذه الثغرة فتسللوا منها إلى ضمائرهم، فهم لا ينفكون يوزعون أشياعهم بين هذا الحزب وذاك في كل انتخاب.. حتى أكثرهم نشاطا وأعلاهم صوتا، في المناطق المعروفة بقوة حماستها الإسلامية، لا يصرح برأيه في مَن يجب على أتباعه أن يمنحوه تأييدهم، بل يكتفي بالتوجيه الغامض نحو الأكثر اهتماماً بأمر الإسلام.. وفي هذه الحال يميع الرأي، إذ يدع لكل منهم أن يقرر ما يهوى، وهو يحسب أنه هوى شيخه. ومفهوم أن هذه المواقف المرجوجة من شيوخ الطرق هي التي مكنت للماسونية اليهودية أن تهبط بعدد النواب، الملتفين حول حزب السلامة في آخر الانتخابات.. وقد خرجنا من هذه الملاحظات بيقين أن مستقبل الإسلام في تركية بعد مشيئة الله رهن بأحوال أولئك المشايخ، فإذا استمر تردد بعضهم بين الإسلام والكفر، وتصميم بعضهم الآخر على محاربة الفكر الإسلامي الصحيح كما رأينا في جماعة الشيخ ناظم، ومن يسمونهم بالسليمانيين، وأخيرا أتباع ذلك الضابط المتقاعد الذي لا هم له إلا تشوية سمعة العاملين للإسلام في كل مكان.. فالمرحلة طويلة، وسيظل طواغيت الماسونية من عملاء الدونمة هم الرابحين في هذا الصراع.

يقظة بدأت

بيد أن مما يبشر بالخير أن غير قليل من أشياع هؤلاء المضللين قد بدأ يفرك عينيه ليرى الواقع على

حقيقته . وقد تجلى أثر هذه اليقظة في انفضاض الكثير ين عن أحد التنظيمات الطرقية ، عندما صدرت لهم الأوامر بصرف التأييد إلى أعداء الإسلام وهم في قلب المعركة الانتخابية .

وشيء آخر هام هو أن الأسلوب الديمقراطي ، الذي تجرى الانتخابات على أساسه في تركية هو الضمان الوحيد لوصول الكثرة الإسلامية إلى سدة الحكم ، بشرط أن يستمر تنامي الوعي في أوساط الطرقيين ، الذين سيظلون هم أصحاب الوزن الراجح في تلك البلاد إلى زمن غير قصير ، إلا إذا شاء الله ، فيأتي فرجه من حيث لا يتوقع . .

ولكن . . لابد من السؤال : هل يستمر ذلك الأسلوب الديمقراطي على وضعه الصحيح في تركية ، أو أنه سيتأثر بالديمقراطيات العربية ، التي لها وسائلها العجيبة في جعل نتائج الانتخابات دائما وأبدا في حدود ٩٩٫٩٩ لصالح القابضين على أزمة السلطة ! . .

وآلام

والحديث عن ترمال الصق ما يكون بالشعر ، لأن ترمال — في الواقع — إنما هي بإزاء المدن التي شاهدناها حتى الآن كالقصيدة الرائعة في كتاب من النثر الجميل .

إنها مصيف جبلي تجتاز إليه — من يلوه — طر يقا محفوفا بالأشجار ، ومن ورائها على الجانبين الحقول الخضراء التي لا يرتوى البصر منها ولا يشبع . فإذا ما انتهيت إلى وسطها ألفيت نفسك محاطا بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . . فهي تجمع بين طبيعة الجبال واتساق المدن . .

وقادنا السائق المتحمس إلى أحد المنازل المعدة للأجرة ، فاتخذنا منه حجرة قضينا فيها ليلتنا الأولى . . وفي صباح اليوم التالي انتقلت أنا إلى واحدة أخرى أقرب إلى المسجد ، وواصل زميلي رحلته إلى بورصة فازمير فأنقرة . وكان بودي لو أكون معه فيتوافر لي من العلم بأحوال هذه المناطق ما أنا بحاجة إليه ، ولكن حال بيني وبين هذه الأمنية تصاعد آلام الرثية في ساقيَّ كلتيهما ، وبخاصة بعد أن وصفت لي مياه ترمال المعدنية وآثارها الإيجابية في مثل هذه الأوجاع .

وأخذت نفسي خلال يومين بالتبكير إلى مواضع الحمامات ، وجعلت أغمس جسدي بمياهها الحارة إلى الحد الذي أطيقه ، حتى إذا خرجت من الماء كنت أشبه بتمثال الشمع في ليونة اللحم والعظم . . فلا أغادر مستراح الحمام إلا بعد استرداد القدرة على مواجهة الهواء والسير . . على أني لاحظت أن الوجع قد أخذ في التزايد بدل التناقص . . فأمسكت عن الاستحمام . والحق أنني لا أستطيع القطع بسبب هذه النكسة ، أهو حرارة الماء أم المرتفعات والمنخفضات ، التي كان عليَّ أن أجتازها ذاهبا آيبا في طر يق الحمامات ، أم أن مرد ذلك إلى الحركات الميكانيكية التي كتب علينا أن نؤخذ بها في صلاة التراو يح بكل مسجد صلیناها فيه ، اللهم إلا مسجد اسكندر باشا الذي يلتزم طر يقة الحرمين ،

فيستغرق في كل ليلة جزءا كاملا من القرآن، لقد عانينا من سرعة الإمام في مسجد الفاتح، واليوم نعانيها في مسجد ترمال، مع فارق ملحوظ هو أن التراويح في الفاتح تؤدى مثاني، كأكثر المساجد، يفصل بين كل ركعتين وما بعدهما بعض الذكر الذي يمنحك بعض الراحة، أما هنا فهي تؤدي أربعا فأربعا.. وفي مثل سرعة (التاكسي) الذي يطير بك إلى غايتك ليتاح له حمل سواك دون توقف..

العصاة المجاهرون

والناس في ترمال كإخوانهم في استانبول تغلب عليهم الطيبة، ولكن المصلين منهم قليل، ولعل ذلك عائد إلى أن كثرتهم أثناء فصل الصيف من الغرباء الوافدين عليها من الأقاصي والأداني...

والمؤسف أن معظم هؤلاء النزلاء مجاهرون بالمعصية، فهم يأكلون و يشربون و يدخنون في الشارع وفي حدائق المنازل المطلة على الطرق.. وعند الكثير منهم كلابهم المرفهة لا تكاد تفارقهم، وقد حدثني رفيق من رواد المسجد أنه رأى أسرة في جواره تأكل مع كلابها في الآنية الواحدة.. ولا أنسى أن ظاهرة الاهتمام بالكلاب وتدليلها شائعة في كل مكان حللناه أو عبرنا به ولا سيما في استانبول.. وقبرص.. وحتى الفنادق اللهم إلا فندق (أليف) الذي هدانا إليه بعض الشباب المؤمن في (أق سراي) ـــ أي القصر الأبيض ـــ لخلوه من الخمور وتوافر الجو الإسلامي في جنباته..

وعلى ذكر الفنادق أقول إن الفندق الذي يشبه (أليف) نادر الوجود في استانبول.. إذ لا تكاد تجد واحدا صالحا يخلو من مطعم تقدم فيه الخمور.. وقد يقع بصرك في صدر الفندق على لوحة أنيقة تحمل اسم الله جل جلاله بالحرف العربي، الذي لا يزال في استانبول من يحتفظ بالقدرة على إتقانه، ولكن هذا لا يعني أن الفندق خال من الخمر.. بل إن صديقاً من نزلاء استانبول عندما شاهد معي بعض المصاحف التي اشتريتها برسم الهدية لبعض الأحبة من المدينة المنورة، إعجابا بخطها الرائع وترتيبها المتقن، قال لي: أتدري أن كاتب هذه المصاحف هو من المدمنين على الخمر؟... وأكد لي ما يقول بأنه يعرفه شخصيا، وأنه استكتبه بعض الأشياء فشاهد منه ما يثبت ذلك دون تردد..

وأنا لا أعقب على هذا القول بشيء لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ولكني لا أستغرب وقوع ذلك لشيوع هذا البلاء في كل مكان، إلا من رحم الله..

الإسلام يتحدّى

على أن في الأناضول مناطق وصفت لي بأنها ثبتت على خلالها الإسلامية منذ عهد الطاغية الدونمي حتى الساعة وما اقترفت أي تبديل، ولكم وددت لو أتيحت لي زيارتها لأتحقق من ذلك، وفي مقدمة هذه الربوع مدينة (قونية) التي ذكر لي طالب من أبنائها في الدراسات العليا بمكة المكرمة أن عدد سكانها يضاهي سبعمئة ألف، وأنها المدينة التي صمدت بوجه العسف الكمالي فلم تطبق

شيئا من انحرافاته الخبيثة، على وفرة ما قدمته في سبيل ذلك من الشهداء الذين لا يقلون عن الثلاثين ألفاً.

وقد أخبرني هذا الأخ أن مفطرا واحدا لا يُرى في شوارع قونية طوال رمضان، لأن ناسها مستمرون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد حاول محافظها تحديهم أخيرا فأرسل بعض رجاله ليعلنوا إفطارهم، فواجهوا من القوم ما ردهم على أعقابهم خاسئين.

وبهذه الروح المعتزة بإسلامها جوبهت جنازة عصمة إينونو خليفة الطاغية الدونمي الأول بالرفض في المسجد الذي حملت إليه، فلم تجد من يصلي عليها من أئمة المساجد لعدة أيام، حتى اضطر المسؤولون إلى تقديم موظف من مخابراتهم لتمثيل دور أحدهم، فارتدى الجلباب واعتمر العمة، وأم حفنة من أمثاله في ما زعموه صلاة على الجنازة.. وكان ذلك من المؤمنين جزاء وفاقا لما **عرفوه** من إلحاد هذا الطاغية، بل وإصراره على الإلحاد إلى النفس الأخير، حتى لقد شاع على ألسنة المقربين منه أنه أوصى بألا تقام على جنازته صلاة.. فلم يعمل بتلك الوصية إلا المؤمنون.. وخالفها صنائعه المنافقون!..

تذكرة مؤثرة

وكان عليَّ أن أنتظر في ترمال إلى اليوم السادس الذي هو موعد عودة الزميل.. وكان عليَّ أن أفيد من هذه الفرصة، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الكلمة وداخل جدران المساجد طبعا. ولكن من الذي يعين على إيصال هذه الكلمة إلى المصلين!.

وكان المأمول أن نجد طلبتنا عند الإمام والمؤذن على الأقل، ولكن تعذر ذلك لإنهما لم يعلما من العربية سوى تلاوة القرآن فقط.. ثم جاء الفرج الذي عودناه ربنا تبارك وتعالى.. فإذا هناك ثلاثة إخوة من المصطافين العراقيين، واثنان منهم يحسنان العربية والتركية جميعا. واتفقنا مع الإمام على تحديد الموعد في ما بعد التراويح والوتر، وهو موعد لم أرضه إلا مضطرا، لأن الصبر فيه محدود، والمصلون أحوج ما يكونون فيه إلى الفراش.. وقد حاولت أن استبدل به ما بعد العصر فلم أفلح..

وهكذا مضينا في طريق الدعوة مستخيرين الله..

وفي مثل هذا الجو لا مندوحة للداعي من مراعاة أمرين أولهما اختيار الفكرة المناسبة، والثاني الاقتصار على الوقت المناسب. وليس في الافكار أهم من تركيز العقيدة السليمة بالنسبة لهؤلاء الإخوة، الذين قلما يجدون من يُعني بتوجيههم فضلا عن توعيتهم..

ولكن الوقت.. إنه ليس بالمناسب.. ولا **اختيار لمكره**.

وقدمت لأحاديثي بكلمة وجيزة ولكنها مؤثرة.. إذ أدرتها حول الاخوة الإسلامية وواجب كل مسلم نحو أخيه قريبا أو بعيدا. كما فعلت في أوليات أحاديثي في مسجد الفاتح باستانبول، وذكرت القوم بالماضي القريب الذي كان يربط بين المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم.. وكيف كان العربي إذا قدم هذه البلاد لا يستشعر وحشة لأنه يلقى إخوة له يخاطبهم بلغتهم ويخاطبونه بلغته، حتى تسلل إلى صفوفهم شياطين مزقوا وحدتهم وشتتوا شملهم، وباعدوا بين ألسنتهم، فأصبحوا لا يجدون سبيلا للتفاهم إلا عن طريق التراجم...

ولامست هذه التذكرة ضمائر القوم فتجاوبوا معها كما ينبغي، وأخبرناهم أن لنا حديثا إليهم في مثل هذا الوقت من كل يوم.. وحثثناهم على أن يأتوا بأبنائهم ليشاركوا في هذا الخير...

وتابعنا الأحاديث ليلة بعد ليلة، وحاولنا جهد الإمكان ألا تخرج عن الجوانب التي هم في حاجة إليها، دون تطويل بل ولا تقصير.. واستمر القوم على حضورها ولكن ظل عدد الفتيان بينهم قليلا. وما أدري إذا كانوا قد دَعَوا أبناءهم لهذه الجلسات.. فقد أخبرنا بعض العارفين أن الناس هنا قد أَلِفوا ترك الخيار لأبنائهم وبناتهم في كل شيء، حتى أنك لترى الرجل الصائم بجانب ولده المفطر.. والأم المستورة مع بنتها نصف العارية، دون أن يجدوا في ذلك حرجا ولا غرابة.. ولعل ذلك من رواسب العهد الكمالي الذي كان شديد القسوة على من يتكلم في الدين، أو ينكر على المفسدين..

شهيد الإسلام

وبهذه المناسبة أذكر ما حدثنا به الأستاذ إسماعيل حقي صاحب (دار الحكمة)، التي تنهض بمجهود كبير في خدمة الإسلام، لا في استانبول وحدها بل على مستوى الدولة، وكنا في صدد الاستفسار عن حياة المرحوم عدنان مندريس، وما يتقوَّله عليه بعض الناس من أنه كان ماسونيا، وأن إقدامه على تلك التغييرات الهامة في نظام الطواَغيت إنما كان بحافز الرغبة في الاستكثار من الأنصار.. فقال الأخ إسماعيل، وهو يحاورنا بلسان عربي مبين: لا يستطيع تقدير إصلاحات عدنان مندريس إلا من استوعب صورة الأوضاع التي سبقت وصوله إلى السلطة، وكمثل من ذلك أذكر لكم أن والدي كان من أهل العلم، وقد أصر على أن يقرئنا القرآن، بالرغم من المخاطر التي تهدد المقدمين على ذلك.. ولقد كلفته هذه المغامرة دخول السجن عددا من المرات..

واستأنف يقول: على ضوء هذه الوقائع يجب أن ينظر إلى عمل عدنان مندريس، فهو رائد الإصلاح، وهو دون شك شهيد الإسلام، على الرغم من كل محاولات خصومه تشويه هذه الحقيقة..

وكنت وأنا استمع إلى كلمات الأستاذ إسماعيل، أقلب البصر في هذه المجلدات التي تملأ الواجهة المقابلة لنا من مكتبه، وكلها مترجم عن العربية إلى التركية، ومن مؤلفات المودودي وسيد

قطب والنووي والكثير غيرهم، فأتمتم في نفسي: لولا توفيق الله عدنان مندر يس للإقدام على تلك المغامرة.. أكان ثمة من سبيل إلى أن يسمع تركي بهذه المؤلفات الرائدة!...

ألا رحم الله شهيد الإسلام عدنان مندر يس كفاء خدمته لدينه وأمته.

هنا فليصطف المسلمون

و بانتهاء الأيام الستة حَزمت متاعي وعدت أدراجي إلى استانبول، إذ يئست من حضور زميلي، وقدرت أنه سبقني إلى هناك حسب الإتفاق. وأرى من الحق عليّ لترمال أن أسجل بعض مميزاتها الاقتصادية. فهي على كونها مصيفا منشودا للراغبين في الاستجمام الساحر بهدوئه وجماله، ومنتجعاً مشهودا يقصد إليه مرضى الأعصاب من كل فج، تكاد تنافس القرى العادية في رخص الأسعار.. وسأكتفي بأمثلة صغيرة على ذلك:

في الغرفة التي احتوتني خمسة الأيام الأخيرة سر يران متواضعان نظيفان وخدمة ممتازة من الزوجين الكريمين صاحبي المنزل و ومع ذلك لم تزد أجرة الليلة الواحدة عن خمسة أر يلة سعودية، أي ما يساوي دولاراً، وقد ألفتُ تناول إفطاري أكثر تلك الأيام في مطعم نظيف، و يقع في أبرز مواقع البلد، وكان يتألف غالبا من طبق حساء لذيذ، وآخر من الكباب الطيب أو نحوه مع ملحقاتها.. ومع ذلك لا يز يد ثمن الوجبة مع الخبز طبعا على ١٢٠ ل أي ما يساوي ستة أر يلة..

وكان صاحب المطعم صائما مثلي إذ يبدأ طعامه في وقتي نفسه، وكنت ألحظ منه ومن رفيقه تكريما لي واهتماما بأمري، فظننت لرخص الأسعار علاقة بهذه النظرة، لذلك رأيت أن أجرب غير هذا المطعم في آخر إفطار، فإذا هما متقار بان، مع أفضلية طعام الأول.

ولا تحسبن هذا الضرب من الرخص خاصا بترمال، بل إنك لتلمسه أنّى اتجهت من هذه البلاد.. وإليك بعض الأمثلة من استانبول. الفنادق التي نزلنا فيها تعتبر من الدرجة الأعلى من المتوسط، ومع ذلك فأجر الحجرات ذات السر ير ين والحمام الخاص يتراوح ما بين ٢٠ ر يالا و١٧ ولا تسل عن النظافة لأن تغيير البياض محتوم كل صباح.. وأما الطعام فلن يز يد ثمن الوجبة الجيدة عن عشرة أر يلة.. وعن الفاكهة فحدث ولا حرج.. أن ثمن كيلٍ واحد من العنب في المدينة يكفي لملء ثلاجتك بألوان الفاكهة التي تثير أشواقك إلى ثمر الجنة.

أليس من المستغرب والمستنكر بعد هذا أن يتجه سائح مسلم لقضاء أجازته الصيفية في غير هذا الجزء الجميل من وطن الإسلام!؟..

إلى فندق أليف

وكان مسجد الفاتح هو موعدنا للتلاقي فقصدت إليه لصلاة العصر.. ولم يكن زميلي قد وصل بعد، وفي هذا حرج لي، لأنه هو الذي تولى إيداع حقائبنا لدى إحدى الطلاب الأتراك.. وكنت قد نسيت اسمه، ثم تذكرت أخيرا أن لقبه العائلي هو نفسه لقب تلميذ قديم لي باللاذقية كان يدعى (موسى طوبال) فهو إذن فلان طوبال، وبعد لأي برز اسمه الأول من خلال أكداس المحفوظات القائمة في ذاكرتي فهو سليمان طوبال. لقد وجدت الاسم ولكني لم أجد الجسم الذي يحمله. وكل تأخير في الحصول على الحقيبة سيكلفني البقاء في ثوب غير مناسب...

وبعد بحث طويل عريض عثرنا على حجرة مناسبة في فندق واشنطن القريب من مسجد شيخ زاده. ومن هاتف هذه الغرفة تلقيت صوت زميلي الذي استدل على وجودي من بعض إخوان الفاتح.. إلا أننا لم نتمكن من الوصول إلى الحقائب إلا صباح اليوم التالي، إذْ جاءنا بها سليمان في سيارة زميل له يريد الالتحاق بجامعتنا الإسلامية، وفي حسبانه أنّا نستطيع مساعدته في تحقيق مأمله.. فلم أدعه للأحلام بل صارحته بأنّا لا نملك له ضرا ولا نفعا، سوى أن نذكّر بأمره، ونشهد له بما علمنا عنه.. والله وحده الفعال لما يريد.

ومع الأخ سليمان جاءنا بعض الشباب الجامعي الذين لم يستحسنوا وجودنا في فندق تشرب في مطعمه الخمور، فمازالوا يفتشون حتى وجدوا لنا غرفة صالحة في فندق (أليف) من حي (آق سراي) وسرعان ما نقلوا أمتعتنا إلى السيارة التي أقلتنا حالا إلى الغرفة الجديدة.

عودة إلى التذكير

ولقد استأنفت التحدث منذ عصر الأمس، إذ ما كدت أفرغ من الصلاة، وأنتقل إلى مكاني الذي ألفت الجلوس فيه، حتى أقبل الناس فرادى وجماعات.. ولكن لم نجد من يتوسط بيننا وبينهم بالترجمة، فلا صدر الدين، ولا خالد ــ المعيدان في الجامعة اللذان عودانا هذا الفضل من قبل ــ وجعلت أتلفت عليَّ أحداً يصلح لهذه المهمة، فوقع بصري على وجه فتى فيه سمات الخير تحيط به لحية وقور، فقلت له: أتوسم فيك البيان العربي، فهل لك بالتكرم؟..

ولم يتلكأ فانطلق نحوي من خلال الجمع حتى جلس بجانبي، وعلمت منه أنه من وعّاظ المسجد الرسميين.. فسرني أن يقوم بيننا هذا التعاون على طاعة الله ولو ليوم واحد.

على أني لاحظت أنه لا يكتفي بنقل معانيَّ وحدها بل يزيد عليها، وخشيت أن يؤدي ذلك إلى الخروج بحديثي عن حدوده التي قدرتها، فنبهته إلى ضرورة الاكتفاء بكلامي خشية الإطالة.. فعدّل من تصرفه بشكل ملحوظ، واستطعت أن أمرِّر عن طريقه أدق المعاني المتصلة بتجريد التوحيد..

وفي نهاية الحصة توالت الأسئلة، فأجبت عن أهمها بما فتح الله، وشكرت للأخ المترجم معاونته المأجورة إن شاء الله. وبصعوبة تخلصت من الجمع الذي تهافت على مصافحتي والدعاء لي.. وتقدم فتى معمم من بينهم فناولني قطعة من النسيج الموشّي وهويقول بعربية أعجمية: إنها تذكرة.. فلم أر ردها وقبلتها شاكرا..

الفاتحة أولا

وفي عصر اليوم التالي، وبينما كان المؤذّنون يهيئون للجماعة بتلاوة (الإخلاص) ثم ينبهون الناس للصلاة بتلاوة (الفاتحة) وجدتني أتساءل: أليس من الخير لهؤلاء المصلين المكررين أبدا لهاتين السورتين أن يكونوا على بعض العلم لمضمونهما، فيتلوهما وهم على صلة بما ينطويان عليه من الحقائق العلوية!.

وصممت أن يكون حديثي إليهم حول السورتين، وسألت الله أن يهديني بها ويهدي بي إلى ما ينفع هؤلاء الإخوة المؤمنين، الذين هم أحوج ما يُتصور إلى الاتصال بمنابع القرآن الحكيم والسنة المطهرة.

ولما انصرفت إلى مكاني المعهود وانصرف معي الناس إليه أوضحت لهم رغبتي في مساعدتهم على تفهم ما أمكن من معاني هاتين السورتين، اللتين قد اتقن تلاوتها كل مسلم بسبب هذا التكرار، وبقي عليه أن يحاول جهده الإنتقال من حالة المحاكاة، إلى حالة التمثل الواعي لبعض معانيها العظيمة..

وقدمت للكلام عن الفاتحة ببيان أهميتها في حياة المؤمن وتحدثت عن نزولها، وأسمائها، وبخاصة تعريف القرآن العظيم لها بأنها (السبع المثاني) وأنها المقصودة باسم (القرآن العظيم) في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) وكنت أشعر أن توفيقا من الله يكلؤني أثناء ذلك، فيفتح علي باستشفاف معانٍ لم تخطر لي على بال من قبل.

ووقفت أكثر من حصة على قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) وكان ذلك ضروريا جدا في مثل هذه الأوساط، حيث تستحوذ الطرقية على معظم الناس، فلا تكاد ترى رجلا أو امرأة من المؤمنين إلا وراءه شيخه، الذي أسلم إليه قياده ــ كما أسلفت من قبل ــ وفي مثل هذه الجواء من العسير أن يتكلم الداعي عن توحيد العبادة بمعناه الشامل، فإن أقل غفلة تعرضه للريب، فينفض من حوله السامعون إلى غير رجعة. على أن وسيلتي إلى قلوبهم كانت صالحةً للقبول بفضل الله، ذلك لأني أخذت نفسي بمنهج القرآن الحكيم، فلم أفارق سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، وجعلت معتمدي الشواهد الحاسمة من كتاب الله وما صح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم سلوك الصحابة والتابعين من أئمة السلف رحمهم الله. وبذلك أوضحت للقوم أدق ما أفهم من دلالة القصر في تقديم المفعول (إياك) على الفعلين (نعبد ونستعين) وما في ذلك من معنى الميثاق يعقده المؤمن مع ربه على توجيهها إليه وحده

سبحانه في كل أمر دق أو جل، ليكون مقصود العبد من كل حركة وسكنة مرضاة الله تبارك وتعالى.. وحتى في التعامل مع الأشخاص والأشياء لا ينسى أنها وسائل مقدورة من الحكيم العليم، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا..

وكثيرا ما كانت الأيدي ترتفع بالرغبة في الاستيضاح فنطلب إلى أصحابها التريث إلى نهاية البحث، فإذا ختم جاءت الأسئلة، فنصنفها، ثم نجيب عليها بالطريقة نفسها مدعومة بالأدلة الحاسمة من الوحيين، مما لا يدع مجالاً للجدال.

ثم لا أنسى أن أُواعدهم اللقاء في اليوم القادم.

وفي الأصيل التالي كان البحث مقصورا على أواخر الفاتحة.. فقدمت له بتلخيص مركز لما مر من السورة، ثم وصلته بما تأخر. وبدأت الكلام بتفسير المفردات واحدة واحدة، بتفصيل لا مندوحة لك من مراعاته عندما توجه الحديث إلى غير العربي..

ووقفت بعض الوقت على وصف الصراط بالاستقامة على اعتباره أقصر طريق إلى الحقيقة وأسلم طريق. فإذا كان الضال مضيّعاً بين مختلف السبل، لا يعي واقعه، ولا يعرف سبيله، فالمؤمن هو الوحيد الذي يمتلىء يقينا بكونه على الحق لأنه ينظر بنور ربه (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وهو مسدد الخطى أبدا بالإيمان الذي لا يفارقه الهدى، تحقيقا لوعد الله القائل (ومن يؤمن بالله يهدِ قلبَه).

ونحن في دعائنا ربَّنا أن يهب لنا الهدى إنما نسأله المزيد منه، والثبات عليه، في غمار فتن (كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا) كما ورد في الحديث الصحيح[1].

الصراط المستقيم

ويبقى أن نتعرف شأن ذلك الصراط المستقيم الذي نلحُّ على الله صباح مساء بأن يرزقنا التزامه فلا نزايله قِيدَ شعرة.

وهنا يأتي بيان هذا الصراط بأنه طريق المصطفين الأخيار (الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا) فطمأنينة المؤمن إذن متولدة من يقينه التام بأنه جزء لا يتجزأ من الركب الأعظم الذي بدأ بنبي هو آدم، وخُتِم بنبي هو سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم ولا يزال متصل المسيرة باتجاه الجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. على أن السورة لا تقف عند البيان الواضح لطريق المصطفين الأخيار، بل تزيده إيضاحا بأنه طريق متميز لا يختلط بغيره من الطرق، لأنه الوحيد الذي سلم أهله من كل انحراف عن معالم الاستقامة.. وقد خص الله بالذكر جلت حكمته مسالك الضالين من النصارى، والمغضوب عليهم من

(١) من حديث صحيح أخرجه أبوداود ـ رقم ٤٠٩٣ - ٤٠٩٥.

اليهود، لكي يكون المؤمنون دائما على حذر من أباطيلهم السائقة إلى الشقاء الأكبر، في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد..

وقد استغرق الحديث عن صراط المؤمنين وصراط الكافرين عدة أيام، وفي كل يوم كنت أشعر أن أشياء جديدة تتراءى لي من وراء الآي لا يَحسن بي إغفالها. ثم كانت الخاتمة تذكيراً مؤثرا للسامعين رجالا ونساء بأن في السورة مواثيقَ عدة يعقدها المؤمن مع ربه كل يوم، بل في كل ركعة، وفي كل مناسبة يتلوبها الفاتحة.. منها تجريد العبادة والاستعانة لله وبه وحده: فلا يدعومع الله أحدا، ومنها التزام صراط الله بالوقوف عند أمره ونهيه والطاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما صح عنه.. ومنها أخيراً صيانة النفس والأهل عن الانسياق مع أضاليل أهل الكتاب.. فلا نسمح لها بالتسلل إلى وجودنا وبيوتنا وأخلاقنا، وأن نتوقاها كما نتوقى الأمراض السارية. ولا سيما أن هؤلاء مصممون على إفسادِ حياتنا باستدراجنا نحو المزالق المباعدة للإسلام..وضربت لجمهور السامعين الأمثال المقربة من واقع المدارس التبشيرية إلى أشتات الفنون الهابطة، إلى أنواع السلوك البهمية التي استهوت الكثير من شباب الإسلام، فابتعدوا عن دين الله بمقدار إنغماسهم في هذه المفاسد.

ومن ثم لفت نظرهم إلى تغلغل هذه المفاسد خلال بيوت المسلمين، فأصبحوا يحاكونهم في مختلف الشؤون ، حتى ألِفوا مشاربَهم ومسالكهم فانساقوا وراءهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون... وبذلك فقد هؤلاء المخدوعون من المسلمين مميزاتهم الربانية التي أدبهم بها الله ورسوله، فباتوا ذيولا للكافرين، لا ينكرون منكرا، ولا يأمرون بمعروف، وكانت عاقبة ذلك أن غلب الأعداء على بلادهم، فاستلبوا ثرواتهم، واستحوذوا على مقدراتهم، وحالوا بينهم وبين كل تقدم صحيح..

وأخيراً جعلت أتساءل: فأين وفاء المسلم بالعهد الذي يعقده مع ربه في كل صلاة، أن يجتنب سبيل الكافرين، ويلتزم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟..

والإخلاص ثانيا

وكان آخر عهدنا بهذه المجالس عصر اليوم السابق لسفرنا إلى **قبرس** فوقفت الحديث على سورة الإخلاص، فأوضحت الحكمة في كونها تعدل ثلث القرآن.. وانتقلت من ذلك إلى صفات الله المثبتة والمنفية في السورة الكريمة، وعرضت لأصناف الشرك التي تشوه عقيدة التوحيد، وقارنت بين كمال العقيدة الإسلامية، وضلال العقائد الأخرى، ومنبع هذا الضلال الشيطاني الذي أفسد فطرة الأمم والأفراد حتى عجزوا عن التفريق بين الحق والباطل، فنسبوا إلى ربهم ما وجدوه في أنفسهم، ولم يتورعوا عن نسبة الوالدة والولد إليه!.. تعالى الله عما يقول الظالمون...

وآخر ما ركزت عليه بوجه خاص أهمية العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الجنس البشري كافة، إذ أن المسلم المتميز بهذه العقيدة هو الإنسان الوحيد الذي انتهى إليه ميراث النبوة، فكان حجة الله على

عباده، و باستقامته على هذا الميراث تميز بالشهادة على الخلق (وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس.. ٢٢/ ٧٨).

وقد كان من تيسير الله وله الحمد أن قيض لنا في كل يوم أخا من المصلين، يتولى ترجمة هذه المعاني إلى الإخوة السامعين، الذين كانت ملامحهم تنطق بتفاعلهم مع كل عبارة.. وكان آخر هؤلاء المترجمين طبيباً من دير الزور يعمل في الكويت، وقد تخرج في جامعة استانبول فجمع بين اللغتين العربية والتركية.. و يؤسفني أني أُنسيت اسمه، وأظن أن في كنيته اسم (كمال بك)..

مفاجأة

وذات أصيل بينا كنت أشق طريقي بصعوبة خلال الجمع الذي أقبل على مصافحتي والدعاء المخلص لي، اعترضني رجل متين تبرق في عينيه ملامح غير سارة، ودون أن يصافحني قال بعربية سليمة:أنت وهابيّ... ولم أفاجأ بهذه الكلمة فأنا أتوقعها وأدرك ما وراءها من تفسيرات غوغائية، لا تزال في صدور الجاهلين والمضللين، فقلت: وماذا تقصد بالوهابية؟ أجاب: هي مذهب خامس، ومذاهب الحق أربعة فقط. وأخذ في تعدادها.. فقلت، وأنا أواصل طريقي مبتسماً: يظهر إنك لا تعلم أن هؤلاء الذين تنعتهم بالوهابيين هم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.. وليس الشيخ محمد عبدالوهاب الذي تنسبونهم إليه سوى أحد المجددين، الذين جاهدوا لإعادة المسلمين إلى سبيل السلف الصالح من أئمة الدين، عليهم رحمات الله أجمعين.

والحق أن هذا المتعصب كان الوحيد الذي واجهني بمثل هذا السؤال طوال مقامنا في تركية. على حين واجهنا الكثير من الود والحب في الله والتقدير العاقل.. و يتعذر عليّ إحصاء الدعوات التي وجهت إلينا للإفطار من قبل بعض المستمعين.. وقد استجبنا لبعضها، وكان آخرها ساعة اقترب مني — عقيب الحديث— أحدهم فقال إن إخوانا له يدعوننا للإفطار والحديث إليهم في مسجد لهم، فلم أر داعيا للرفض بل وجدت في ذلك فرصة صالحة للاتصال بمجموعة جديدة من المؤمنين.

في ظلال القرآن

وحملتنا السيارة إلى أطراف استانبول حيث الخليج..

وهناك أدركنا الغروب فتناولنا حبة الزيتون التي قدموها إلينا، و يتخذونها بديلا عن التمر في كسر الريق، وبعد صلاة المغرب مضوا بنا إلى مطعم مليء **بالمدعوين** من سكان المحلة، فتناولنا الطعام، ومن ثم مضوا بنا في حافلة صغيرة إلى المسجد، حيث التقينا بالأخ الأستاذ خالد المعيد في معهد التخصص، فرأى أن يكون حديثنا عن فاتحة الكتاب، **التي** سبق أن شارك في ترجمة بعض حلقاتنا عنها في مسجد الفاتح. فوافقت على رأيه وأخذت في الحديث حتى موعد العشاء الثانية، وبعد

التراو يح استأنفت الكلام في الموضوع ولكن في تركيز يقتضيه ضيق المقام.. وقد حاولوا استضافتنا إلى اليوم التالي فاعتذرنا بإصرار.. ومن ثم حملونا إلى فندق (أليف) مشكورين مأجورين إن شاء الله...

وقد علمنا أن ذلك الإفطار كان على نفقة أحد الفضلاء من سكان المحلة، وهي عادة حميدة كثيرا ما يقوم بها أهل اليسار في كل محلة من استانبول..

ولقد سبق أن دعيت إلى مثلها في معهد لتحفيظ القرآن الكريم بجوار مسجد الخرقة الشريفة ــ ثوب الرسول صلى الله عليه وسلم ــ وقد صحبنا إلى المعهد الأستاذ صدر الدين... معيد العربية في جامعة استانبول، حيث اجتمعنا بشيوخه من خَدَمَةِ الكتاب العزيز، وشاهدنا مجموعة من خمسين طالبا يراجعون محفوظاتهم من القرآن والفقه.. ولما سألنا عنهم قيل أنهم موفدون لهذه الدراسة من مختلف أنحاء تركية، فهم هنا يدرسون، وفي مهاجع خاصة بالمعهد يبيتون، وفي مطعمه يتناولون وجباتهم الكافية. وكل ذلك على نفقة المحسنين من الذين يقومون بتمويل هذا المعهد والعشرات من أمثاله.. وشد ما هزتني هذه الغيرة على كتاب الله حتى لنرى الأهلين يَهَبون أبناءهم لتعلم القرآن وعلومه، وهم موقنون أن المقدِم على هذا الاتجاه لن يكون من أصحاب الحظوظ الدنيوية إلا ما شاء الله، شأنهم في ذلك شأن مسلمي الهند والباكستان وأشباههم في أفريقية وغيرها، حيث يؤثر المسلمون الفقر مع الدين، على الغني مع الدنيا، حفاظا على الذاتية المسلمة أن تجرفها تيارات الانحراف..

ولم أتمالك بإزاء هذه الظواهر المضيئة فوقفت لأعبرَ لهم عن مشاعري نحوهم، وتولى الأخ صدر الدين الترجمة، فهنأت الطلاب على هذا الجو الطاهر الذي وفدوا إليه من عديد الأهل، ليجمعهم على اخوَّة الإسلام في ظلال القرآن العظيم..

تجربة فريدة

وقلت: إن ها هنا لتجربة فريدة: آباء يقدمون أبناءهم للإسلام كي يُسهموا في المحافظة على وجوده ورسوخه في هذه الديار، ومؤمنون قد أحاطوهم بالرعاية فوفروا لهم ما يحتاجونه في هجرتهم المباركة هذه.. وكان للسابقين من المؤمنين فضلهم الكبير في إنشاء هذه الأبنية ووقفها في سبيل الله لهذه الغاية العظيمة، فاجتمع على هذا البر السابقون واللاحقون من أبناء هذه الأمة العظيمة..

ولا جرم أن أمةً تتلاقى أجيالها على مثل هذا التعاون لخدمة الإسلام، وللحفاظ على القرآن، لهي الأمة المنصورة إن شاء الله، مهما تكاثرت عليها المِحَن، وتآمرت عليها الأعداء..

وأنهيت كلمتي بالضراعة إلى الله أن يجعل من هؤلاء الأحداث وإخوانهم أبطال الغد، الذين سيعيدون لتركية المؤمنة ما تتطلع إليه من مستقبل مشرق بنور الله، ولو كره الكافرون والمشركون والحاقدون...

وغلبني التأثر فخرجتْ هذه الألفاظ ممزوجة بالدمع واللذع .

ورأينـا أن نـدخل بعض السرور على قلوب هؤلاء الأحداث الأحبة فقدمنا ــ الأخ شريف وأنا ــ إلى الأخ صدر الدين ألف ليرة لتوزع عليهم هدية صغيرة تترجم عواطفنا نحوهم ..

وكـان مـن المعلومات المضيئة التي وقفنا عليها هناك أن الطالب من هؤلاء قد حصل على شهادة الدراسـة الإبتـدائيـة ، وبعد سنتين من دراسة القرآن وحفظه ، أو حفظ بعض أجزائه ، يلحقون بمعاهد الأئمة والخطباء ، حيث يواصلون دراستهم حتى الحصول على الثانوية ، ومعنى ذلك أن أحدهم لم يظفر بها إلا بعد ملازمته مقاعد الدراسة قرابة الأربع عشرة من السنين .

فمِـن هـؤلاء وأمثـالهـم إذن يَـفِـدُ إلـى الجامعة الإسلامية بالمدينة الطلاب الأتراك الحاصلون على شهادات معاهد الائمة والخطباء .

فعلى الرحب والسعة مع أطيب التمنيات .

المرابطة لا الرابطة

وفي حـجـرة المؤذنين من مسجد الفاتح ، وفي جلسة مع بعض أهل العلم الذين أشرت إليهم ، تحدثنا عن واجب العلماء نحو دين الله ، ومسؤوليتهم حيال المسلمين الذين تتكاثف من حولهم ظلمات الدعوات البـاطلـة . وأنهـيـت كـلامي ذاك بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكـم تـفـلحـون) وجـعـلـت ألفت انتباه الحضور إلى مدلول كل من هذه الوصايا الأربع وأهميتها ، وبخاصة بالنسبة إلى الدعاة ، وصلة كل منها بالفلاح الذي تبشر به الآية المتصفين بها ..

وهـنـا الـتـفـت أحـدهـم إلـى الدكتور علي زكي ــ مدير معهد التخصص في الدراسات الإسلامية والـعـربـيـة باستانبول ــ يقول له ، وكأنه يصل حديثا سابقا بينهما : لنسأل الشيخ عن الصلة بين الرباط والـرابـطـة ، ووجه إليَّ تتمة الكلام فقال : كنا في حوار حول هذه الكلمة القرآنية ، أفليس المراد بها هو ورد الرابطة الذي بين الشيخ والمريد ؟ ..

وكـان عليَّ أن أتبسط في الكلام عن (المرابطة) المأمور بها في الآية الكريمة وصلتها بكل من الوصايا الثلاث المجـاورة . وقـلـت : إن المـرابـطة هي القيام بواجب الجهاد في سبيل الله ، وهي هنا تفيد **وجوب** الإستعداد الدائم للحفاظ على الوجود الإسلامي مطلقا ، سواء في أيام الحرب أو السلم .. ولا سبيل إليها إلا بـالـصبر عـلى المشاقّ ، ومواجهة العدو المتربص بالمسلمين بمثل صبره أو أكثر ، حتى لا تستولى عليهم الـغـفـلة فيؤتَوا من حيث لا يحتسبون ، ولا أعون لهم على ذلك من التذرع بتقوى الله ، التي تجعل عملَهم كـلـه خـالصا لوجهه ، فإذا تم للمسلمين الاتصاف بهذه الفضائل الأربع كانوا مؤهلين للنصر الذي وعد الله به عبادَه الصالحين .

وأمسكت قليلا ألاحظ وقع الحديث في وجوه القوم، التي بدا عليها الرضى. ثم استأنفت: ومن هنا يتضح لنا البون الشاسع بين المرابطة والرابطة التي يسأل الأخ الفاضل عنها.

ويحسن بي أن أذكّر القارىء هنا بأن (الرابطة) عند الطرقيين هي الصلة الروحية بين الشيخ ومريده، بحيث لا يفارق هذا ذاك، حتى أثناء تلبسه بالصلاة، فبمجرد إعلانه تكبيرة الإحرام عليه أن يحصُر تفكيره في الشيخ وحده...

حديث من هذا الضرب أثير في منزلي باللاذقية قبل عشرين سنة، وقد زارني صديق من أفاضل العلماء مع بعض تلاميذه، فلما صار بنا الحديث إلى ورد الرابطة قلت للشيخ: لقد كنتَ من القوم، وأخبرتني ذات يوم أنهم أوشكوا أن يخرجوك من عقلك.. أفلا تذكر أن الرابطة عندهم هي استحضار المريد شيخه في قلب الصلاة؟

فأجاب الشيخ: أجل.. ولكن لكي يسلم الشيخ مريده إلى الله..

قلت للشيخ: ولكن هذه عبادة موجهة إلى الشيخ لا إلى الله.

وسكت الشيخ يومئذ دون أن نعرف وجهة نظره بوضوح..

الكتاب والسنة أولاً

وقريب من هذا تلك المناسبة الأخرى التي ساقنا إليها المقدور آخر ليلة قضيناها في استانبول قبيل عودتنا إلى المدينة.. وكان ذلك حين دعانا طبيب تركي لقضاء بعض السهرة في منزله. ولم أر مانعا من قبول الدعوة.

وفي المنزل استقبلنا رجلان ومعهما بعض الأحداث، وكانوا — وهم ما بين الـ ١٣ و١٨ — في جلسة تعليمية يشير إليها ما بأيدي بعضهم من الكتب..

وهناك اقترح عليَّ الأخ الشيخ محمد شريف توجيه كلمة إلى هؤلاء الإخوة والأبناء من قبيل التذكير بما ينفع.. ولم يكن ثمة داع للاعتذار، فأنا أحب أن أعرف الحال الذي هم عليه، وهذه فرصة للوقوف على ذلك.

قلت بعد حمد الله والصلاة على مصطفاه: هل لي أن أعلم أي الكتب هذه التي تقرؤون؟..

وتولّى الجواب صاحب الدعوة الطبيب، فأخذ يتحدث عن العلم وحاجة الشباب إليه.. وما إلى ذلك..

فقلت: أرجو الاقتصار على الجواب المنشود، ومن ثم ترجمة كلماتي إلى الإخوة الحضور فقرة فقرة..

ولكن عبثاً فلم أحظَ بالرد المراد ، وظل كلامه عاما .. وهناك استوضحت اسم الكتاب الذي في يد أحدهم ، فإذا هو كما توقعت من مؤلفات شيخ مشهور، كان له مواقف صالحة في مواجهة الطغيان الكمالي ، كلفته العناء الكثير..

وكنت أعلم الكثير عن أفكار الشيخ ، وعن أتباعه المنتشرين في أنحاء تركية على امتدادها .. ومدى تعلقهم بكتبه التي لا يسأمون دراستها ، مع الحظر الذي يكاد أن يكون تاما على أي فكر آخر لا يصدر عن هذه الكتب..

ورأيت لزاماً عليّ أن أبلغهم كلمة الحق في هذا الموقع مهما يكن وقعها..

وبالأسلوب الذي آثرت لسائر أحاديثي شرعت في الكلام عن القرآن والسنة ، وأثرهما العميق في تربية الجيل الأول من مدرسة النبوّة.. وتبسطت في الحديث عن منهج الفاروق عمر (رضي الله عنه) في التركيز على القرآن لتوثيق صلة الجيل الجديد من أبناء الصحابة بكتاب الله أولا .. ثم يأتي الحديث الشريف لبيان مقاصده ، وتفصيل مجمله..

وقلت : ونحن في هذه الأيام أحوج ما نكون لتحقيق هذا المنهج العمري في حياتنا وأبنائنا ، لأن التيارات التي تهاجمنا من كل صوب ، من شأنها أن تهز وجودنا كله ، وعلى مقدار التزامنا جانب الوحيّ يكون حظنا من التغلب عليها إن شاء الله.

ومن هنا كان لزاما عليكم أيها الشباب أن توثقوا صلتكم أولا بالقرآن والسنة ، وأن يكون ما تقرؤونه مقصورا على ما يقرب معانيها إلى أذهانكم وقلوبكم ، وبذلك تحققون في مجالسكم ما أراده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله الحكيم : (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . . .) وقد فسر هذه الرياض بأنها (حلق الذكر).

وقبل أن تذهب بهم التصورات كل مذهب وجّهت انتباههم إلى مفهوم كلمة (الذكر) في الحديث ،فذكّرتهم بأنه أولا من أسماء القرآن العظيم (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم — ١٦/٤٤) وإنما سمي بالذكر لأنه المذكِّر للإنسان بما نسيه من وجوب العبودية لله ، والتزام سبيله الموصل إلى سعادة الدارين.. وعلى هذا فالمراد بحلق الذكر مجالس العلم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأما ما يتوهمه بعض الناس من كونها كلمات ترددها الألسنة ، أو تمتمات تغمغم بها الحلوق ، أو دوائر متحركة يترنح فيها الذاكرون يمنة ويسرة... فذلك أبعد الأقوال عن البيان الصحيح..

وانطلق أحد الشباب يقول: لابد أن لهذا علاقة بالطرق الصوفية..

وقبل أن أعقب على ذلك بشيء جاء الرد من الأخ الشيخ محمد شريف بقوله: إن الشيخ يعرض الحقيقة، دون أن يعرض لموضوع الطرق..

واكتفينا بهذا.. ثم نهضنا للعودة وأنا أقول للدكتور والأخوين المساعدين له: هؤلاء الشباب أمانة الله لديكم فلا تصرفوهم عن الوحيين إلى غيرهما.. وليكن ما تقرئونهم من كتب الشيخ مقصورا على ما يسدد فهمهم لكتاب الله وسنة رسوله.. وجنبوهم التعقيدات الفلسفية التي لا تحتملها أذهانهم الغضة..

حي الفاتح

وهكذا نكون قد قضينا في استانبول أسبوعين، فصل بينهما أسبوع ترمال، وقد أخذ منا مسجد الفاتح معظم ساعات النشاط الذي سبق الحديث عنه. والآن أحب أن أسجل بعض انطباعاتي عن ذلك الجو الكريم بنبذة عن الحي الذي يحدق بذلك المسجد.. ذلك الحي الحبيب الذي أضيف إلى الفاتح أيضا، وحق له أن ينسب إلى الفاتح، إذْ كان روحه الذي يضوع من خلاله أريج الفتح هو الذي يطبع كل جانب منه، بل كل شيء.. وبسبب من ذلك تسمع المبلغين في مطلع كل صلاة هناك يرفعون أكف الضراعة إلى الله بطلب الرحمة لمحمد الفاتح، الذي أكرمه الله وصحبه بمديح رسول الله، الذي شهد بفضلهم في قوله الثابت: «لَتُفتَحَنّ القسطنطينية ولنعم الأميرُ أميرُها ولنعم الجيش ذلك الجيش..» وكفى بذلك مذكرا لا يفتر بأهمية هذا الفتح، الذي ما كان ليكون لولا الإسلام، فبالإسلام فتحت هذه الديار إذن، وللإسلام كان فتحها، ليواصل هذا الدين الخالد مسيرته الأبدية، على الرغم من كل أعدائه الظاهرين والمستترين...

ولا غرابة أن يكون لذلك أثره في تثبيت الطابع الإسلامي على سكان هذا الحيّ، الذي قل فيهم من يغفل الصلاة صغارا أو كبارا، ذكورا وإناثا، ولعل أبرز معالم هذا اللون المميز هو المظهر الإسلامي الذي تبدو فيه المرأة المسلمة وكأنها ملاك أُسكِنَ الأرض، ليعلم الناس أروع نماذج الأخلاق والسلوك. ثوب سماوي اللون، يتألف من قطعتين لا أجمل من تناسقهما وحشمتها، يعلوه قناع من اللون نفسه يحجب الوجه والرأس، إلا مثلثين تُطل منهما العينان، اللتان ترجمتا قول ربهما الخالد: (وقل للمؤمنات يغضضنَ من أبصارهنَّ..) إلى الواقع الحي، فهما مثل لمعنى الغض العفّ، الذي يفرض مثله على أبصار الآخرين.. فكأنَّ الإمام بن المبارك لا يريد غيرهن بمثل قوله:

يأبى الجواب فما يراجَع هيبةً — والسائلون نواكس الأذقان

ولو هو رآهن في طريقهن حول ذلك المسجد لما تردد ان يقول في كلٍّ منهن:

تغضي الحياءَ فما تراقب هيبةً — والمعجبون نواكس الأذقانِ

ولست بزاعمٍ ان هذا الطراز من الزي المَهيب هو لباس سائر المسلمات هناك، كلا.. بل لعل هؤلاء يمثلنَ فئة خاصة من ذلك الحي، أو من طالبات الجامعات، إلا أن الحشمة الإسلامية هي المميزةُ لجميعهن في كل ما يرتدين من الثياب.. فيبدون بإزاء الأخريات من المتفرنجات كالورود بين الأشواك، أو كالحَمائم بين القِرَدة. ولا أنسى كلمة زميلي الشيخ محمد شريف، التي كثيراً ما سمعته يرددها: سبحان الله.. ما أجمل المخدَّرات، وما أقبح المستهترات!.

ومن كرامات هذا المسجد أنْ حماه الله من تلك المناظر المؤذية التي يواجهها المؤمن حول بعض المساجد الكبرى في استانبول، كمسجد بايازيد، ومسجد سليمان باشا، حيث تقوم المقاهي لتستقبل أصناف الرواد من نساء تخلَّين عن الحياء، إلى رجال تبلدت أحاسيسهم، وقد غرق الكل في التدخين واحتساء ما حل وحرم من الأشربة على ملأٍ من الوافدين للصلاة، وكل ذلك في رمضان الذي حرموا بركاته، وربما لم يسمعوا به قط..

نشاط معجب

وكان علينا أن نتهيأ للطيران إلى قبرس، التي اضطررنا إلى تقديم موعد السفر إليها بسبب الزحام الذي تتعرض له الرحلات الجوية المخصصة لها قبيل العيد وبُعَيد..

وفي صباح السابع والعشرين من رمضان، وهو الموعد المقرر لسفرنا وافانا الأخ الدكتور مصطفى بلكَه ومعه الأخ الفاضل الشيخ محمد أمين سراج— أحد مترجِمَيْ (في ظلال القرآن) والكثير من المؤلفات الإسلامية الحديثة ومن الفندق رافقناهما في سيارة الدكتور، التي كان لها كثير من الفضل علينا، إلى منزله.

وهناك استأنفنا الحديث في مختلف القضايا الإسلامية، وعرضنا عليهما انطباعاتنا عن هذه الرحلة، وما سنحمله عنها إلى القراء الذين يهمهم أمر هذه البلاد العزيزة على كل مسلم. ومن ثم عدنا إلى الفندق لنستقبل مندوبي (اتحاد الطلبة المسلمين) الذين سبق أن واعدناهم اللقاء منذ مساء أمس. وفي مركزهم الرحب الفخم وجدنا الإخوة المسؤولين بانتظارنا، ثم قدم كبيرهم وهو شاب أنيس المنظر ذو لحية جميلة خفيفة، وقد علمنا منه أنه تجاوز عهد الدراسة، فلم يعد منتظما في عداد طلبة المركز، ولكنه يعمل معهم بالتعاون في خدمته.

ومن خلال الحوار الأخوي علمنا كذلك أن للمركز نشاطا إسلاميا طيبا، فهو لا يدع مناسبة تفوته للدعوة إلى الله، والعمل في نطاق التوعية العامة، سواء عن طريق الرحلات أو التمثيليات أو المحاضرات.. وضمن حدود الإمكانات التي يتيحها النظام العام..

وأحب هذا الاستاذ أن يلقى علينا بعض الأسئلة ويسجل أجوبتها عن طريق الجهاز الذي

استحضر لهذه الغاية، وكان الوقت جد ضيق، فأجبناه على أن تؤخر ترجمة أجوبتنا إلى وقت آخر حيث يتولاه الأستاذ سراج أو سواه.

وعند مغادرتنا الندوة قدم إلى كل منا نحن الإثنين هدية للذكرى، هي مجموعة من منشوراتهم بالتركية، وطبق من النحاس المزخرف من صناعة البلد. ورافقنا مندوبهم إلى المطير، حيث استقللنا الطائرة إلى قبرس.

وقد بقي من حق استانبول عليَّ أن أشير إلى النشاط الضخم الذي ينهض به الإسلاميون، بالتعاون مع حزب السلامة في نشر الوعي الإسلامي، وبخاصة عن طريق التعليم وترجمة الكتب ذات القيمة العالية في تغذية الفكر الإسلامي الحديث..

ففي معاهد الأيمة والخطباء، وهي من آثار الشهيد عدنان مندريس، تحركٌ ملحوظ لتعميق الروح الإسلامي، وفيها يتخرج الطالب بعد أربع عشرة سنة من الدراسة ليكون إماما وخطيباً، أو ليلتحق بمعهد التخصص.. وقد سبقت الإشارة إلى واحد من معاهد خدمة القرآن الكريم، البالغة العشرات في استانبول وحدها، فضلا عن المدن الأخرى كبورصة وأزمير وانقرة وقونية..

وفيما أسلفنا من الكلام عن دار الحكمة للنشر والترجمة صورة سارَّة لنمو الثقافة الإسلامية.. عن طريق مُثالها من الدور..

وتعاونوا

وهنا أكرر أن معظم تكاليف المؤسسات التعليمية إنما يتم تأمينها على أيدي المحسنين من أهل الإيمان، وهي مهما بلغت تظل محدودة بالنسبة إلى حاجة النهضة الإسلامية الحديثة في تركية. ولا شك أن كل رفد يوجه إليها من أهل الإحسان الآخرين، الذين يهمهم أمر الاسلام هناك، يعتبر في قائمة الفضائل الجليلة.

ولا أرى أجدر بهذه المكرمة من ذوي اليسار في المملكة العربية السعودية، الذين أصبحوا مضرب الأمثال في السخاء على المشروعات الخيرية.

ذات يوم حدثني في مدينة الرياض أحد الإخوان الذي تخرجوا في جامعتنا الإسلامية، بالغريب المستطاب من هذا الكرم، فذكر عددا من الشواهد منها أن فلانا قد وقف أربعمئة مليون ريال من ثروته البالغة ألف مليون لبناء المساجد. وأن فلانا قد أوصى بثلث ثروته وهي أربعمئة مليون للغرض نفسه... وبمقدار ما سرتني هذه المعلومات تعجبت من حصر هؤلاء الفضلاء هباتهم في نطاق المساجد وحدها، وهناك مئات الملايين من المسلمين في العالم يتطلعون إلى أي معونة

تساعدهم على تحرير بلادهم من قيود المعتدين، وعلى إنشاء المعاهد التي تساعد على تثبيت الإسلام المهدد بالزوال في ديارهم..

أجل ان معاهد التعليم الإسلامي في تركية تتطلب العون الأخوي لتوسيع نشاطها، وتكثيف جهودها، وتكثير خريجيها، وتعميق ثقافتهم الإسلامية، ليستطيعوا الوقوف بقوة في وجه الزحف العلماني، الذي تتشبث به السلطات الحاكمة فيها من كلا الحزبين الكبيرين على السواء..

لقد قامت الجامعة الإسلامية ـ في المدينة ـ بجهد محمود في خدمة التعليم على مستوى العالم الإسلامي، ويؤمل أن توسع نطاق خدماتها بإحداث بعض المعاهد والكليات في مناطق نائية من ديار المسلمين كالفلبين وأندونيسيا وباكستان، وسيكون من الخير الكبير أن يشمل هذا النشاط تركية أيضا..

وهذا الذي نتوقعه من الجامعة الإسلامية نلتمسه أيضا من جامعة الإمام محمد بن سعود، والجامعات السعودية الأخرى.. كما نطالب بدعمه من قبل رابطة العالم الإسلامي، ودار الإفتاء وأهل الغيرة الإسلامية، من ميسوري المملكة في مكة والمدينة والرياض وجدة وكل بلد سعودي...

قال لنا بعض الإخوان في تركية: إن تشجيع الثقافة الإسلامية لا يدخل في مسؤولية الحكومة التركية المتقيدة بالمنهج العلماني الكافر، ولكن حاجتها إلى أموال المسلمين في السعودية ودول الخليج وغيرهما، تفرض عليها قبول كل توجيه يقربها من الإسلام.. كما حدث حتى الآن.

ومن هذا المنطلق نضم صوتنا إلى أصوات أولئك الإخوان بالتماس العون الكريم لمعاهد التعليم الإسلامي في تركية، سواء بالمال تساعد به المعاهد القائمة، وبخاصة معهد التخصص العالي في استانبول، أو بإنشاء كليات تدرس فيها علوم الإسلام الشاملة لكل نافع.. وكخطوة أولية في هذه السبيل انتداب عدد من كبار المدرسين الجامعيين للتدريس في معهد التخصص المشار إليه، للمساعدة على تعميق العربية في أوساط الطلبة والأساتذة، الذين يحملون أخلص الحب للغة القرآن...



في قبرس

كنا نتوقع أن نجد الأخ فاروق الزعبي، خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة، ومندوب دار الإفتاء إلى قبرس، بانتظارنا في مطير (لفقوشة) وهو الاسم التركي للنصف الذي احتفظ به المسلمون من مدينة نيقوسية، إذ كنا قد اتصلنا هاتفيا بمكتب المهندس الأخ حسين ايتاشين رجاء أن يبلغه موعد وصولنا، ولكن خاب فألنا إذ لم نجد أحداً يعرفنا هناك، وقدرنا أن ثمة خطأ في تحديد موعد الوصول هو الذي صرفه عن الحضور. فلم نملك إلا ركوب الحافلة الذاهبة إلى البلد، وفي موقف هذه الحافلة الخاصة بخط المطير، نزلنا ومن ثم امتطينا سيارة أجرة صغيرة إلى أول فندق.. فوقف بنا على (أوتيل صبري أوريانت) وهو فندق فخم الظاهر، ولا بأس بغرفه. وفي الحجرة التي خصصت لنا استرحنا بعض الوقت، حتى إذا حان موعد الإفطار هبطنا إلى الطابق الأرضي حيث جلسنا حول مائدة في مطعم الفندق ننتظر الغروب..

كان الجو على غاية من اللطف، وقد حدثنا صاحب الفندق بما فهمنا أنه يرق لأول مرة بعد موجة من الحر استمرت عدة أيام، ولما حان موعد الإفطار كانت المائدة عامرة بخير ما في مطعمه، وقد أكد على الخدم أن يواصلوا تعهدنا بما نطلب، ولعله كان يريد من ذلك أن نلزم نزله فلا نفارقه إلى سواه، والحق أنَّا لم نكن براضين عنه ولا عن نزله لأنَّا لسنا من الذين يسرهم منظر النساء المتفرنجات والكلاب، وهما أول ما استقبلنا من فندقه.. وها هو ذاك كلب آخر يطوف حول مائدتنا، بل يريد أن يتشمم ريحنا أيضا، ودافعته بعصاي ولكن عبثا، فالكلب حَفيٌّ بنزلاء الفندق، يريد أن يعقد معهم مودة، فغير يسير طرده إذا هو لم يقتنع بوجهة نظرنا، ولذلك استعدينا عليه صاحبه، فما هو إلا أن أشار إليه حتى انصرف مطأطئاً مستغربا..

وبعد الإفطار والصلاة خرجنا نتمشى ونتفرج، وكان على مقربة من الفندق معسكر يقف على مدخله جندي تركي، فما إن بصر بزينا حتى انبسطت أساريره واستقبلنا بتحية الاسلام، كدأب الأكثرين من الجنود الاتراك، الذين كنا نمر بهم في استانبول.. ولما عدنا أخبرتنا موظفة الهاتف أن فاروقا سأل عنا، وأنه قادم بعد قليل.. وما كدنا نستقر حتى وافانا ومعه ثلاثة من الشباب الأتراك لا يحسنون من العربية إلا مقدار ما أحسن أنا من التركية.. وقد صح تقديري إذ أعلمونا أنهم خرجوا لاستقبالنا في المطير بالموعد الذي عُمِّيَ عليهم. وطلبوا إلينا أن نسمح لهم بحمل

أمتعتنا إلى سيارتهم والانتقال إلى مسكن فاروق. فاعتذرنا، إذ لم يكن مستحسنا أن نغادر فندقا في هذا الوقت من المساء، بعد أن قضينا فيه كل هذه الساعات..

الإسلام الغريب

وفي صبيحة اليوم التالي صحبناهم إلى حيث أرادوا.. ولكن بعد أن اشترطنا على الأخ فاروق ألا يتكلف بسببنا أي شيء.. ولبثنا في هذه الشقة النظيفة الهادئة، على الرغم من كونها تحت مرمى مدافع اليونانيين المصوّبة إلى الحي التركي، كل الأيام السبعة عشر التي قضيناها في قبرس.

كنا نتوقع أن نجد الظروف المناسبة للخدمة الإسلامية في قبرس، ولكن.. سرعان ما خاب الأمل، إذ فوجئنا بما لم يدر في خَلَدنا قط..

كل ما في هذه الجزيرة جميل: الجبال، والسهول، والنسيم، والهدوء الذي لم نعرف له مثيلا خارج ترمال، فضلا عن توافر كل أسباب المعيشة الطيبة بأدنى التكاليف.. ولكن الإنسان وحده في هذه الجزيرة هو موضع الأسف..

ولقد اكتشفنا هذه الحقيقة منذ اليوم التالي لوصولنا، وذلك بعد جولة قصيرة في أرجاء لفقوشة، حيث شاهدنا المساجد شبه خاوية، وليس هناك أي دليل على حلول رمضان.. فإذا أذن للصلاة رأيت المصلين لا يكادون يُتِمون الصف الواحد من أي مسجد في أي من الصلوات الخمس.. على حين ترى الناس على أبواب المساجد يتسلون باللغو والتدخين، وبكل ما يدل على استخفافهم بحق الله في هذا الشهر المبارك..

هذا إلى انسلاخ النساء من أي صفة تدل على أن لهن أي علاقة بالإسلام.

ولقد شهدت الكثير من أشكال التكشف في العديد من بلاد المسلمين ولكنها دون ما أشاهده في قبرس.. ذلك لأن الزي الشائع للنساء هنا هو أن يبدأ الثوب من تحت الإبطين، ويترك ما فوقه عاريا تماما، بصورة تريك الأنموذج الذي حدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم وفيه (ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات... لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها...).

ولقد أخبرني زميلي الشيخ محمد شريف أنه دخل أحد الأزقة وهو في طريقه إلى المسجد في مدينة (جرنة) فإذا بالنسوة في البنطال النصفي، المعروف بالشورت... ولا حاجة إلى الظن بأن يكنَّ غير مسلمات، فليس في جرنة غير هؤلاء المحسوبين على الإسلام، اللهم إلا السُيَّاح، وهؤلاء لا يسكنون الأزقة طبعا، بل ينزلون الفنادق السياحية البالغة الفخامة، ولا تعدو أجرة الغرفة ذات السريرين فيها عشرة الدولارات..

كنائس استحالت مساجد

وصلينا عصر ذلك اليوم ــ١٣٩٩/٩/٢٨هــ في مسجد (أيا صوفيا) وهو أقدم مسجد معروف في قبرس، إذْ كان كنيسة على الإسم نفسه الذي بنيت له كنيسة أيا صوفيا في استانبول، وقد دخل في حوزة المسلمين قبل أربعة قرون منذ الفتح العثماني للجزيرة. وقد لاحظت الشبه الكبير بينه وبين الكنيسة الصليبية القائمة في الحديقة العامة بطرطوس ــسورية ــ لا يكادان يختلفان إلا في الحجم، إذ يضاهي بناء طرطوس خمسة أضعاف هذا البناء على الأقل. وقد شاهدت مسجدا آخر من الطراز نفسه والحجم نفسه في ميناء فاما غوستا ــالماغوسةــ المواجهة للبر السوري.. وكنا نسمع قديما من المتاجرين مع قبرس، أن في الماغوسة هذه مسجدا من نفس الشكل المميز لكنيسة (نوتردام) ــوهذا اسمها التاريخيــ التي في طرطوس، ويقع في الجهة المقابلة له تماما.

ويلاحظ بجانب مسجد أيا صوفيا الذي بدأنا الإشارة إليه بناء آخر على شاكلته، وليس بينهما سوى بضعة أمتار، إلا أنه خاو معطل ويظهر أن الخلل الحادث في بعض أجزائه قد برز منذ عهده الأول، فأهمل وبُنِي الآخر بجواره. وربما دلت على ذلك نوعية الصورة والزخارف الماثلة على واجهة كل منهما...

وقبيل الصلاة عرَّف الأخ فاروق بيننا وبين إمامه الشيخ حسن أفندي، وهو رجل أشيب بادي الطيبة، ويتكلم العربية جيدا، إذ كانت دراسته في الجامع الأزهر، ووجدنا في الشيخ فرصة طيبة لمخاطبة القوم، وعرضنا عليه رغبتنا في إلقاء بعض المواعظ على رواد مسجده، على أن يتولى هو ترجمتها إليهم.. فلم يرفض ذلك ولكنه أشعرنا بأن المصلين قليلون، وأن كثرة الناس بعيدون كل البعد عن الإسلام.. والغريب المؤسف أن الشيخ سرعان ما تنصل من رضاه هذا، وأعلن لزميلي عندما راجعه في هذا الشأن أنه غير مستعد لترجمة أي كلمة لنا، ويرفض أن يداولنا أي حديث عن الإسلام والمسلمين في هذا البلد. وكان هذا طبيعيا في وسط نسي شيوخه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومضينا إلى مسجد آخر في وسط البلدة، وهو أيضا كان كنيسة قبل الانقسام الأخير، فصارت بهجرة أصحابها إلى حوزة المسلمين الذين جعلوها مسجدا.

واتفق أن إمامه وهو فتى تركي من خريجي مدارس الأيمة والخطباء، كان يحدث الناس عقيب صلاة المغرب ببعض أخبار السيرة النبوية، وقد وقف غير قليل من كلامه على الصحابي الجليل أبي طلحة. والظاهر أنه كان يعرض لسخائه في الله، حيث تصدق ببستان (بيرحاء) وهو أفضل ماله، استجابة لأمر الله الذي يقول (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له..) ولكن المؤسف أن مستمعيه كانوا على جانب من القلة كبير ــإذا صح التعبيرــ وبعضهم من الشيوخ.

ولما حانت صلاة العشاء لم ينتقلوا من القلة إلى الكثرة... وكأنه لاحظ استغرابنا لهذا المنظر، فجعل يعتذر إلينا عقب الصلاة بأن الاستعمار الإنجليزي قد أثر على سلوك الناس فانصرفوا عن الدين إلى الدنيا.. ولكن الأمل لم ينقطع بعودتهم إليه..

وتحدث زميلي الشيخ شريف إلى الحضور بكلمة عامة عن طريق الفتى الإمام أعلن في ختامها أن لي معهم لقاء بعد الظهر من كل يوم..

وعقب صلاة الوتر وتلاوة الأذكار المعهودة، انتصب الشيخ وتحلق القوم حوله يتصافحون، ثم يترنمون معاً بالصلاة على النبي.. وأبوا إلا أن نقف معهم على جانبي الإمام، ولدى انتهاء الترنيمة دعانا المؤذن. وهو شيخ رضيّ كما يبدو، إلى الجلوس قليلا على رصيف دكانه القريبة. وهناك قدم إلينا بعض الشراب، وتداولنا بعض الحديث مباشرة وبالترجمة.. وفي عصر اليوم التالي قدمنا المسجد للوفاء بالوعد إلا أننا لم نجد اللسان الذي يترجم بيننا وبين القوم، لأن الفتى الإمام، وهو الوحيد الذي يحسن بعض العربية هنا، لم يحضر الصلاة..

وكنا قد علمنا أن الشيخ حسن ـ إمام أيا صوفيا ـ قد غادر البلدة إلى قريته وسلم مهمته إلى زميله الآخر الذي يقاسمه أيام الإمامة، فيكون كل من الإثنين إماما لمدة أسبوع.

فتوجهنا إلى المسجد الآخر لصلاة الجمعة ونحن نتوقع لقاء الشيخ التركي، الذي نرجو أن ييسر لنا سبيل الحديث عقب الصلاة.. ولكن عبثا، فقد حان موعد الصلاة ولم يقدم، فجاء المؤذن يطلب مني باسم الحضور أن أقوم بالخطبة والصلاة لأن الشيخ قد سافر إلى تركية ليقضي أيام العيد بين أهله...

قلت مستعيناً بالقليل من الكلمات والكثير من الإشارات إني لا أتكلم التركية، فأكد أن المقصود هو البركة...

واستعنت الله، وألقيت خطبة الجمعة، ولكني أكثرت فيها من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، لأنهم يفهمون معني قولك: قال الله تعالى، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. هذا إلى أن في كلمات الوحي سرا يلمس القلوب ويحرك الضمائر، وإن لم يفهم السامع منها حرفا..

العصبية تؤخر العيد

وقضينا ذلك اليوم ومساءه نرقب موضوع العيد، وكنا نتوقع أن يكون رمضان قد ولى برعاية الله. وصح حدسنا فأعلنت إذاعة المملكة وغيرها نهاية الصوم ودخول ليلة العيد. فأصبحنا مفطرين، وبكرنا نريد أن نشارك المصلين في عيدهم، وننتهز تلك الفرصة التي لابد أن تجمع

الكثيرين من السكان، لنقول لهم بعض ما ينبغي أن يسمعوه مما لم يعتادوا استماعه من التذكير باخوة الإسلام، وما هم أحوج إلى أن يعرفوه من حقائقه الأولية.. ولكن سرعان ما خاب فألنا أيضا، إذ وجدنا المساجد خاوية على عروشها. وفي مسجد (عرب جامعي) وهو من أجمل مساجد لفقوشة ألفينا الرجل، الذي يقوم بمهام الإمام والخطيب والكناس، قائما ينظف مفارش المسجد، ولا أحد معه.. فسألناه عن (البَيرم) ــ العيد ــ فنفى وصوله إلى الجزيرة. ثم علمنا أن القوم ملتزمون سبيل تركية وهي لم تبال بشهادة كل ما حولها من العالم الإسلامي، على الرغم من اشتراك ممثليها في كل مؤتمر باسم الإسلام!..

ولا غرابة في ذلك فالعصبية القومية هي التي تشد قبرس إلى تركية فتلزم طريقها حذو القذة بالقذة. هكذا فعلت بالحرف العربي إذ ألغته من حياتها بمجرد إلغائه في تركية، وهكذا صنعت بالتعليم الإسلامي، إذ أقصته عن مدارسها متابعة للعصابة الكمالية، وها هي ذي أصنام الطاغية الدونمي تُزرع في كل ساحة من قبرس، حتى ساحات المساجد، وقد تكون قبرس بريئة من هذه الجريرة إذ تكون الأصنام قد شحنت من تركية، ونصبت هنا وهناك دون علمها. ولكن ما بال خطيب (يني جامع) ــ الجديد ــ وهو الذي جددت رابطة العالم الإسلامي منارته، وحضر تدشينها معالي أمينها العام بنفسه، ما باله يرفع، في خطبة كل جمعة أكف الدعاء للطاغية عدو الإسلام والمسلمين!..

ولم نتشرف برؤية هذا الإمام الخطيب، ولكن وصفه لنا بعض الإخوة الأتراك بأنه حليق ومتختم بالذهب وماسوني...

فمجرد العصبية التركية إذن هو الذي ألزمهم تأخير العيد إلى الجمعة على الرغم من شهادة الأقطار الإسلامية الأخرى بدخول أول أيام شوال يوم الخميس..

وهنا يراودني سؤال: لقد تحرك الضمير الإسلامي في تركية، فهو اليوم يغلي نقمة من الإلحاد وأهله، ويمتلىء أملا بالعودة إلى رحاب القرآن.. فلم لا تتفاعل صدور القبرسيين بهذا الروح الجديد الذي يشرق عليها من الوطن الأم؟.. انه لعجب أن يسرعوا في الاستجابة لدواعي الزيغ والانحلال.. ويبطئوا بل لا يتقدموا خطوة في الطريق الذي يسلكه اليوم شباب الإسلام الحي في تركية الجديدة؟..

والحق أن الاستعمار الإنجليزي قد سجل أكبر انتصاراته في هذه الجزيرة، حين استطاع أن يصرف معظم مسلميها عن عبادة الله إلى عبادة المادة، تلك الديانة التي تتجلى اليوم في خراب بيوت الله، وعمران أندية الماسون والموسيقى والمسابح المختلطة في قبرس المسلمة، وفي ذلك التطاول بإنشاء القصور في كل مكان، على الرغم من أن العدو يحيط بأهلها من كل جانب، بل على الرغم

من قرب عهدهم بغارات الروم التي ذهبت بالآلاف من إخوانهم، والتي أتت على السكان كلهم في بعض قراهم... ولو لم يتداركهم الله برحمته، فينجدهم بأولئك الجنود البواسل من مؤمني الترك لكانوا اليوم أثراً بعد عين.. ومع ذلك لا يتوبون ولا هم يذّكرون....

هل ثمة أمل بالإصلاح

وأتوقع هنا أن يسألني سائل: أليس ثمة من حركة إصلاحية ينهض بها بعض أولى الحجى والدين؟...

ولهذا السائل أقول: إذا كان الإصلاح الذي تريده من عامةالناس فلا مطمع به، لأن هؤلاء مشغولون في سباق الحاجات والشهوات، وقد ألِفوا ما هم عليه فلا قدرة لهم على التفكير في تغييره.. وحسبك دليلا على ذلك أن العام الماضي لم يشهد من **قبرص** سوى حاج واحد. ويقال إن رجلا آخر يتهيأ لشهود الموسم القادم، وما أدري إذا كنت قد حدثتك أن ندرة المصلين أدت إلى تعطيل بعض المساجد، وقد حول أحدها مركزا لعقود النكاح المدنيّة ـ على الطريقة الكمالية ـ والعجيب أن الحكومة الليبية قد تولت إنشاء مسجد أنيق ومركز فخم بجانبه، على بعد غير قليل من لفقوشة، ولعلها قد كلفاها الملايين. ولكنها كالتحفة الملقاة في الصحراء، لا تجد الإنسان الذي ينتفع بها. فكأنها بُنيا لينظر إليها من بعيد.. وكان خيرا من إقامتها في تلك البقعة الخالية القصية إنشاء معهد لتعليم العربية والإسلام في قلب البلد. وما أرى إمكان الانتفاع بها على ما هما عليه إلا بأن يحول المركز إلى معهد، وتخصص له حافلة تنقل الطلاب إليه ومنه، ويزود بالمدرسين وبكل ما يتطلبه مشروع كهذا على نفقة الحكومة الليبية.. وإلا فيالَضَيعةِ أموال المسلمين!..

قلت: لا مطمع بالإصلاح يأتي من عامة الناس، ولابد أن تتهيأ لهذه المهمة مؤسسات حكومية أو جمعيات شعبية.

وفي قبرص المسلمة مؤسسة لرعاية الشؤون الدينية على رأسها مفتٍ..

وفي قبرص المسلمة أيضا جمعية بل جمعيات، كل منها يحمل النسبة إلى الإسلام..

أما سماحة المفتي فلم نسعد بلقائه لأنه كان كما قيل لنا في رحلة طويلة في أوروبة واسترالية، وما أدري أين أيضاً... يتفقد خلالها شؤون الجاليات التركية، ويمدهم بما ينفعهم من المعلومات!. وقيل لنا كذلك إن هذا دأبه في كل عام وفي مثل هذه الأيام.. وهو يقوم بهذه الجولات على نفقة إحدى المؤسسات الإسلامية المعروفة، ولا علم لنا إذا كان ثمة من يتولى تقييم عمله، والفوائد التي يحققها من هذه الرحلات المديدة..

على أن الشيء الوحيد الذي علمناه هو أن ليس لسماحته في الجزيرة من أثر مذكور، اللهم إلا عند الذين ينالهم نفعه.. وما سألنا عنه أحدا من القليلين الذين يهمهم أمر الإسلام إلا كان جوابه الابتسام الذي يحمل الكثير..

وأما الجمعيات فهناك ثلاث، كانت مجتمعة ثم تفردت، باقتراب موعد المخيم الإسلامي، الذي تقررت إقامته في المنتجع الواقع بين لفقوشة وجرنة..

وقد علمنا أن إحدى هذه الجمعيات، وهي التي تفرغت للإتصال بمسؤولي المخيم، قد نقلت حصتها من الأثاث والأمتعة إلى مدينة جرنة ــ السياحية ــ ورأينا القاعة التي اتخذتها مقرا لها، وهي عبارة عن فصل معد للدراسة، تلقى فيه بعض الدروس في القرآن والعربية يوما أو بعض يوم في الأسبوع.. ومن أجل ذلك يتقاضى أحد الرجلين المشرفين عليه، واسمه صيدام، ثمانمئة دولار من مصلحة الشؤون الدينية بالكويت ــ كما أخبرني بعض العارفين ــ على أن يتفرغ للدعوة، ولكنه لم يفعل وفضل أن يظل محتفظا بوظيفته في إحدى الشركات مع مشاركته في الإشراف على تلك الجمعية. والغريب العجيب أن صيدام هذا هو الذي يتولى توزيع جريدة (بيوك غازيتة) التركية، التي قلما يخلو عدد منها من الطعن على دعاة الإسلام وتسمية أفكارهم، التي تحرك البعث الإسلامي الحديث على امتداد العالم الإسلامي، بالمهلكات المخربات... ولعل السيد صيدام هذا ومن معه يجدون في إشاعة مثل هذه السموم منفعة لهم إلى جانب المنافع الأخرى التي تتيحها لهم علاقاتهم بالجهات الإسلامية، التي تحسن بهم الظن، فتمدهم بالعون الكريم، ثم صلتهم بالمشرفين على هذه المخيمات الإسلامية التي بدأ قيامها منذ العام الماضي..

وهناك جمعية أخرى تجمع ــ فيما قيل لنا ــ قرابة العشرين طالبا يرأسهم فتى قبرسيّ تخرج حديثاً في إحدى جامعات لندن، والظاهر أن له نشاطا محموداً، ولكنه يفضل البقاء مع جماعته بعيداً عن مواطن الاستغلال.

مشروع مبارك

ثم هناك أيضا جماعة من التجار وذوي الحس الإسلامي، هي التي ظلت تقيم اجتماعاتها في مكتب المهندس السيد حسين ايتاشين، الذي كان مركز الجميع قبل انقسامهم، وقد قدر لنا لقاء هذا الرجل أكثر من مرة، فألفينا في مظهره الرصين، وتحقيقه للسنة بإعفاء لحيته، ما لم نلقه في غيره هنا. وعلمنا منه عن طريق معلوماتناالتركية الضعيفة، وعربيته المتعثرة، أنه قدم طلبا للالتحاق بالجامعة الإسلامية رجاء تغذية عربيته، ولأن في عزمه القيام بمشروع تعليمي لنشر العربية وتدريس الإسلام، يبدأ بروضة للأطفال، ومعه في الوقت نفسه قسم لتعليم القرآن وتحفيظه، مع تزويد

الطالب ببعض المبادىء الأساسية في اللغة العربية، على أن يقبل بهذا القسم تلاميذ المدارس الرسمية المعزولين تماما عن العربية والإسلام في برنامج مسائي.

ولقد أعجبنا هذا التفكير العملي القائم على أصول ليست بعيدة عن المنهج الهندسي.. وزادني تقديرا له موافقته لما سبق أن تحدثنا به أنا وزميلي، إذْ قررنا أن خير ما يمكن عمله لمصلحة المسلمين في هذه الجزيرة هو إحداث بعض المدارس الخاصة تدرس فيها العربية والدين إلى جانب المواد العصرية التي تتطلبها المناهج الحكومية.. ولهذا أسرعنا في تشجيعه على البدء بالمشروع، وأجرينا حساب التكاليف الأولية فلم تتجاوز نصف مليون ليرة تركية توزع كما يلي:

ل	ت	
٠٠٠	١٢٠	أجرة الدار الصالحة للمشروع
٠٠٠	٢٤٠	أجرة معلمتين تُستقدمان من تركية
٠٠٠	١٠٠	تأثيث الدار
٠٠٠	٤٦٠	
٠٠٠	٠٤٠	احتياطي للطوارىء
٠٠٠	٥٠٠	الجملة

وهو مبلغ على كثرته لا يزيد عن ٣٥ ألف ريال سعودي..

وفي حواضر المملكة ولله الفضل آلاف من المحسنين لا يتردد أحدهم أن يتولى تسديده كاملا ابتغاء مرضاة الله.

وقلنا للأخ حسين: لا ينبغي تأخير العمل لانجاز المشروع وإعداده لاستقبال التلاميذ ابتداء من مطلع العام الدراسي الوشيك.. فادعُ اخوانك للبحث في شأنه، واجمعوا منهم ما يؤمن الشروع فيه، ولك علينا أن نبذل جهدنا لتأمين المساعدة اللازمة له لدى دار الإفتاء ورابطة العالم الإسلامي.. وغيرهما من المحسنين. وقلت له: إن للمشروع علي وعلى ولديَّ خمسين ألف ليرة نحولها إليكم فور التحقق من مباشرتكم إياه. وأسرع زميلي الشيخ محمد شريف فنفحه مئة دولار لافتتاح العمل.. وها نحن أولاء ننتظر رسالة من الأخ فاروق —مبعوث دارالإفتاء— لنقوم بتأدية ما علينا، ولنعرض الأمر على سماحة الشيخ بن باز ومعالى الشيخ محمد على الحركان.

وقد جرى هذا الحديث قبيل عودتنا إلى استانبول. فلما قدم الأستاذ لوداعنا بشَّرنا بأنه اجتمع

إلى بعض إخوانه فسروا بما توصلنا إليه، وأظهروا استعدادهم للقيام بما عليهم. وهناك أفراد من الجماعة خارج الجزيرة في تجارة لهم، وهم ينتظرون عودتهم للمباشرة بالعمل إن شاء الله.. وهكذا وجدنا في هذه الجزيرة من يهتم بأمر الإسلام، وقد أدرك كما أدركنا أن الطريق من هنا يبدأ.

وقبل أن أدع حديث الجمعيات إلى غيره أحب أن استدرك ما فاتني ذكره من قبل، وهو ما علمته عن طريق الأستاذ حسين أيضا من أن في بعض بيوت الجزيرة بقايا من أخلاق الإسلام تنافي ما يبدو على النسوة المتكشفات من تبذل، فوراء تلك الأصداف لآلىء لا يغادرن خدورهن إلا للضرورة القصوى، وهن يحتفظن بالحجاب الإسلامي على أتمه. ونحن عندما عرضنا للواقع المؤسف إنما صورنا ما نراه وليس لنا أن نتحدث عما لا نرى، وما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين.

لقاء في المخيّم

مرت الإشارة إلى المخيم الإسلامي –الثاني– المقام في ما بين لفقوشة وجرنة– و يتألف هذا المجمّع من سبع مقصورات مستقل بعضها عن بعض، جمعت بين البساطة والجمال، وقد أنشئت في الأصل –كما أخبرنا بعض العارفين– لتكون منتجعات سياحية، يأوي إليها الراغبون في الحياة الشاعرية، إذْ تجمع بين الجبل والشاطىء، فهي مراحٌ ومسبح في الوقت نفسه. وقد رأى المسؤولون الرسميون في الشطر الإسلامي من الجزيرة أن من مصلحتهم اجتذاب التجمعات الإسلامية إلى الجزيرة، لتقوية مركز المسلمين سياسيا، ولتعويضهم بعض ما فقدوه بالانفصال اقتصاديا. وهكذا تم الاستئجار الرمزي لهذه الأبنية من قبل الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجهزت بما يتطلبه حلول الوافدين إليها من الشباب في كل صيف، فنصبت فيها الأسرة المعلقة كل سرير وفوقه آخر، فكان في كل مقصورة ثمانية عشر سريرا، مفروشة بأحسن البياض..

لقد علمنا بأمر هذا المخيم في استانبول، وكانت قبرس ضمن مخططنا، فوجدنا في قيامه هناك فرصة للمشاركة في التوجيه الإسلامي، ولذلك عمدنا إلى زيارته في اليوم التالي لوصولنا –٢٨/ ٩/ ١٣٩٩هـ– ولم يكن فيه أحد سوى الحرس و بعض العمال يجهزون بعض المرافق، ولقينا هناك الأستاذ عبدالفتاح عفيفي، والأستاذ عوض... و بعد قليل قدم نحونا الدكتور محمود الشاوي، الذي كان ينزل مع أهله إحدى المقصورات بصورة مؤقتة، ومعه أستاذ في التربية وعلم النفس..

وتداولنا الحديث في مختلف الشؤون، وعرض الدكتور محمود بعض اقتراحاته النافعة لخدمة الشباب أثناء هذا التجمع.. ثم انصرفنا إلى منزلنا في لفقوشة، وتركنا لهم الأخ فاروقاً يمدهم بمالا يستغنون عنه من العون..

وقد شرعت أفواج الشباب تتوافد من السعودية ومصر، وكان المنتظر أن يتكامل عقدهم بوصول اللبنانيين والأتراك والأوربيين، ولكن هؤلاء تأخروا لعوائق لا نعرف إلا أقلها. وزارنا الدكتور محمود مع الأستاذ عوض في منزلنا، ولما همّا بالانصراف أكد الدكتور على حضورنا، وخشيت أن يكون في ذهنه أني وزميلي من أعضاء المخيم، ولاسيا بعد أن قال لي أثناء حوارنا، السابق: (لقد أفلتَّ من أيدينا فلم تشارك في بعثة الفيلبين ولا غمبية لدورة هذا الصيف، وها أنت ذا تقع اليوم في أيدينا لمخيَّم قبرس..) فأوضحت له عذري الذي حال دون مشاركتي في دورة الفيلبين أو غمبية، وهو يعود إلى سبب صحي.. وقلت: إننا على أتم الاستعداد للقيام بأي خدمة تكلفوننا بها هنا.. واستدركت على كلامه بصراحة قائلاً: نحن لا علاقة لنا بالمخيم، ولكننا مستعدون للمشاركة في أي نشاط تعهدون به إلينا..

وغادرنا وهو يصر على حضورنا. وفي اليوم التالي جاءتنا سيارة المخيم يقودها الأستاذ عوض فحملنا إليه، وقدمني الأستاذ عبدالفتاح عفيفي لصلاة المغرب، وعقيب الصلاة وفي سرادق الطعام طلب إليَّ أن أوجه كلمة إلى الشباب.. ففعلت، وأقبل هؤلاء بعدها يطرحون أسئلتهم المختلفة وفيها المفيد الواعي، فأجبت عليها بما فتح الله. ولاحظت أن بعض الشباب قد فوجىء باسمي، فسألني: أأنت صاحب الكتب والمقالات والمجموعات القصصية؟ وكان ذلك شيئاً ساراً بالنسبة إليَّ، لأني وجدت أن لي قرابة روحية وفكرية مع هؤلاء الذين لم أرهم من قبل.. بل إن مجرد اهتمامهم بآثاري يعني أنهم من ذوي الاتجاه الإسلامي السليم، وهي الأخوَّة التي أبرمها الإسلام بين كل المؤمنين به، على اختلاف لغاتهم وهيئاتهم وأزمنتهم..

وكان علينا أن نبيت في المخيم تلك الليلة وحتى إذا حانت صلاة الصبح قُدِّمتُ أيضا إليهم، وطلب إليّ إلقاء كلمة مناسبة ففعلت.. وهكذا استمر وجودنا مع أولئك الإخوة ثلاث ليال بأيامها، وقد ألِفَنا الشبابُ وألفناهم، حتى جاءني الأخ الفاضل الشيخ عوض ذات مرة يقول: إن الشباب تعلقوا بك فنرجو ألاّ تفارقنا.. وأعدت له التوكيد إنه لما يسرنا أن نقوم بأي جهد في مساعدتكم على خدمتهم...

وجاء يوم الجمعة وقد قررت إدارة المخيم أن يؤديها الجميع في أحد مساجد الجزيرة وفي الساعة المعيّنة انطلقت الحافلتان بالجميع إلى قرية (كوز يل يورط) ونزلنا عند مسجد كتب عليه باللاتينية اسم (الفاتح) ولما حان موعد الصلاة جاء الإمام ومن معه فقدموني للخطبة، فذكرت لهم جهلي التركية، ولكنهم أصروا مرددين قولة جماعة مسجد الشهداء في لفقوشة: المقصود البركة...

خطبة الجمعة

ومن أعلى المنبر المجلَّل بالعلم التركي أدرت البصر في الحضور فقدرتهم قرابة المائة، ولكن القبرسيين فعلا لا يزيدون على ــ١٠ــ ١٥ــ والباقون كلهم من أهل المخيم.. ثم نظرت خارج

المسجد فشاهدت الناس ذاهبين آيبين فرادى وجماعات، ولا أحد منهم يلتفت إلى المسجد.. وتذكرت كذلك الرجل الذي أوقفني على باب المسجد ليقول لي بلسان عربي انه مستعد لترجمة كلامي.. فشكرت له تطوعه، ودعوته إلى الصلاة ليكون ترجماني هناك.. فلم يحر جوابا ومضى لسبيله..

هناك تفاعل قلبي بمشاعر الأسى، ووجهت خطبة الجمعة إلى الشباب العرب بوجه خاص، لأشركهم بذكرياتي عن هذه الجزيرة، وعرضت لي في هذه الغمرة كلمة سيادة الرئيس دنكتاش لمكاتب مجلة الاعتصام القاهريّة يحدد تاريخ الإسلام في هذه الجزيرة بالعام ١٥٧١م، وهو تاريخ استعادة الجيش التركي للجزيرة من قبضة الاحتلال الرومي، فآسفني أن تغلب العصبية على لسان سيادته، فينسى أن تاريخ الإسلام في الجزيرة قد بدأ قبل أربعة عشر قرنا، على يد الفوج الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم الأنصاري الخزرجي عبادة بن الصامت، والصحابية الجليلية أم حرام، التي لا يزال قبرها ماثلا في القسم اليوناني شاهدا على هذه الحقيقة..

ومن هنا انطلقت إلى الكلام عن الجزيرة، وذكّرت الشباب بالسفينة الأولى التي خاضت هذا البحر لنشر كلمة الله هنا، ثم في ما وراء هذه الجزيرة من جزر المتوسط الأخرى، ومررت بلمحة على تاريخ الجزيرة وكيف تداولتها الأيدي خلال القرون التالية، فكانت رمز استقامة المسلمين وغفلتهم على السواء، فهي بأيديهم ماداموا أقوياء في طاعة الله، وهي في أيدي خصومهم كلما أغفلوا واجبهم وانصرفوا إلى المعاصي.

ولفت أنظارهم إلى واقعها الراهن وكيف تسربت إليها خلائق الضالين والمغضوب عليهم من الصليبيين واليهود، فإذا أهلها نسخة من انحرافاتهم الغالبة، وها أنتم أولاء ترون إلى قلة مصليهم حولكم، وكثرة عصاتهم في كل مكان، وقد شهدتم استخفاف معظمهم بحرمة رمضان حتى لا يرون حاجة إلى التخفي بإفطارهم عن الأعين لأنهم يشكلون السواد الأعظم من السكان، ولأن شعار الإسلام الأبدي، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد انطمس لديهم.. فأصبح لا عين ولا أثر.. وقد جاءتهم نذر الله بما تعرضوا له من محن رهيبة على أيدي اليونانيين، الذين ضيقوا عليهم منافذ الحياة، فأهرقوا دماءهم، ودمروا مساجدهم، وكادوا يأتون عليهم، لولا أن استجاب الله ضراعات أبريائهم من أطفال رضّع وشيوخ ركّع، فأنجدهم بالمغاوير من جنود الإيمان، زحفوا على العدو تحت شعار (لا إله إلا الله) فكفوا عنهم شره، وردوا عنهم غاراته الدامية، فرجع إلى حدود لا يزال يراقبها المنقذون المؤمنون ليل نهار... ومع ذلك لم تزدهم تلك المحن إلا إيغالا في الإعراض عن الله، وكأنهم نسوا إن العدو الذي أنزل بهم الفجائع بالأمس لا يزال يتحين الفرص لاستئصال

شأفتهم... وهم لو تدبروا أمرهم لأيقنوا أن لا مفرَّ لهم من الله إلا إليه، وأن لا سبيل لهم إلى البقاء في هذه الأرض إلا بمقدار اعتصامهم بطاعة مالك السموات والأرض...

وتساءلت : ما السبيل إلى تدارك الخطر المهدّد لهذا الجزء العزيز من وطن الإسلام؟.. أندعه لذنوب أهليه حتى نفقده إلى الأبد؟.. أم ننهض بمسؤولياتنا نحوه، فنساعدهم على واقعهم، ونأخذ بأيدي صغارهم إلى طريق العزة والنجاة؟..

إن من أهم الخدمات التي يستطيع المسلمون تقديمها لاستبقاء الإسلام في هذه الجزيرة التربية والتعليم على أسس الإسلام.. فلو أمكن إقامة معهد من هذا النوع في كل مدينة من هذه الجزيرة، لضمنا تكوين جيل قمين بتغيير واقعها، وقيادتها إلى التي هي أحسن خلال عشرين سنة بتوفيق الله.. وليس تحقيق ذلك بعزيز على الهمم العالية والإرادة الراغبة في مرضاة الله.. وان في المملكة العربية السعودية، وفي أخواتها من دول الخليج، من هذه الهمم الكثيرَ ولله الحمد، ومن تلك الإرادات المتجهة إلى الخير ما هو بكل مأثرة جدير إن شاء الله..

فاحملوا أيها الشباب في قلوبكم هذه الفكرة الصالحة إلى آبائكم ومعارفكم، واعملوا كل ما بوسعكم لإقناعهم بهذه الحقيقة، عسى أن يحقق الله بكم الخير المنشود، فيكون لكم وللمستجيبين لكم الأجر الجزيل الموعود إن شاء الله. (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون).

من تاريخنا القريب

وفي الخطبة الثانية تحدثت عن أثر الاستعمار في تغيير الناس، فقبل سبعين سنة فقط كانت الصلة على أتمها بين البر الشامي وقبرس، وبخاصة في الأعمال التجارية، وقد يسر هذا التواصل بين الفريقين الأخوين وسيلة التفاهم، فاللغة العربية مفهومة هنا في جميع الأوساط، لأنها لغة القرآن الذي تنتشر مدارسه في كل مواطن المسلمين، وكذلك اللسان التركي يحتل منزلة اللغة الثانية، فلا يكاد يجهلها أحد.. وفجأة انطلقت ألغام التخريب الماسوني اليهودي على أيدي ملاحدة الاتحاديين في عاصمة الخلافة استانبول، فثارت النعرات العصبية تتسابق في ميادين الكيد، وأعقب ذلك إلغاء الخلافة على أيدي أعداء الإسلام الظاهرين والمستترين، وتبع ذلك ما نحسه من هذه القطيعة بين الشعبين التركي والعربي، فالعربية باتت غريبة عن تركية وقبرس، وقد نُفِيَ حرفها الجميل عنها ليحل مكانه الحرف اللاتيني رمز الاستعمار والوثنية، وعُزِل التعليم عن منابع الوحي، ليتخرج الجيل الذي أضاع هويته الإسلامية.. وهكذا فتحت السدود لتتدفق من ورائها سيول السموم الغربية.. وما هذا الانصراف الرهيب عن جادة الإسلام إلا واحد من نتائج تلك

الغزوة الشرسة التي شنتها الصليبية الحاقدةو ومن ورائها اليهودية الماكرة، على الفضائل التي حَصَّن بها الإسلام قلوب المؤمنين، فكانوا بها خير أمة أخرجت للناس..

على أن مما يسترعي الانتباه هو ما نجده من الفروق الشاسعة بين الشعب التركي في تركية الأم، وفرعه التركي في قبرس، فبينما نرى الدفع الإسلامي يكوّن بذور التغيير الصاعد في تركية، حتى لنستيقن مطمئنين إلى أن تركية عائدة إلى أحضان الإسلام قريبا بمشيئة الله، نواجه هنا الضد من ذلك، إذ لا نكاد نستشعر أي تحرك إسلامي صحيح، لولا فئة لا تكاد تؤلف أكثر من نسبة ضئيلة من مجموع سكان الجزيرة.. إلا أنها على قلتها تشكل القاعدة الأصيلة التي سيتحقق بها التغيير المنشود، إذا لقيت العون الصادق من أصحاب الغيرة الإسلامية في البلاد التي يهمها أمر الإسلام..

وأنتم ياشباب الإسلام، الذين ستحملون أعباء المسؤوليات في مستقبله لابد لكم أن تسهموا في عملية الإصلاح الواجبة لهذه الجزيرة، فانقلوا أحاسيسكم إلي ذويكم، وانشروا الدعوة لمساعدة العاملين المخلصين من الأتقياء الأخفياء في هذه الجزيرة، وبذلك تحققون بعض ما للإسلام عليكم من حقوق.

(والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه).

نزعات إقليمية

وكان المسؤولون عن المخيم قد قرروا أن يكون الغداء في ظلال إحدى الغابات المنتشرة في أحضان الجبال.

وبإزاء مجموعة من الأشجار السامقة الباسقة وقفت بنا الحافلتان، فانتشرنا في الأفياء، واجتمع إلينا فريق من الشباب يسألون ونجيب في تفاهم سعيد. وبعد أكثر من الساعة وصل بعض الأساتذة من مصر. أول ما واجهنا منهم الدكتور عبدالحميد أبو سليمان، رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، فنهضنا لاستقباله، وفسحنا له بيننا، ولم أكن أعرفه شخصيا إلا أن تعارفنا سبق في الغيب، فهو يقول إنه يعرفني من خلال ما يقرأ لي، وأنا أعرفه عن طريق زميلي السابق في الجامعة الدكتور عبدالجليل شلبي، الذي كان إمام المركز الإسلامي بلندن قبل وفوده إلى الجامعة. فقد قال لي ذات يوم: إن اثنين من الطلبة السعوديين في لندن ما كان لتفوتهما ركعة من التراويح معه في رمضان، وكان ذلك يكلفهما عدة جنيهات أجور الانتقال كل ليلة، هما عبدالحميد أبوسليمان وحسن باجودة ــ في جامعة الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة ــ ومن هنا كان حبي لهما في الله عن ظهر الغيب..

وانضم إلى مجلسنا بعض الأساتذة من مسؤولي المخيم، وكان بينهم رجل لا أذكر أني شاهدته من قبل، فسلم وصافح الحضور وصافحته مثلهم، ثم أخذ في حديث يدل على أنه قادم من مصر.. وكان طبيعيا أن تلقى عليه بعض الأسئلة، ومنها سؤال مني.. ولكن أجوبته لم تكون سواء، فهو يكلم المصري ناظرا إليه، فإذا كلمني وجه بصره إلى الأرض.. فلم أعبأ باديء الأمر بذلك، ولم أحاول تفسيره.. وبعد وقت علمنا أنه يدعى، سليمان حجر، وأنه الذي عهد إليه بإدارة المخيم الذي سبقه بأسبوع..

وصلى المغرب بالناس ذلك المساء الشيخ عبدالفتاح، وعقيب الصلاة تكلم الأستاذ سليمان حجر عن نظام المخيم، وما على الشباب أن يلتزموه من صفات الانضباط والتعاون.. وكانت كلمة قصيرة ومركزة، وتنم عن شعور بالمسؤولية الإدارية. وكان من المتعذر سفرنا ليلا إلى منزلنا في لفقوشة لفقدان السيارات، فاضطررنا للمبيت هناك للمرة الرابعة، وبعد لأي أرشدونا إلى حجرة مناسبة في الغرفة التي اتخذوها للإدارة، وقد أنزلوا في غرفة مجاورة لها مجموعة من الأحداث لم يفتروا عن اللغو إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ولما تعبوا من اللغو جعلوا ينبحون، فلم يسعنا إلا أن نقوم لتنبيههم، وبعد إلقاء التحية عليهم سألتهم إن كانوا يأذنون لنا بالنوم.. فاستجابوا جزاهم الله خيرا.

وعند الفجر قدمني الشيخ عوض للصلاة وهمس في أذني برجاء أن أوجه للشباب كلمة في موضوع الإخوة الإسلامية.. وفهمت يومئذ أن خلافا إقليميا نشأ بين الشباب فأراد الاستاذ أن نعالجه بما يناسب.. وهكذا كان، وقد وفقني الله إلى العلاج الناجح بكلمة انتزعت مضمونها من صميم السيرة النبوية المباركة، المتضمنة الدواء والشفاء بفضل الله.

وفي ضحى ذلك اليوم وضعت يدى على السر في استكبار السيد سليمان حجر. فقد ذكر أحد الإخوان للشيخ العفيفي نَصَبَ ليلتنا مع أولئك الجيران من الأحداث فكان جوابه: وما شأن هذين الشيخين بنا، ومن دعاهما!... وكبر على ذلك الأخ أن يسمع مثل هذه الإساءة إلينا، وهو الخبير بملابسات وجودنا هنا، فلم يلبث أن جاء بالشيخ عوض وقال له أمام الشيخ العفيفي: هذان الرجلان.. من تولى دعوتها إلى المخيم؟.. فأجاب: نحن دعوناهما لمساعدتنا في التوجيه.. فجزاهما الله عنا كل خير.... وسكت الشيخ العفيفي مكرها تلقاء هذا التصريح.. ولكننا أدركنا إذ ذاك أنه لم يكن بعيدا عن موقف سليمان حجر منا أثناء الغداء، فالمتوقع أن يكون العفيفي قد بادره بما في نفسه نحونا، وأن يكون قد أثار عصبيته الإقليمية بخاصة عند ما ذكر له أن ثمة شيخا شاميا يلتف حوله الشباب.. ومثل هذه النعرة نعاني منها الكثير في الجامعة الإسلامية، حيث تتحد الكثرة المصرية لتأييد كل حدث يصدر عن مصر، ولو كان هذا الحدث هو التسليم لليهود بأوطان

المسلمين.. وأقول الكثرة لأن ثمة قلة منهم سما بهم الإسلام عن العصبيات الترابية، فلم يفرقوا بين مصري وشامي، وعربي، وأعجمي...

والمؤسف أيضا ان السيد سليمان حجر هذا قد غلا في عصبيته، إلى حد مُحاولة الإساءة لكرامة أخوين له مسلمين، لم يقترفا أي سيئة إلا أن دعيا للمساعدة على طاعة الله، فتقدما بخدماتها متطوعين لوجه الله..

واتجهت نيتنا عقب كلمة العفيفي إلى الانقطاع عن المخيم، ثم رأينا أن نستجيب الدعوة لحضور حفل الافتتاح، بغية الاطلاع على ما لا يحسن بنا جهله.

صراحة ومجاملة

بدأ الحفل أصيل اليوم التالي وقد حضره رئيس القسم التركي السيد رؤوف دنكتاش وبعض معاونيه، وفيهم وزير التعليم والخارجية، وآخر عرّفنا نفسَه على أنه مستشار لرئيس الدولة، وكان بين الحضور اثنان من كبار موظفي السفارة الليبية في نيقوسية، وحضر الحفل من السعوديين الدكتور محمد عمر الزبير مدير جامعة الملك عبدالعزيز، والدكتور جمجوم الذي تولى ترجمة الكلمات الإنجليزية بأسلوب دل على حذق وموهبة أدبية، والدكتور عبدالحميد أبوسليمان رئيس ندوة الشباب، والدكتور محمود الشاوي، وآخرون غابت أسماؤهم عني.

وبعد تلاوة آي من الذكر الحكيم ألقى السيد دنكتاش ــ بالانجليزية ــ كلمة الترحيب باسم الدولة التركية في قبرس.. وضمنها لمحة مؤثرة عن تاريخ الجزيرة وما عاناه المسلمون من النكبات على أيدي جيرانهم اليونانيين.. وقد كرر هنا ما أفضى به إلى مكاتب (الاعتصام) القاهرية من حيث تاريخ الإسلام في الجزيرة، إذ بدأه بالاحتلال التركي، وضرب صفحا عن التسعة القرون السابقة، والتي بدأت تاريخَ الإسلام هنا بنزول الصحابة في أول غزوة بحرية..

وركز بوجه خاص على العزلة التي يعيشها مسلمو الجزيرة، بعدم اعتراف الحكومات الإسلامية بها، والانقطاع عن المتاجرة معها، وانصراف طائراتهم عن أرضها.. ودعا إلى تحطيم هذه القيود، بالاعتراف الرسمي، والتعامل التجاري، والزيارات السياحية.. إلخ.

وتلاه الدكتور الزبير بكلمة طيبة، ثم كلمة الدكتور أبوسليمان، فباقي الكلمات... وهي كلها لا تعدو حدود المجاملات..

وقد نُظِّم الحفل على الطرائق التقليدية، وانتهى قبيل الغروب. وقدمت خلاله إلى الكبار نسخ من المصحف الكريم هدية باسم المخيم.. وقد تلقى سيادة الرئيس دنكتاش نسخته على عادته في

مثل هذه المناسبات، بالقيام والتقبيل.. ثم انفضّ الحفل، ومضى الرئيس وصحبه مشيعين بمثل ما استقبلوا به. ومن ثم أُذّن للمغرب وصَلّيْتُ بالقوم، ثم تقدم الدكتور الزبير فصلى العشاء جمع تقديم بمن شاء من غير الباقين في المخيم..



كلمات غير سياسية

الكلمات التي ألقيت لم تخرج عن حدود المجاملات إلا خطاب الدكتور دنكتاش فقد كان أكثر من مجرد ترحيب ومجاملة، إذ تضمن عرض الواقع الذي يعيشه مسلمو الجزيرة بعد الحرب الأهلية، والآمال العريضة التي يعلقونها على إخوانهم المسلمين لتأييد كيانهم السياسي، وإنعاش اقتصادهم الذي لا يجد منفذا إلا من خلال تركية..

وقد كنت أستمع إلى مضمون هذا الخطاب ــ الذي لم يكن موجزا ــ في غمرة من التأمل والتفاعل، ووددت لو أتيح لي الإعراب عنها بكلمة صريحة لا لف فيها ولا دوران..

ولئن حالت الظروف الرسمية بيني وبين ما وددت هناك، فلا حائل الآن يمنعني تحقيق هذه الرغبة، ولكنها ستظل محبوسة حسيرة مادامت غير واصلة إلى مسمع سيادة الرئيس دنكتاش وأعوانه الأعزاء.

لقد كان بودي أن أبدي لهؤلاء السادة ملاحظاتي التالية:

١ ـ لا شك أن للروابط الإسلامية أثرها الكبير في إبراز حقوق المسلمين وعدوان الآخرين عليهم في هذه الجزيرة إبان المحنة وبعدها، ولقد كنت أحد المسلمين الذين أسهموا في هذا الموقف عن طريق الصحافة والتأليف ولله المنة والفضل.

٢ ـ ولكن مجرد الصراخ بهذه الحقيقة لا يحقق لها النصر المرجو، وامامكم أكثر من دليل على ذلك لبنان الذي حطمته المذابح الأهلية، واجتاحته القوات اليهودية، دون أن ينفعه بشيء احتجاج العرب ومؤتمراتهم الكثيرة باسم التأييد الأخوي للبنان..

٣ ـ ثم هل نسيتم مذبحة (تل الزعتر) التي أريد بها تصفية الوجود الفلسطيني في لبنان أولا، ثم تصفية القضية الفلسطينية كلها عن طريق المعاهدات الزائفة، وكل ذلك على مشهد ومسمع من العالمين العربي والإسلامي، بل وبمشاركة بعضهم في عملية التصفية؟...

أليس في هذا كله مقنع لكم بأن قضيتكم في قبرس لا يحلها التأييد السياسي ولا الإنعاش الاقتصادي، ولا التشجيع السياحي، لأنها في الواقع العميق قضية الإيمان مقابل الكفر، وقضية

الإسلام مقابل الصليبية، وهي لم تبدأ عام ١٩٦٠ بالعدوان اليوناني عليكم، بل بدأت بمطلع الحروب الصليبية، التي اجتاحت مناطق المسلمين الغافلين، فدمرت عليهم، وفجّرت الجداول من دمائهم، وكادت تأتي على وجودهم كله، لو لم يقيض الله لهم من أيقظ عقولهم، وألهب ضمائرهم، وردهم إلى سبيل ربهم، فبدأوا ببيوتهم فطهروها من المعاصي، وبقلوبهم فشحنوها بالطاقات القرآنية، ثم مضوا تحت قيادة أمير المسلمين صلاح الدين، يستردون وطنهم المغصوب جزءا فجزءا وبلدا فبلدا..

يا سيادة الرئيس إن الطريق إلى البقاء والنصر مرهون بالعودة إلى الله والاعتصام بحبله، وحين تفعلون ذلك يأتيكم الأمن الذي ترغبون من حيث لا تتوقعون (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب).

أما ما وراء ذلك من وسائل الانتعاش والرفاهية وما إليها، فلا جدوى لكم منها إذا وقعت الواقعة، ويومئذ لن تنفعكم كذلك صيحة ترسلونها إلى من حولكم من المسلمين.. فقد علمتم أن هؤلاء بانصرافهم عن جادة الإسلام قد مزّقت الأهواء شملهم، فهم بين يمين لا يريد بكم ولا بهم خيراً، ويسار يدور مع الشيطان الأحمر حيث دار.. إلا من رحم الله ممن لا يملك ضرا ولا نفعا غير الدعاء المهموس، يرفعه تضرعا إلى الله وخفية..

فإلى الإسلام أيها الرئيس.. الإسلام الذي لا يعرف يمينا ولا يسارا، ولا عصبية ولا ماسونية، ولا نفعية ولا استغلالا.. الإسلام الذي لا يكون مرة سياحيا ومرة اقتصاديا، ومرة سياسيا، بل هو الإسلام الكامل الشامل لأسباب السعادتين.. إسلام الوجه والقلب والعقل على بصيرة إلى الله..

فإن فعلتم ذلك يا سيادة الرئيس استحققتم نصر الله الذي لا غالب له.. لأنكم يومئذ تقفون ومعكم الله وملائكته وصالحو المؤمنين.. ولو أنتم رجعتم إلى تفكيركم السليم ووعيكم الحكيم لأيقنتم أن ذلك هو الطريق الأقوم لمواجهة الخصم الذي يتربص بكم الدوائر ذلك الخصم الذي حدد سبيله إلى المستقبل من خلال دينه الكنسي فهو تحت لوائه، وعن طريق إذاعته المجاورة، يقرع قلوبَ قومه صباحَ مساءَ باسم الإنجيل، وبمواعظ القديسين، في حين أغفلت إذاعتكم كل إمكانات الإسلام، فلا تذكّر الناس بانتمائهم إليه، ولا تعوّل في إعدادهم عليه...

وأخيرا أليس من المحزن المبكي أن تلجأوا إلى اللغة الإنجليزية لمخاطبة اخوانكم المسلمين بكلمتكم الترحيبية النفيسة.. فلِمَ عنيتم بالإنجليزية، لغة العدو الشرس الذي سام الإسلام والمسلمين فنون الهوان، ولم تمنحوا بعض هذه العناية لغة القرآن الذي به دخلتم التاريخ، ومن شعوبه تستمدون التأييد لنصركم على أعدائكم؟!..

ثم ما الذي دعاكم إلى إيثار الإنجليزية حتى على لغة قومكم، وكان بوسعكم اعتمادها للتعبير عن أفكاركم، ومن ثم نقلها إلى لغة القرآن بوساطة خبير باللسانين؟..

وبعد فتلك ملاحظات أخ لكم في الإسلام لم يرد بها سوى وجه الله ومصلحتكم الحقة.. فهل أنتم معيروها بعض ما تستحق من اهتمام؟.

خاتمة مؤثرة

وأحب أن أسجل هنا ظاهرة كان لها أثرها لا في نفسي فقط، بل في نفوس حضور الحفل من أتراك الجزيرة أيضا، ذلك أن الأخ فاروقاً اقترح على المسؤولين أن يُختَم الحفلُ بآي من كتاب الله، يرتِّل بعضَها عربي، ويرتل بعضها الآخر تركي.. ونجحت الفكرة، إذ أشعرت هؤلاء ألاَّ عذرَ لهم في هجر القرآن، وحرمان أبنائهم من تلاوته وحفظه، بحجة صعوبته عليهم. فها هو ذا غلام تركي في الثانية عشرة يقرأه في وضوح وجمال، لأن أهله يريدون منه أن يقرأه، وقد أقبل هو عليه برغبة، حتى أنه ليحاول التقاط ما أمكنه من الكلمات العربية من أجله.. ولو قيض لهم زيارة الحرمين أثناء موسم الحج لرأوا أعجب منظر، وهو أن أقرأ الأمم للقرآن هم الأعاجم، الذين لا يخطئون منه حرفا، مع كونهم لا يفقهون كلمة مما يقرأون!... وصدق الله العظيم الذي تعهد حفظه وتيسير تلاوته على المؤمنين أيا كانت هويتهم ولهجتهم، فقال سبحانه، (ولقد يسَّرنا القرآن للذكر.. فهل مِن مُدَّكر_ القمر).

إخوة لن ننساهم

ولا يحسن بي أن أمر بذكر الغلام التركي القارىء دون أن أحدد هويته.. فإنه من أبناء تركية لا قبرس، وأبوه موظف في سفارة بلاده هنا، وهو الذي قدم بسيارته لزيارتنا مع الأخ فاروق، وكان في صحبتها زميلان تركيان أيضا أحدهما في السفارة كذلك، والآخر عامل في مطبعة الحكومة بلفقوشة..

ولا عجب أن ينجح هذا الغلام التركي في تلك التلاوة الخاتمة، فقد عرفنا في والده (وليّ) مثلا رفيعا من التهذيب التركي المزدان بالإيمان، وعرفنا في زميله أحمد مثل ذلك.. وقد انعكس هذا الخلق العالي في أولادهما، فهما من النماذج الباهرة في حسن الأدب، ولطف الحديث، والانطباع بروح الإسلام..

ونحن الذين أقنعنا والد سردار هذا بإلحاقه في المخيم، الذي نؤمل أن يكون فرصة صالحة للتنمية الكريمة، التي ترفع المستوى الخلقي، وتوثق الروابط الأخوية بين شبابه المنتسبين إلى العديد من

الجنسيات.. وقد ظهر امتياز سردار التربوي بما لقي من تقدير الرفاق والمشرفين، إذ أصبح منذ اليوم الأول صديقا محترما لدى الجميع.

وجزى الله وليًّا وزميله أحمد عنا خير الجزاء.. فقد أحاطانا بعنايتها البالغة منذ وطئنا أرض الجزيرة، فإليهما يرجع الفضل في تعرفنا أرجاء الجزيرة وقراها ومعالمها، فبسيارتيهما زرنا الماغوسة ــ ميناء الشطر الإسلامي ــ وهي على مبعدة تسعين كم من لفقوشة، وبها زرنا جرنة الميناء السياحي، الذي يذكرك بجنة الله الموعودة، لولا تلوثها بمفاسد الكفر والفسوق، وبها كذلك زرنا حصن (سانت هيلاريون) القابع في أعالي الجبال المطلة على جرنة، وقد أغفت في أحضان الأزرق الممتد إلى جبال طوروس.

وقد كتبت في مفكرتي عن هذا الحصن (أنه من طراز القلاع الصليبية. المنثورة على قسم الساحل السوري، وقد شاهدنا فيه كنيسة مهجورة، لا تزال محتفظة بأكثر ملامحها الأصلية. وقال الحارس لنا عن القلعة أن عمرها ألف ومئة سنة، وانها كانت في الأصل صومعةً يعتزل فيها أحد العباد ــ ولعلها باسمه سميت ــ).

وأنا حين أنسب الرحلات المذكورة إلى سيارتيهما معا إنما أفعل ذلك لأن أمرهما اختلط عليّ وأنا أكتب هذه الأسطر، فلا أدري أيهما حملتنا إلى هنا، وأيهما إلى هناك.

وقد تناولنا الإفطار في ضيافة كل من الإثنين، ووجدنا في كلا المنزلين أنموذجا واضح الخطوط من البيئة الإسلامية، حتى في خلع الأحذية عند المدخل، وهي الظاهرة المشاهدة في منازل استانبول أيضا.. ومما لفت انتباهي في كلا المنزلين كذلك خلوهما من صور الأحياء، ولا تفسير لذلك سوى السلوك الإسلامي الذي يحرم عرضها وتعليقها ولو كره المتفرنجون، وتقوّل السفهاء المتفيهقون...

وفي منزل أحدهما وهو الأخ أحمد كانت هناك ابنة له في حوالي الثامنة تساعد أباها وأخاها في ترتيب المائدة، وهي في ثوبها الساتر للكعبين، وقد أحيط رأسها وعنقها بمقنع ــ إيشارب ــ يحجب منها ما يجب ستره في المسلمة البالغة.. وكان ذلك ضربا من التدريب المبكر على فضائل الإسلام...

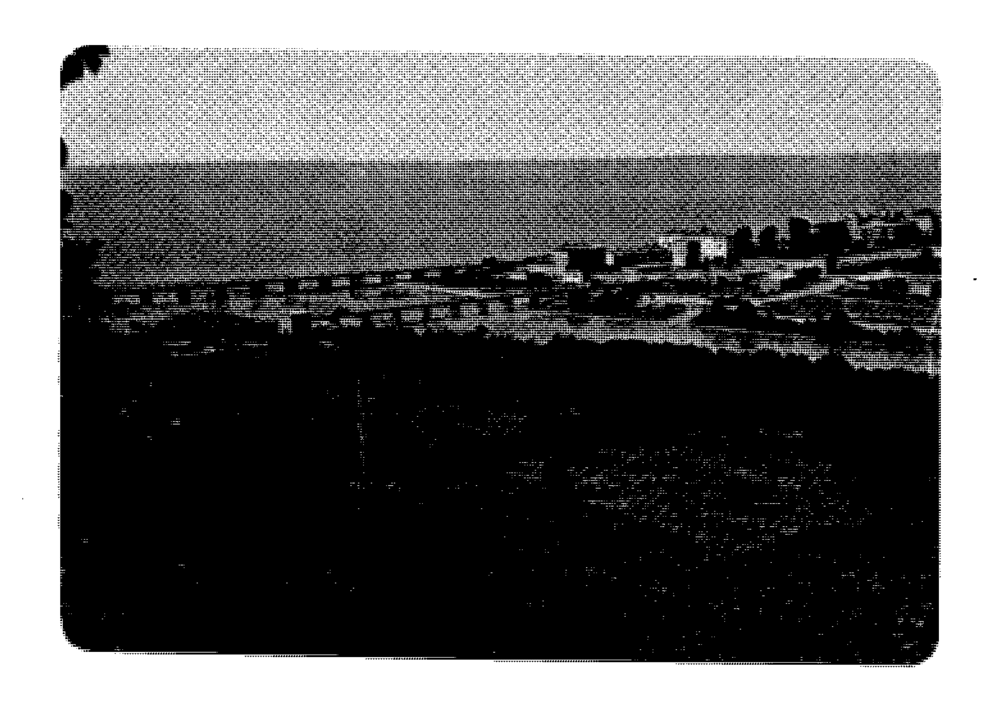
وما كان أسعده لنا من منظر يحمل إلى قلب المؤمن الكثير من الإيحاء..

وأقبل صباح الرابع عشر من شوال فأخذنا طريقنا إلى المطير، وقبل أن نغادر المنزل حمّلنا الأخ فاروقاً مبلغَ ألف ليرة ليدفعها إلى المسؤولين عن المخيّم تسديدا لما قد يكون له من حق علينا.

وفي إستانبول قضينا ليلتنا الأخيرة في فندق (مونشين) بجوار مسجد (شيخ زاده) حتى إذا وافينا ظهيرة اليوم التالي امتطينا الطائرة السعودية إلى جدة، فالمدينة الحبيبة، ليستقر القلب المشوق في مهبط الوحي ومسرح الذكريات التي لا تضاهى.

والحمد لله رب العالمين.

٢٧ / ١٠ / ١٣٩٩ هـ



● منظر عام من استانبول

السفينة الأولى

يا قبرس العزيزة..
أحقا أنت هي الجزيرة التي طالما تشوقتُ إلى لقائها؟..
إني لأخطو فوق ثراك الرطبِ الخَصْب..
وأجوبُ أرجاءكَ علواً وسفلا..
الماغوسة.. التي تعانق الأبيضَ المتوسطَ بذراع والأخضرَ المنبسطَ بالذراع الآخر..
ولفقوشة التي تعيش على مرمى ومرأى من العدو المتربص، ومع ذلك لا تزال تضحك وتعبث..
وجرنة.. جرنة.. التي توقد في قلوب المؤمنين لفحات الحنين إلى جنة الله..
هأنذا أُطل عليها من أعالي (سانت هيلاريون) الحصن البيزنطي القابع كالعجوز يتذكر ماضيه البعيد.. فأشاهد روائعَها الساحرة تنتشر في كل اتجاه..
ما أروعَ مناظرها بعيدةً وهي تغسل أطرافها بهذا الرقراق الأزرق الممتد إلى أقصى أقاصي الآفاق.. كأنها الغادةُ البتولُ تتوضأ استعداداً للوقوف الخاشع بين يدي الخلاق الرزاق..
ولكن.. ما أقبحها قريبة.. تَعرضُ لحومَ البشر في عُريِها الكافر..
كأنها حديقة للكلاب والخنازير..
أبشع ما فيها عوراتُها المثيرة للاشمئزاز والغثيان..

— ٢ —

يا قبرس العزيزة..
ما الذي يربط قلبي بترابك!.. الذي طالما حَنَنْتُ إلى مسّه..
أجمالُ طبيعتِك هذه.. التي تذكرني بروائع الفيلبين؟.
أغاباتك البهيجةُ المترنحةُ على السفوح والقمم؟.
تتبادلُ الحِوارَ الهامسَ مع أمواج الأبيضِ المترنمةِ أبداً..
أشواطئك الجذابةُ المغرية؟..

أنسيمُك الناعشُ المخالطُ للقلوب.. الحاملُ خلاصةَ الأريج؟.
الأريجِ الذي ترسله ضفاف الأبيض المتوسطِ كلها..
أم ثمارُك الشهيةُ من الأعنابِ والتفاح والخَروب..
لا.. وألف لا.. ففي لبنان المجاور لك، واللاذقيةِ الشاخصةِ إليك..
الكثيرُ الكثيرُ من ذلك المتاعِ الزائل.. الزائل مهما طال الأمد..
إنما هي الذكرياتُ يا قبرس..
الذكرياتُ المقدسةُ.. التي لا تنفك تشدُّ قلبي إليك..
ذكرياتُ السفينة الأولى.. التي أبحرتْ من سواحلِ الشام..
تحمل إليك أكرم وأعظمَ وأسعد هدية..
تحمل إلي أرضك الحائرةِ التائهةِ رايةَ محمد صلى الله عليه وسلم..
أتذكرين تلك الراية التي شَرَّفَ بها فضاءكَ أصحابُ البشير النذير؟.
الذي أرسله الله رحمة للعالمين؟.
فهداك الله بهم بعد ضلال..
وأمتعك بالأمن الذي حُرِمتِهِ أجيالاً إثْرَ أجيال؟.

ـ ٣ ـ

أجل يا قبرس العزيزة..
إنما نحبك بهذه الروح..
وبهذه الروح نتلقى نفحات ترابك..
التي تحمل إلى رئاتِنا أشذاء أولئك المصطفَيْنَ الأخيار..
من تلاميذِ المدرسةِ الربانيةِ المباركة التي:

ربّى بها الوحيُ جيلاً لا كِفاءَ له ... على البسيطةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

بهذه الروح أحببناك..
وبهذه الروح بكيناك.. وشاطرناكِ أوجاعك..
عندما أقدم متعصبةُ (أيوكا) وورثةُ الوثنية الفاجرة..
من سلالة (مارس) رمز الفتك والقتل..
ومن عُبَّادِ (فينوسَ) تمثالِ الدعارةِ والخيانة..
عندما أقدم هؤلاء البغاةُ على ترويعك..

وتدمير مساجدِك التي يُذكر فيها اسمُ الله..
لِتجريدِك من بركاتِ تلك الرايةِ المقدسة..
وردِّك إلى المتاهاتِ القديماتِ من ظلمات الجاهليات..

— ٤ —

بلى.. أيتها العزيزة
يا قبرسَ الإسلام..
بهذه الروح المحبة الباكية قَدِمْنا لزيارتك اليوم..
ولكن.. أيتها الأرضُ الجميلةالخصبة الغافلة..
أين الإسلام الذي أحببناك به وقصدنا إليك من أجله؟..
أين معالمُ التراث العظيم الذي نترقب رؤيته عندك؟.
أكلُّ ما بقي لك من الإسلام هذه المساجد..
المساجدُ.. التي تكادُ تخلو من المصلين..
لولا تلك البقيةُ من الشيوخ..
الذين يتلاشون في غمار الموت شيئاً بعد شيء...
وتلك القلةُ التي لا تعدو أصابع اليدين من أبنائهم..
الذين أغفلهم الشيطان إلى حين؟..

— ٥ —

حتى مساجدُك الحزينة.. يا قبرس..
لقد بدأتْ تخوي.. وتنزوي مغمورةً مهجورةً..
لأنَّ ناسك قد استغنوا عنها، فلا يرون حاجةً لزيارتها..
لا .. بل قد تجاوزوا هجرها إلى احتقارها وَرُوَّادِها..
فهم يدخنون و يشربون و يتسامرون على أبوابها..
كل ذلك والصلاةُ قائمة.. وفي رمضان، بل في كل نهارٍ من رمضان!.
وا أسفاه!.
وهل أذكِّرك بنسائك.. اللواتي انسلخنَ من الإسلام..
إلا من رحم الله من المخدرات اللاتي آثرن القرار في بيوتهنَّ..
ومن القواعد المتخلفاتِ عن الماضي اللائي لا يرجون نكاحا!.
في كل مكان.. في كل شارع.. في كل زقاق..

نماذج لا تُحصى من الكاسيات العاريات..
وكأنهنّ تواصَيْنَ ألاّ يبقى عليهنّ أثر من معالم الدين الحق..
لذلك تركن أنصافَهنّ العليا عارية من كل شيء..
وغير قليلات اللواتي أتممنَ سمة الهبوط من تعرية كلّ ما دونَ المقدَّرَيْن..
فتجردنَ من الحياء الذي أكرم الله به الأنثى من كل المخلوقات..
ولهذا هُنّ على الرجلِ فلا يفكرُ بالواحدةِ منهنّ إلا على قدرِ ما تملكه من مَهر..
ذلك المَهر الذي فرضه الله على المسلم تكرمةً للمسلمة..
فجعلته بز يغهنّ ضريبةَ الذلِ والهوان..

— ٦ —

يا قبرسَ عُبادةَ وأمّ حَرام وأبي ذر..
هل فارقتِ كل مسكةٍ من الرشد حتى استبدلتِ كلُّ ما هو أدنى بكل ما هو خير؟.
هل سألتِ.. هل فكرتِ.. هل تصورتِ..؟ أين تسيرين..؟.
وفي أيّ ظلمةٍ تخبطين؟.. وبأي هاوية تنزلقين؟.
أي فرقٍ بينك وبين أعدائك المتربصين بك الدوائر على خطوات؟..
ما أحسب ظاهرةً من كفر أولئك العُداةِ الغُواةِ إلا وهي بارزة فيك..
الخمورِ.. والسفور.. ودواعي الفجور..
وما وراءها من عبادةِ المادة.. والغفلةِ الصارفةِ عن الله..
وحتى (اليوجا)، عبادةُ مجوس الهند، قد أصبح لها عندك أتباع...
كل أولئك بعض ما شهدتُه على أرضِك..
لقد أصبح الإسلامُ غريباً بل يتيماً لديك..
اللهم إلا هذه المآذنَ الشاكيةَ أبناءك إلى رب العالمين..
وإلاّ أن يموت فيك ميت فيدفنَ في مقابر المسلمين..
دون أن تُشَيَّعَ جنازتُه بالصلاةِ من أهله..
لأنهم لم يُجَرِّبوا ذلك من قبل.. فلا يعلمون كيف يصلُّون!.
حتى تحيةُ الإسلامِ باتت فيكِ مستغربةً بل مستهجنة..
فنادراً ما تُسمعُ فتردّ..
وربّ محيًا بها يكون ردُّه عليها: (أهنا يقال السلام عليكم؟)..

ايه يا قبرس الغافلة السادرة...
كل هذا ولمّا ينقض على مجزرتك بسكاكين الصليبية سوى لحظاتٍ من عمر الزمن..
فكيف إذا غَبَرَت على ذلك الأيامُ والشهورُ فالسنون؟...
بالأمس قرَّحتْ استغاثاتُك أكبادَ المسلمين في كل صوب..
فتوجعوا... وتبرّعوا... وتضرّعوا...
واستجاب ربُّهم البَرُّ الرحيمُ لِدعواتهم الخاشعة..
وحرَّك صفوةً من جنوده المؤمنين، فزرعوا ثراك بالجديد من شهداء الإسلام..
تحت راية (اللهُ أكبرُ)
حتى أتمَّ اللهُ نعمته عليك بإنقاذِك من السفاحين.. الإنقاذَ الذي كان أكبرَ من الحُلُم..
وأورثك أرضَهم وديارَهم وأموالَهم.. وأرضاً لم تطئوها..
فما بالك نسيتِ ذلك كله ورجعتِ..
رجعتِ إلى اللهو.. والعبث.. والركض وراء الدنيا؟..
ألا تخافين أن تعودَ المأساةُ لاستكمالِ فصولها الدامية؟.
ألم تسمعي قط بذلك الإنذار الآلهي القائل: (وإن عدتُم عُدْنا)؟..
حسرتين عليك لا حسرةً واحدة يا قبرس..
حسرةً لِشططِك الذي صدّك عن سبيلِ الله..
وحسرةً لفقدانِك الهادين الجادّين الداعينَ إلى الله..
المذكّرين أولي الغفلةِ من أمثالك بأيام الله..
ولا حول ولا قوة إلا بالله..

لفقوشة ـ قبرس ٧ / ١٠ / ١٣٩٩ هـ



ذكريات لا تنسى من أندونيسية

جمهورية أندونيسية تتكون من المجموعات الجزرية، وتقع في الجنوب الشرقي من آسيا حيث يمتد من شبه جزيرة الملايو إلى جزيرة بابواغينيا الجديدة، على طول خط الاستواء، وتنحصر بين خطي الطول ٩٥ و١٠٠° شرقا، ودائرتي العرض ٧° شمالا و١١° جنوبا.

وهذه المجموعات الجزرية هي:

(١) **المجموعة الغربية** : وتشمل جزر سومطرة، وجاوة، وكاليمنتان، وما حول هذه المجموعة من جزر صغيرة.

(٢) **مجموعة الجزر الصغرى في الجنوب الشرقي ، وتعرف باسم جزر نوساتنجارا:** وهي سلسلة من الجزر الصغيرة تمتدّ من شرقي جاوة نحو استرالية.

وتشمل الجزر التالية:

جزيرة بالي، وجزيرة لومبوك، وجزيرة سومباوا، وجزيرة سومبا، وجزيرة فلوريس، وجزر سولور، وجزر ألور، وجزيرة راتي، وجزيرة ساوو، وجزيرة تيمور.

(٣) **الجزر الشرقية** : وتشمل جزر سولاويسي (سليبس)، ومالوكو التي تمتد حتى الفلبين.

(٤) **جزيرة إيريان جايا:** وتعرف من قبلُ باسم جزيرة إيريان الغربية، وهي القسم الغربي من جزيرة بابواغنيا الجديدة.

وتتكون أندونيسية من ١٣٫٦٧٧ جزيرة، منها ٦٠٤٤ جزيرة مأهولة بالسكان، والباقي غير مسكون.

في مطار كراتشي

الاثنين الثاني من رمضان المبارك لعام ١٤٠٠ هـ

كانت الساعة ١١٫٢٥ عندما بدأت رحلتنا في الطائرة المتجهة إلى كراتشي، وذلك بعد انتظار

في مطار الرياض قارب الساعات الثلاث، وبعد عقبات كثيرة حالت دون انطلاقنا الذي كنا نتهيأ له من أوائل شعبان.

حقا إن السفر شقة من العذاب..

أحس أعصابي مرهقة وفكري متعبا، والمرجو من الحكيم الحليم أن يحوطنا بعنايته ويستعملنا في طاعته على خير الوجوه التي يحبها، إنه خير مسؤول.

لم أجد في من حولي من رفقة الطائرة من يتكلم العربية، فانطويت على نفسي أعيد النظر والفكر في كتاب الله، ثم أعود إلى بعض الكتب التي صحبتها، وقد صرفتني أعباء المشاغل عن استكمال قراءتها من قبل..

وبعد ساعات ست حطت بنا مطية الهواء في مطار كراتشي، الذي بدا ــ بالمقارنة مع غيره من موانىء العواصم الدولية ــ مهبطا عاديا.

وكان عليّ أن أعجل إلى قسم الأمتعة لأتسلم حقيبتي المنطوية على متاعي كله، وشاء الله أن أعاني بعض العنت قبل الوقوع عليها، ومن ثم أخذت بزمامها أجرها، وأنا أتابع بعيني الأسماء على اللافتات رجاء أن أعثر على اسم (جاكرتا) التي نقصد..

ولم أكن على علم بما ينبغي عمله لتأمين سفري إلى عاصمة أندونيسية سوى أن أبحث عن المكتب الخاص بخطوطها، ولم يكن ذلك باليسير على امرىء فَقَدَ إمكان الصلة بمن حوله، بسبب جهله لغة القوم، فهو أبكم، وإن كان في لغته مبينا، وهو أصمّ وإن كان سمعه يدوّي باللغو الصاخب من حوله..

وضرعت إلى الله ألاّ يحرمني من رعايته التي طالما شملني بها في مثل هذا الموقف، فإذا بوجه عربي لا أذكر أني رأيته قط.. ومع ذلك أشعر أن بيني وبينه صلة لا أعرف كيف أصفها.. وتقدم نحوي، وبلهجة شاميّة قال لي: «السلام عليكم».. فرددت التحية بأحسن منها.. وخلال لحظات أحاط كل منا بأمر صاحبه، وعرفت أنه من مكتب منظمة التحرير هناك، ولعله كان ينتظر وصول أحد المسافرين في تلك الطائرة، وما كدنا نستتم عبارات التعارف حتى أقبل علينا فتى سوداني قدّم إلينا نفسه على أنه طالب طب في جامعة كراتشي، وبمعونة هذين الأخوين عرفت طريقي إلى غايتي، فضيا بي إلى مندوب مكتب الخطوط السعودية، الذي سبق أن لقيته وعرضت عليه أمري بالإشارات، وبدلالة تذكرة السفر المقطوعة من قبل دار الإفتاء بالرياض، فلم يُبد لي أي اهتمام.. ولكنه الآن خضع للواقع وزودني بالتوصية اللازمة لأحد الفنادق، ولم يدعني ذانك

الاخوان إلا بعد أن امتطيت سيارة الأجرة التي أوصلتني إليه بعد مسيرة طويلة، او خيّل إلى أنها مسرفة في الطول.

على أن المشكلة بدأت من جديد، فليس في السيارة من يفهم حرفا من العربية، التي لا أكاد أحسن سواها، وهأنذا أغادر السيارة إلى باب الفندق لأواجه العجوز الذي استقبلني بالأوردية التي لا أفقه منها حرفا.. بيد أن الله الذي كان معي في ساحة المطار لم يتخل عني في هذا المكان، فإذا أنا بفتى فلسطيني يتحرك لمغادرة الفندق، فما إن بصر بسمتي العربي حتى اتجه نحوي مرحبا مصافحا، ثم أخذ بيدى مع النادل إلى الحجرة التي اختيرت لي.. وبعد أن أدينا معاً صلاة المغرب، دعوت بكأسين من الشاي، ولبثنا نتحدث في مختلف الشؤون، وكانت فرصة ممتعة تعرفت خلالها الكثير من شؤون باكستان، وبخاصة أحوال الجامعات، إذ كان طالبا في السنة النهائية من هندسة الكهرباء، وهو يعيش واقع الحياة والناس من حوله، ويملك من قدرة الملاحظة ما يمكنه من تكوين الأفكار الصحيحة، فضلا عن كونه ذا وعي إسلامي صالح لمحاكمة الأحداث.

وامتد بنا السمر إلى نصف الليل، حيث رأينا أن نتحرك إلى المطار في محاولة للحصول على مقعد في الطائرة الهولندية (KLM) وهي الوحيدة المتجهة إلى جاكرتا تلك الليلة، وعلى الرغم من المشاغل التي كانت تشد بالفتى أبى إلا أن يرافقني إلى المطار.. وفي المكتب الخاص بخطوط أندونيسية واجهنا بعض الموظفين المهذبين الذين أكدوا لنا نفاد الكراسي جميعها، وألاّ سبيل لتحقيق مطلبي إلا عن طريق الانتظار، فعسى أن يخلو أحدها بتأخر صاحبه فأخلفه عليه.. فودعني صاحبي معتذرا بعد أن أوصى القوم بي خيرا، أحسن الله جزاءه.

اتخذت لنفسي مجلساً على أحد المقاعد القريبة من المكتب، وكان النعاس يهاجمني بقوة، فجعلت إحدى الحقيبتين تحت فخذي، وضممت الصغرى إلى حجري، ورحت في نزاع مع الكرى، فمرة يصرعني فأذهل عما حولي، ومرة أغلبه فأنهض لأسأل الموظف بالإشارة عما إذا حان موعد البت بالطلب.

وقبيل الفجر حلّ بجانبي أحد المنتظرين مثلي يريد أن يريح قدميه، وحيّاني بالإنجليزية، وسألني عما إذا كنت أتكلم بها فاعتذرت، وسألته بالفرنسية المستعربة عما إذا كان يحسن الفرنسية، فإذا هو بلبلٌ فيها... إنه تونسي يقيم في باريس، ويعمل في تجارة السجاد، وبذلك عدنا جميعا إلى لغتنا الأم بدلا من الأعجميتين اللتين أغنانا الله عنهما.. وهكذا كان صاحبي التونسي نجدةً جديدة لي في الوقت المناسب، فلم يدعني حتى تم لي ما أريد، وما هي إلا دقائق حتى أقبل عليَّ موظف الخطوط يطلب تذكرة السفر، ويدفع بالحقيبة إلى الميزان، ومن ثم مضى بي إلى مراقب الجوازات الذي طالبني أول الأمر بأشياء لم أفهمها، ومازال به يحاوره حتى أنجز المعاملة وشيعني إلى داخل القاعة التي لا يلجها إلا مضمون السفر.

وذلّلتْ عناية الله بقية العقبات فاهتديت بالحدس إلى الجناح الخاص بركب الطائرة، وهناك التقيت إحدى الأسر الماليزية التي تنتظر نفس الطائرة، واستطعنا التفاهم عن طريق الإشارة، حتى إذا جاء صوت المذيعة باعلان الموعد أشاروا إليّ بالتقدم.. ومن ثم لزمت مكاني في الطائرة وصممت ألاَّ أبارحه في أي محط حتى أسمع اسم (جاكرتا).. وطالت الرحلة، وهبطت الطائرة مرتين إحداهما في مطار بانكوك ــتيلاندــ والأخرى في كوالالمبور ــماليزيةــ ولم تمس أرض جاكرتا إلا أصيل ذلك اليوم.

في مطار جاكرتا

وانتظمت في أحد الصفوف المتصلة بمناضد الجوازات، وفي نفسي غير قليل من خشية العقبات التي جربها قبلي في هذا المكان الأخوان الشيخ حِلّيت مسلّم والسيد أسعد طه، وكان ذلك يوم عادا من رحلة قصيرة إلى ماليزية، إذ تركا أمتعتهما في أحد فنادق جاكرتا، على أن يثوبا إليه لاستكمال سياحتهما التي بدآها قبل شهر.. فما إن واجها موظف الجوازات ــولعله هذا الذي أنا مقبل عليه الآنــ حتى فوجئا برفض دخولهما، ولم يُجْدِهما كل ما أبدياه عن طريق المترجم من مسوغات القبول.. ثم اضطرا إلى المبيت في المطار نفسه، حتى وافاهما مندوب السفارة السعودية الذي سُمح لهما أن يتصلا به هاتفيا، فكان سببا لإخلاء سبيلهما بكفالته، على ألاَّ يستغرق بقاؤهما في أندونيسية سوى بضعة أيام..

وكنت أثناء ذلك أجيل بصري في القسم الداخلي من القاعة رجاء أن أرى من ينتظرني من قبل مكتب الملحق الديني وبخاصة أني اتصلت أمس من مطار الرياض بالأخ المسؤول في دار الإفتاء أخبره بسفري، وأتلقى منه عنوان الملحق الشيخ إبراهيم يوسف خان.. إلا أني لم أجد وجها يؤنس غربتي هناك.. فأيقنت أن عليّ أن أكافح بذراعيّ للخلاص من بحيرة الحيرة.

وحدث ما خفت أن يكون.. فما إن نظر الموظف المختص في جوازي حتى ناوله زميلا آخر.. ثم مضى يعرضه على غيره فغيره.. دون أن أفهم لذلك من سبب.. وأخيرا وبعد أن انفض الصف كله يسر الله فختموا الجواز، وفسحوا لي فدخلت، ولم أعرج على شيء حتى وافيت مدرج الأمتعة وكان في نهاية دوراته، وشاء الله أن تكون حقيبتي من أواخر حمولته، فسحبتها عجلا، ومضيت أتطلع إلى الوجوه رجاء أن أجد بينها واحداً آنس به.. ولكن.. أنّى لي هذا والوقت مساء، وأنا مع هؤلاء الناس كذي القرنين حين بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون ــمن لغتهــ قولا.. على أني لم استشعر اليأس قط ثقة مني بأن العناية التي طالما فاجأتني بالحلول المنقذة لن تدعني أتخبط طويلا في ذلك التيه، ولبثت أردد دعاء العبد الصالح (يا هادي الضالين ودليل الحائرين.. وفقني إلى الخير الذي أنا بحاجة إليه..).

و يا لها من مفاجأة رائعة طلع بها عليَّ ذلك الوجه الحبيب الذي لا أذكر أين رأيته قبل تلك الساعات...

وأكب عليَّ يعانقني وهو يردد في عربية صحيحة فصيحة «شيخ مجذوب..».

وكتمت جهلي للفتى وقابلت عناقه بمثله وأنا أقول «هذا أنت..».

وأجاب: «نعم، أنا تلميذك أحمد يز يد الرملي.. أذكرته..؟».

أمصادفات هذه؟

وعزّ عليّ أن أدع الأخ أحمد يز يد رملي لحظة لئلا يباعد بيننا الزحام، وشبكت راحتي براحته (أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر) حتى انتهينا إلى الشارع العام، وبإزاء سيارة حمراء جديدة وقف بي، ثم أخذ يعالجُ بابها الأمامي بمفتاحه ثم دعاني للدخول، وكانت تلك سيارته الخاصّة، وفي الطر يق جعل يقص عليّ ملابسات وجوده في قاعة المسافر ين، فإذا هي مفاجأة أخرى لا تقل جمالاً عن أختها.

يقول الشيخ أحمد : «كنت على موعد لاستقبال أخ مسافر يصل إلى المطار في الساعة الثالثة، ولكن شاء الله أن تغلبني غفوة القيلولة فلم أنتبه إلا قبيل الخامسة، ومع ذلك لم أيأس من لقائه **فعجلت إلى المطار على أمل أن يكون بانتظاري هناك.. وتغلغلت خلال الحشود أبحث عنه فإذا أنت أمامي وجها لوجه.. و يا لها من مصادفة فوق المتوقع ! »**

وأمسكت لحظة أتأمل في هذا المسلسل العجيب، الذي بدأ بكراتشي واستمر إلى جاكرتا، وأتساءل أحقا كل هذا من عمل المصادفة؟ وما المصادفة؟ أليست هي التدبير الخفي الذي نعجز عن تفسيره فنردّه إلى ذلك المسمَّى المجهول.

وانطلقت بنا السيارة الزاهية في طر يق جميل تنهض على جانبيه وفي أوساطه الأشجار السامقة، وتنتثر من ورائها الأبنية الأنيقة ذات الطبقة الواحدة، وطالت الرحلة وتشعب الحديث، وعرفت من خلاله أنه يقوم مع صهر له على مدرسة إسلامية ورثها عن والده وفيها يُعَلِّمون العربية والدين.

وبعد عشرات الدقائق صرنا إلى منزل الشيخ أحمَد، وكانت الشمس على وشك الغروب، وقبل أن يباشر أي إعداد أخبرته أني مفطر، وقد تناولت أكثر من وجبه طعام أثناء الطيران، فاكتفى بكأس من مستحلب النارجيل اللذيذ، وأكدت عليه أن يدعني في حديقة المنزل ليفطر مع أهله.. وبعد الصلاة رجوت منه أن يأتيني بسيارة أجرة تبلغني فندقا صالحا، ولكنه أصرّ على أن

تكون سيارته هي التي تحملني إلى الفندق. وهكذا استأنفنا المسير خلال شوارع على غاية من النظافة، وكأنها ممرات في حدائق ذات بهجة، حتى وقف بنا على مدخل فندق قرأت على لافتته المضاءة اسم **KARTIKA PLAZA** وقال لي ونحن نهبط من السيارة: «هنا نزل وفد رابطة العالم الإسلامي، وعلى مقربة من هذا المكان يقع مكتب الملحق الديني القائم على شؤون الدعوة ممثلا لدار الإفتاء والبحوث العلمية بالرياض، وغير بعيد من المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية.

وبعد إجراءات يسيرة لدي مكتب الفندق حملنا المصعد إلى حجرة فخمة، وخشية أن أعجز عن إفهام النادل ما أريد من طعام للسحور، كلفت الأخ أحمد أن يطلبه لي، وبذلك انتهت مهمته وفارقني على أمل اللقاء، ولكني لم أدعه حتى استوثقت من أنه سيبلغ مكتب الملحق بوجودي هنا رجاء أن يوافيني مندوبه في الصباح.

منطقة الفنادق

وراودتني نفسي للخروج إلى الجادة الممتدة بجوار الفندق، لأقضي بعض الليل في استطلاع ما حوله، غير أني رفضت هذا الخاطر، واكتفيت بالنظر إلى ما هنالك من وراء الشرفة، إذ ليس من الميسور على غريب مثلي أن يتجول ليلا في مثل هذه المواطن وهو لا يعرف حرفا من لسانها.

وكانت فرصةً ماتعة أن أخلو لنفسي على تلك الشرفة الفسيحة الجاثمة في الدور التاسع، والمطلة على أروع الشوارع، في عاصمة الدولة ذات الأربعة عشر ألف جزيرة(١) والمائة والأربعين مليونا من السكان.

هأنذا أنقّل بصري خلال هذه الشوارع اللامعة وهي تعكس أضواء المصابيح التي لا عداد لها، تنطلق من أعمدة الكهرباء المحدقة بها، ومن الفنادق الشامخة الأنيقة المنتشرة كنجوم المجرة.

طالما قرأت وسمعت عن منطقة الفنادق هذه، فكنتَ أتهم رواة أخبارها بالغلو حتى شهدت بعضها هنا، فإذا هي فوق ما سمعت وقرأت. ولعل الحكومة التي صممت هذه الأبنية، وخططت تلك الجوادّ الرائعة، إنما استهدفت من ذلك استهواء المترفين من سواح العالم، للإقبال على هذه الجزر، ومَلْء خزائنها التي لا تعرف الشبع بالعملات النادرة.

على أن كل هذه المشاهد التي أطللت عليها تلك الليلة لم تكن في الواقع سوى جزء يسير من مظاهر العمران الحديث والجبروت الهندسي التي واجهتها في ما بعد.. وما أحسبني بقادر على استيعاب أوصافها وأجناسها إلا أن أفرد الحديث عنها دون غيرها من الصور والذكريات والانطباعات، التي حملتها من رحلتي في تلك الجزر، التي استغرقت قرابة الخمسة الأسابيع، وما أدري إذا كان ذلك متاحا لي فيما يأتي؟

(١) في كتاب (أندونيسية) الصادر عن وزارة الاستعلامات الأندونيسية أن مجموع جزرها ١٣٦٧٧ والمسكون منها ٦٠٤٤

والظاهر أن المهندس العالمي الذي وضع تصاميم هذه الروائع قد جعل نصب عينيه مضاهاة نيو يورك وواشنطن والعواصم الأخرى من حواضر العالم الغربي، كما نشاهد هذا في مختلف وسائل الإعلام والدعاية سواء في الأبنية الشوامخ، أو الحدائق الغناء، أو التماثيل الرامزة إلى الأحداث السياسية، أو الوقائع التاريخية.. ويبقى في هذه الرحاب ما لا تجد له نظيرا هناك وهنالك.. وحسبي أن أذكر من ذلك منظرين، أما أحدهما فهو ذلك البرج الهائل الذي يحمل في أعلاه راموز الحرية، وهو عبارة عن مجسَّم لشعلة متأججة، صنعت من خالص الذهب، ويقال إنها تزن عشرات أو مئات الكيلوات، وقد سُلط عليها من الأضواء الخفية ما يجعلها كألسنة اللهب وبخاصة أثناء الليل.

أما الثاني فهو ذلك العمود المقَوّس من الخرسانة، وقد ارتفع منحنياً عشرات الأمتار، ومَثلَ في أعلاه تمثال رجل عملاق بارز القوة قد انطلق بأقصى قوته كأنه يريد أن يسابق الريح.. ولكن إلى أين...؟

لعلك تظنه رياضيا يتقدم رفاقه في مسابقة الجري.. أو مقاتلا يريد أن ينقض على عدو لبلاده.. كما توهمت أنا أول ما وقع بصري عليه.. إذن فاسمع تفسير رفيقي الفتى الأندونيسي، الذي وعى باخبار هذه التماثيل المرفوعة في عهد سوكارنو، وبتصميمه الشخصي، فهو يقول: «إن هذا التمثال إنما يراد به أن يصور اتّجاه اندونيسية نحو الشيوعية الصينية، فالرجل الحجري إنما يندفع بقوته تلك باتجاه بكين.. بكين (ماو) الذي اتخذ منه سوكارنو وعملاؤه مثلهم الأعلى.

الأصيل والدخيل

ولقد بات من حقي، بعد أن أتيح لي التجوال في مختلف الأحياء والشوارع من جاكرتا، أن أقطع بأن العصبة الحاكمة أيام سوكارنو قد عقدت العزم على تكوين أندونيسية جديدة تختلف كليا عن ماضيها الشرقي، الذي سبق عصور الاستعمار من أيام البرتغال ــسنة ١٥٠٩ــ حتى نهاية عهود الاستعمار الهولندي ــسنة ١٩٤١ــ ذلك أن السائح في أي جزر أندونيسية لابد أن يسترعى انتباهه الطابع العمراني الموروث مسيطرا على المساكن والحوانيت وكل ما يتصل بها.. فهو قلما يشاهد بناء يزيد على الدورين، في حين يلتزم معظمها الطبقة الواحدة، ولعل الباعث على ذلك في الأصل اتساع الأرض، الذي يغري بالامتداد الأفقي بدلا من العمودي، ولاشك أن لذلك علاقة متبادلة بين المكان والسكان، فإذا كان انفراج المكان حافزا على الانبساط، فكذلك للأخلاق والعادات الاجتماعية أثرها في تثبيت هذا الطراز من البناء المقصور على الدور الأرضي، تعبيراً عن الاحترام المتبادل بين السكان بحيث لا يعلو بعض على بعض، ولا يشرف جار على آخر... وهي الظاهرة التي لا تقتصر على أندونيسية الأصيلة وحدها، بل تشمل ماليزية وسنغافورة والكثير من مظاهر العمران في جزر الفيلبين، ولاسيما في مناطق المسلمين..

والمدقق في هذه الظاهرة العمرانية لابد أن يتساءل عن مصير هذه المعركة بين الطابع القومي الأصيل، وذلك الغازي الغربي الدخيل.. ولأيها ستكون الغلبة في النهاية؟

والشيء الذي استقر في نفسي بإزاء ذلك أن لكل من المنهجين خلفياته ومقوماته، وبها سيظل لكل منها وجوده المتميز، فللأسلوب الغربي مكانه الدائم في نطاق المؤسسات الحكومية، التي لا يصلح لها الطراز الأفقي، وللمساكن الشعبية سلطانها الضامن لها الاستمرار لصلتها الوثقى بالفطرة والتربية العميقة الجذور.

لقاء أخوي

كانت الساعة التاسعة من صباح الأربعاء ــ الرابع من رمضان ــ على حساب المدينة المنورة، وهو الثالث على حساب وزارة الشؤون الدينية في هذه الدولة ــ عندما دخل عليَّ الأخ خليل، مندوباً عن مكتب الملحق. وكان **لقاء ساراً** استرددت فيه ما أفقده من الأنس، ولا غرابة في ذلك فالأخ خليل من خريجي كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، ويحمل لي وداً صميما كسائر إخوانه الذين درسوا عليَّ السيرة النبوية والأدب العربي.. وحقا انها لسعادة لا تقوَّم أن يلقى مدرس في جامعة عالمية طلابا له في مثل هذه البقاع النائية، إذ لولا الإسلام، وهو دين ٩٠٪ من سكانها، ولغة القرآن التي يحسنها هؤلاء الخريجون وإخوانهم من الذين وفقهم الله لخدمة دينه، لولا الإسلام وهؤلاء لظل كالعضو المبتور من الجسم الحيِّ لا ينفعه ولا ينتفع به..

وبحرارة مُسْعِدة تم ذلك اللقاء، ثم علمت منه أن الملحق الديني قد غادر جاكرتا بطريقه إلى الرياض قبل أيام، ولم يتلق المكتب أي خبر عن بعثتنا إلا صباح اليوم عن طريق الشيخ أحمد يزيد رملي..

وفهمت من هذا أن زميلي الشيخ ناصر لم يصل بعد إلى جاكرتا، مع أنه قد بدأ سفره قبلي في الأول من رمضان.. وتوقعت أن يكون قد جعل وجهته إلى مناطق أخرى من جنوب شرق آسيا، بتكليف من قسم الدعوة الخارجية في الرياض، ومن ثَم ينتهي إلى هنا بين يوم وآخر.

وفي مكتب الملحقية التقينا كذلك ببعض الإخوة العاملين هناك، وفيهم الأخ حلمي أمين الدين الذي عهد إليه بإدارة المكتب أثناء غياب الشيخ إبراهيم، ومعه الفتى الذي شاء الله أن يؤنسنا بصحبته أكثر أيامنا في تلك الربوع، واسمه سراج الدين بن شمس الدين.. ومن حسن الحظ أن الأخ حلمي هو ثالث الأبناء الذين لقيتهم الآن من خريجي الجامعة الإسلامية في جاكرتا.

وأكثر ما كان يهمني تلك الساعة هو تأمين مسكن صالح أستقر فيه أثناء وجودي في العاصمة، لأني لا أطيق البقاء يوما واحداً في ذلك الفندق، الذي فقدت فيه كل إمكان للانتفاع بالسمع

والنطق.. وأوضحت للإخوة رغبتي في أن يكون المسكن المراد في جوارٍ إسلامي، وقريبا من السوق، حيث يسعني أن أحصل منها على حاجاتي اليومية من أي طريق غير اللسان.

وكان مستحيلا أن نفيد من أي شيء في ذلك المكتب سوى الأُنس الذي نجده في هؤلاء الفتية المستعربين، والإرشادات التي يقدمونها إلينا، إذ كانت الحجرات كلها مقفلة غير غرفة الكُتَّاب.

مع الدكتور ناصر

ولم نتلبث إلا يسيرا حتى وافانا خريج رابع من طلابنا هو السيد عدنان سومرجي، وقد جاءنا موفداً من قبل الداعية الإسلامي الكبير الدكتور محمد ناصر، القائم على إدارة المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، ومن ثم شخصنا لزيارة الدكتور في مقرها، وأنِسنا هناك بلقاء رجل أندونيسية الذي لا يختلف على تقديره اثنان لا في أندونيسية ولا في سائر أنحاء العالم الإسلامي، اللهم إلا أن يكون من المعادين للخط الإسلامي الصحيح، أو المتزلفين لأولئك المعادين لهما من طلاب المنفعة... وهناك تعرفنا معالي الدكتور محمد الرشيدي، أحد الوزراء السابقين في حكومة الدكتور محمد ناصر أيام سوكارنو، وهو أستاذ جامعي ومن ذوي الثقافة العالية، المحسنين للعربية كأفصح بنيها..

وكان المَقَرُّ يعجُّ بحركة الموظفين كل في عمله، الذي يؤلف مع أعمال الآخرين شبكة الإدارة، التي تشرف على مختلف المراكز التابعة للمجلس في هذه الجزر.

وفي مكتبة المقر المزدانة بالمجلدات النفيسة قضينا بعض الوقت مع الدكتورين الفاضلين، وتركت للدكتور محمد ناصر أن يُعِدَّ لي جدول عمل للدعوة ريثما يصل زميلي الشيخ ناصر، إذ يتعذر عليّ أن أستهلك يوما دون أن أؤدي فيه واجباً. فأخبرني أن ثمة دورة لمعلمي العربية تقام في مدينة تشيآميس، وسيرتبون لي فيها عددا من الأيام، ولفضيلة الأخوين الشيخ عبدالله القادري عميد كلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية، وزميله الشيخ عبدالقوي ــ اللذين سبقانا في رحلة الصيف مبعوثين من قبل الجامعة ــ أياماً أخر. ومن هاتف المقر اتصلنا بالأخ الأديب محمد سعيد أكوسجيء مساعد الدكتور محمد ناصر، نتفقده بعد أن علمنا أنه معتكف في منزله منذ أيام بسبب نوبة من الربو شفاه الله.. وتواعدنا على التلاقي في أول فرصة تتاح.. وإني لأعتبر لقاء هذا الأخ الدارس في مكة المكرمة فرصة ممتعة، إذ أجدني فيها تلقاء لسان يحدثني بأرقى أساليب المعربين من فصحاء العصر.

وغادرنا مقرّ المجلس إلى الملحقية في السيارة نفسها، وقد اتفقنا مع الأخ خليل، وهو أحد موظفيها، أن يرافقنا إلى بعض المساجد التي يختارها لإلقاء بعض الأحاديث التوجيهية.

وفي مكتب الملحق أعلمنا الأخ سراج الدين، أنه في أثناء بحثه عن المسكن المناسب لقي بعض معارفه من مجلس الشورى ــ البرلمان ــ فأبدى رغبته في أن أكون ضيفا على مكتب المجلس.. إلا

أني رجوت منه أن يرفع إليه اعتذاري، لأني لا أريد أن أسلم يدي إلى قيود الرسميات، ثم أخبرني بعد قليل أن دعوة وجهت إليّ من عميد كلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية الحكومية الأستاذ عبدالرحمن بارتوسانتونو لأكون في ضيافته مدة إقامتي في جاكرتا، وأعلمني كذلك أن الأستاذ يتكلم العربية، وهو يرغب في ضيافتي لتقوية معلوماته اللغوية فيها.. فلم أر بأسا في قبول هذه الدعوة ريثما يعثرون لي على المسكن المناسب، وألفيتها مناسبة صالحة للاطلاع على الأوضاع الجامعية في هذه البلاد، وبخاصة أنني كثيرا ما أنظر —في لجنة المعادلات بالجامعة الإسلامية— في شهادات لطلاب أندونيسيين يرغبون في متابعة دراستهم عندنا، وعليها أسماء جامعات حكومية. فيحسن بي أن أتعرف حقيقتها عن كثب، إذ كثيرا ما ترد إلينا كذلك شهادات من دول شرقية أخرى عليها اسم الجامعات، ثم يتضح لنا بالمشاهدة أنها ليست سوى أسماء لكتاتيب أعطيت صفة الجامعات.

مضيف فاضل

ولقد وجدت في قرب هذا المضيف أنسا ورَوْحاً، فهو رجل أقل ما يستحق من الوصف أنه إنسان فاضل، وأنه ذو شخصية جامعية أصيلة، وأنه إلى ذلك ذو حرص شديد على تنمية معلوماته من العربية، وهو يستعد لتقديم رسالة الدكتوراة في بعض الموضوعات من الأدب العربي..

وفي ضحى اليوم التالي قمت مع الأستاذ المضيف ومعنا الأخ سراج الدين بزيارة الجامعة.. وقد كتبتُ في مفكرتي يومئذ عنها أن (أول ما يواجهك منها نظافتها إلى جانب هُويتها العلمية).

والحق أن النظافة أحد مظاهر الشعب الأندونيسي، فأنت أنَّى كنت في الشارع، أو المنزل، أو المسجد، في معظم هذه الجزر يسترعى بصرك تلك النظافة البالغة. وقد حاول صديق زار أندونيسية سائحا أن يعطي هذه الظاهرة حقها من الوصف فلم يزد على قوله: «لو سال الزيت على أرض المسجد أو الفندق لما وجدت غضاضة في أن أستعيده وآكل منه...».

وقد بلغت النظافة في الناس هنا حد المبالغة بالنسبة إلى ما نعهده، حتى ان الأندونيسي ليستحم أكثر من مرة في اليوم. وذات يوم —وكنا في سورابايا— أردت ممازحة مرافقنا السيد سراج، فقلت لأحدهم: إن صاحبنا هذا عاشق للماء حتى لا يكاد يفارقه.. أفكل أندونيسي كذلك؟ فأجاب: كلا.. إن الأندونيسي لا يغتسل في اليوم أكثر من مرتين...

مرتين!.. فهل هناك شعب يلازم الاستحمام مرتين في اليوم الواحد غير الشعب الأندونيسي؟.. لا أدري.

على أن نظافة الظاهر في الأبدان والمكان، لابد أن يعكسا نظافة الداخل.. وفي ظني أنها

متوافرة في الطبع الأندونيسي بشكل ملحوظ. وهذا ما اقتنعت به من خلال تجوالي في مختلف الجزر، ومعرفتي لمختلف الأفراد.

ولكن من غرائب المفارقات مع ذلك أن يرى السائر في جاكرتا ــ وغيرها من كبريات الحواضر الأندونيسية ــ تلك الخنادق الممتدة على جوانب الشوارع، وهي تحمل ضروب الأوساخ والفضلات، فتطلق الروائح الكريهة، وتمنح أصناف الحشرات أصلح البيئات للتكاثر... ومعلوم أن لسيول الأمطار حكمها في وجود هذه الخنادق، ولكن لابد من التساؤل: لماذا لا تغطى حماية للناس من أخطارها الرهيبة!.. وهكذا تجمع جاكرتا وأخواتها بين النظافة في أروع مظاهرها، وهذه الأوساخ في أسوأ صورها..

ولا ندري من الملوم على هذه الشواذ.. أمؤسسات الصحة أم الشعب الذي ألفها!...

في الجامعة الحكومية

لم يكن في الجامعة ــ أثناء زيارتنا ــ سوى بعض الإداريين، فالطلاب والأساتذة في إجازة رمضان، وكذلك المدارس على اختلاف نسبها ومستوياتها، وذلك أحد مظاهر ذلك الشهر الكريم في أندونيسية البارزة في كل مكان: المسجد والجامعة والمدرسة والشوارع، وبخلاف المشهود في تركية مثلا لا تكاد تلمح امرءا يدخن أينما سرت.. وأما المساجد فحدث ولا حرج عن ازدحامها بالمصلين والمصليات في العشاء الآخرة، وفي صلاة القيام ــ التراويح ــ.

واستقبلَنا مديرُ الجامعة الأستاذ هارون ناسوتيون، وبعربية صحيحة أتقنها في الأزهر جعل يرحب بي، ويرد على أسئلتي حول التعليم والطلاب واللسان الأندونيسي، وما إلى ذلك من الاستطلاعات التي أحببت الحصول على أجوبتها.

وكان مضيفي الأستاذ عبدالرحمن قد فاتحني برغبته في إلقاء محاضرة حول تعليم العربية لغير الناطقين بها، فلم أر مانعا من ذلك، بل وجدتها فرصة صالحة لعرض ما لدي من تجارب ودراسات في هذا الجانب، فتكون مناسبة كذلك للاستفادة من تجارب الإخوة مدرسي العربية هنا، ولا سيما أن الذين سيُدعون لحضورها هم أصحاب الاختصاص في هذه المادة سواء من هذه الجامعة أو سواها.. وتركت للأساتذة أن يحددوا للمحاضرة موعدها المناسب.. ولكن يؤسفني أن ذلك لم يتم في ما بعد، إذ حالت أسفارنا دون الاستقرار في جاكرتا، ومنذ فارقت منزل ذلك المضيف الكريم ــ بعد الأيام الثلاثة ــ لم تتح لي رؤيته إلا يوم مغادرتي أندونيسية.

وكان المأمول أن يكون انتقالي من منزل الأستاذ إلى المقر الذي رجوت أن يؤمَّن لي في المكان المناسب، ولكن الأخ سراج الدين أبي إلا أن انتقل إلى ضيافة نسيبه الأستاذ علي تامين النائب

في البرلمان الأندونيسي، فلم أجد مفرا من قبول تلك الدعوة ولا سيا بعد أن سبقتني حقيبتي إلى هناك، وفي الحديث (المرء مع رحله)..

وأول ما سجلته ذاكرتي من الانطباعات عن تينك الضيافتين هو الفرق بين منزلَيْ الأستاذ في الجامعة والنائب في البرلمان، فمع تقارب ما بين الصديقين المضيفين من كريم الأخلاق وصادق الود، لا يجد الوافد مندوحة عن ملاحظة الفرق في الوضع الاجتماعي هنا وهناك، فبينا ترى البساطة بل ما دون البساطة في وسط الأستاذ الجامعي، تواجه ما يشبه الترف في بيئة النائب.. ومرد ذلك إلى البون الشاسع ما بين الراتبين..

تباين الموارد

في أحد لقاءاتنا مع بعض مديري مدارس (بنجرماسن) في جزيرة كلمنتان سألت عن الراتب الذي يتلقاه المعلم من حملةالثانوية في المدارس الأهلية، فإذا هو يبدأ بأقل من ثلاثة آلاف روبية ــأي خمسة عشر ريالا سعوديا ــ ثم يتدرج هذا الدخل حتى يصل بحامل الإجازة الجامعية إلى ثلاثة أضعافه، فإذا علمنا أن مرتب النائب لا ينزل عن المائتين وأربعين ألف روبية ــ كما فهمت ــ أي عشرين ضعفا ــ أدركنا إحدى الظاهرات الكبرى التي تتحكم في سياسة الدولة، إذ تجعل النعيم من حظ النواب والوزراء وأشباههم.. على حين يكافح الآخرون بكل طاقاتهم لتأمين الضرورات الأولى لحياتهم. ومن هنا نطل على الأسباب البعيدة في سكوت النواب ــ أو سوادهم الأعظم ــ عن أي تصرف غير معقول في مسيرة الحكم. لأنهم في المعارضة سيتعرضون لفقدان كل هاتيك الامتيازات.. وذلك هو واقع الحياة السياسية في معظم ديار الإسلام، وبخاصة المناطق الخاضعة لأنظمة الطوارىء والاشتراكية..

وقد حدث أن سألت مرافقنا الأستاذ سراج الدين عن تطلعاته إلى المستقبل والمسلك الذي يؤثره فأجاب لفوره: «مجلس الشعب..» قلت: «ولماذا اخترت لنفسك هذا الاتجاه؟..» قال: «لأنه السبيل الوحيد لإصلاح الأوضاع..» قلت: «أرجو ألا يكون دافعك إلى ذلك هو المئتين والأربعين..» قال: «بغير المال الكثير لن نستطيع عمل شيء... وحسبك في ذلك قول رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»».

أجل.. إن هذا التباين الكبير في موارد الناس هنا وفي كل مكان من ربوع الإسلام هو البؤرة التي يعشش فيها الشيطان ويفرخ، وفي أندونيسية أهول الأمثلة على الواقع الرهيب، ذلك لأن أخصب أرض في الدنيا يعيش عليها أفقر شعب في العالم، إلى جانب طبقة من الكبار تكاد تحتكر لنعيمها وترفها كل شيء.

وسيرى القارىء لهذه الحلقات نماذج من ذلك تُبكي وتضحك..

وقضيت في ضيافة الشيخ علي تامين ــ كما يسميه سراج ــ أربعة أيام/ ٥ـ ٨ من رمضان ــ وعلى الرغم من فقدان كل صلة لغوية بيني وبين أهل ذلك البيت، كنت أشعر أني في الأدنين من أهلي، وقد سد الأخ سراج فجوة ذلك الفراغ اللغوي بملازمته إياي، هذا فضلا عن الأنس الذي شملني به الشيخ علي بدعوة العديد من الإخوة المؤمنين إلى مائدة الإفطار، وفيهم من يتكلم العربية بطلاقة، وأذكر منهم ذلك الشيخ الفاضل الذي اسمه الحسن البصري، وهو من ذوي الأتباع كما علمت، وتَلَقَّى دراسته على شيوخ الحرم المكي.

الشيخ المسالم

وعلى ذكر هذا الفاضل لابد لي من الإشارة إلى بعض ما لاحظته عليه، وهو حبه الكبير للمسالمة والبعد عن النقاش، وان أدى ذلك إلى السكوت عما لا يحسن السكوت عليه.

كان في البهو الذي اختير لإفطارنا بعض التماثيل ذات الطابع الوثني الهندي، فلفت نظره إليها، وذكرته بالنصوص النبوية المحذرة منها، والتمست منه أن يبذل نصحه لصاحب المنزل بضرورة إزالتها.. ولكنه لم يفعل وتجاهل الحديث كليّا.. وكذلك رجوت منه أن يدعو المدخنين من الحضور إلى الإفادة من الصوم للإقلاع عن هذه السموم التي بدأ حتى الكافرون بالانصراف عنها في أميركة وأوروبة.. غير أنه ظل على تجاهله.. واسترعيت انتباهه إلى ذلك الضجيج الذي يحدثه المصلون في المسجد المجاور حتى يملأوا به فضاء الحي، ومخالفته للسنة الصحيحة التي تأمر بالخشوع وعدم التشويش.. فصمّ كأن في أذنيه وقرا...

الطبيعة الأندونيسية

وفي هذا البيت الكريم تعرفت غير قليل من طبيعة الخلق الأندونيسي.. ثم تأكد لي ذلك من خلال تجوالي في العديد من الجزر والمدن. ولعل أبرز هذه الخصائص ماثلٌ في شيئين متلازمين، أحدهما صفاء النفس الذي يترجم واقعه بذلك التهذيب الرفيع في الحديث والحوار والسلوك. ولا أدل على ذلك من أني لم أشهد خلال وجودي وتنقلي في تلك الجزر أي خلاف أو شجار بين اثنين، بل لا أذكر أني سمعت قط صوتا يرتفع أكثر من الحاجة في أي مناسبة.

ومن أمثلة هذا الأدب ما وجدناه في مدينة دنباسر من جزيرة بالي حيث اتفقنا مع سائق أجرة لنقلنا من المطار إلى فندق مناسب، مقابل رسم مقطوع، وانتهى بنا إلى فندق كان ذات يوم قصرا لسلطان المدينة البوذي، ولا يزال يحمل طابعه الملكي بكثرة الغرف، وسعة المساحة، وتعدد الأقسام، وانتشار التماثيل في الداخل والخارج.. ولكن صاحبي لم يرض عنه فطلب من السائق أن يحملنا إلى فندق خير منه، ففعل، وسار بنا إلى آخر ولكنه لم يُرضه.. وفي أدب بالغ قال السائق:

«لقد قمت بالواجب، وبات عليكم أن تزيدوا الأجرة مقابل هذه الزيادة وإلا كنت مسؤولا أمام صاحب السيارة..».

وكان الرد من صاحبي عنيفاً ظهر في لهجته الغاضبة، وإن لم يفهم السائق من كلامه شيئا. ومع ذلك لزم الرجل هدوءه وخضع للواقع، ورضي أخيرا أن يعيدنا إلى الفندق الأول دون أن يطالبنا بشيء...

أما الخاصة الثانية فهي رهافة الشعور التي تستجيب لأقل بادرة لطيفة... فأنت أنّى سرت لا تعدم أن تسمع ضحكة تنطلق من عدة حناجر في آن، لأن هؤلاء سمعوا من أحدهم عبارة لامست حساسيتهم، فلم يتمالكوا أن يستقبلوها بهذه الهتفات الراضية..

إنك لتسمع هذه الضحكات البريئة في المجالس الخاصة، وفي المدرسة، وحتى في المسجد.. وإني لأوكد هذا من خلال مشاهداتي في كل من هذه المواضع، وأكتفي من ذلك بعرض مثل واحد شهدته في مسجد (جوت مطيعة) بجاكرتا. فمن عادة القوم في أماسي رمضان أن يفصلوا بين الفريضة والتراويح بمحاضرة يلقيها على المصلين رجل أو امرأة... وفي تلك الأمسية كان المحاضر أحد المُدرسين ــ كما أخبرني أحد الإخوة هناك ــ فأصغيت إليه أتسقط معانيه من خلال نبراته وقسمات وجهه وإشارات يده.. وفجأة جعل يحرك قبضته مع عبارة مركزة، فإذا الجمهور ــ الذي يزدحم به المسجد ــ ينفجر بضحكة عالية يدوّي بها فضاؤه، فيترجم بذلك عن انفعاله بكلمات الخطيب، واستجابته لعامل النكتة الموفقة.. دون أن تثير هذه الظاهرة أي ملاحظة، أو ترسم أي علامة استغراب على غير وجهي..

واتفق أن رأيت قبل أيام طالبا أندونيسيا يرسل واحدة من هذه الضحكات في حجرة الجوازات بالجامعة، فلم يطق الموظف احتمالها، ووجه إلى صاحبها ألوان التأنيب، ولو هو قد علم ما أعلم من براءة هذه الظواهر لشاطره ضحكه بدلا من تأنيبه.

في المسجد

ويواجه منزل مضيفي النائب علي تامين مسجد (نور الهدى) الذي بدأ يستقبل أفواج المصلين من أهل الحي قبل أن يستكمل بناءه.. ويتولى الإمامة فيه ــ ولعله بصورة مؤقتة ــ واحد منهم وجدت لتلاوته الخاشعة صدى عميقا في نفسي ونفوس المصلين، ولا عجب في ذلك. فالمحسنون لتلاوة القرآن في جنوب شرق آسيا لا يُحصون عددا، وحسبهم فضلا أن الفائز بالجائزة الكبرى في مسابقة التلاوة للعام الماضي بمكة المكرمة كان من أندونيسية.

ولم أكن في حاجة لعرض رغبتي في التحدث إلى هؤلاء القوم، لأن الأخ سراج الدين يكفيني مئونة ذلك بنشاطه الحار في خدمة الدعوة.. إذ هو في الجامعة الإسلامية الحكومية رئيس اتحاد الطلبة، إلى كونه عضوا عاملا في عدة جمعيات توجيهية، وبذلك فرض عليّ التقيد بمخططه في كل مناسبة يراها صالحة للدعوة، وقد بدأ ذلك منذ وجودي في ضيافة الأستاذ عبدالرحمن بارتوسانتونو، إذ أخبرني أن طلابا ينتظرون حديثي في أحد المساجد من هذا الحي بعد صلاة الفجر.. وكلفنا ذلك مشقة غير قليلة، إذ كان المسجد بعيدا، والأرض موحلة، ولا يزال الرذاذ يتناثر في أعقاب مطرة كبيرة..

وسعدت يومئذ بلقاء هؤلاء الفتية، الذين أعقبوا الحديث بأسئلة حية تعبر عن أعمق مشكلات الشباب الإسلامي..

وهكذا أعلن سراج لرواد نور الهدى أن لي حديثاً إليهم عقيب الصلاة من كل صباح.. وتولى هو ترجمة هذه الأحاديث في أسلوب حاول أن يساير به نوعية المعاني، فيعطي كل عبارة ما تستحقه من الشدة واللين، والارتفاع أو الانخفاض.. وكان يستعيد عبارتي كلما وجد حاجة لذلك، حتى يتمكن من أدائها على أحسن وجه.

وقد ساعدني على إيصال المراد دراسته الأدبية سواء في العربية أو الاندونيسية، فهو ذو مواهب ممتازة في الأدب وذو تحصيل جيد في الثقافة الإسلامية، يرفدها وعي فكري وحماسة للإسلام أتمني لو يتوافران لكل شاب يعمل للإسلام.. وقد لاحظ ذلك مثلي فيما بعد زميلي الشيخ ناصر، الذي وعد بالسعي لقبوله في المعهد العالي للدعوة الإسلامية، التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود في طيبة المباركة، بمجرد انتهائه من مرحلة الدكتوراة إن شاء الله.

نشاط إسلامي

وجاءني سراج ذات يوم يؤذنني أن جمعية (نور الإسلام) للأمهات والفتيات تدعوني لإلقاء محاضرة في ناديها، وقد ضربت لذلك موعدا عصر اليوم، حيث تكون أعضاء الجمعية من المدرسات والطالبات والعاملات في الخدمة الإسلامية حاضرات هناك.

واستوضحتُ سراجاً عن هُوية الجمعية وألوان نشاطها، فقال: إنها مؤسسة اجتماعية هدفها توجيه النسوة المسلمات على اختلاف مستوياتهن إلى القيم الإسلامية، **وتعميق** فهمهنّ لروح الإسلام على ضوء الكتاب والسنة، هذا إلى عناية بتقوية الطالبات منهنّ في دروسهنّ، وتدريب الأمهات على بعض الصنائع المناسبة والتدبير المنزلي. **وترئس** الجمعية امرأة فاضلة هي أستاذة

جامعية كانت لفترة مضت عضوا في البرلمان الأندونيسي، وهي مع زوجها الأستاذ الجامعي من المعروفين بالنشاط الدائب في نطاق الدعوة..

ولم يكن ثمة متسع للتردد بعد أن قطع سراج الوعد وضرب له الموعد.. وبخاصة أنه مستشار لتلك الجمعية فهو حريص على أن يمدها أبدا بكل ما من شأنه أن يرفع من شأنها.

وفي الساعة المحددة وصلنا إلى النادي، وهو في الحيّ نفسه الذي يقع **فيــــه** مسكن مضيفي، وكانت الرئيسة وبعض مساعداتها ينتظرننا على المدخل، وبادرناهنّ بتحية الإسلام، وقد سرني أنهن اكتفين مثلنا بالتحية دون أن يمددن يدا للمصافحة، فكفيننا بذلك مئونة الاعتذار، كما يحدث لنا في كثير من المناسبات التي يشهدها النسوة، فنضطر للاعتذار عن مصافحتهن لورود النهي النبوي عن ذلك.

وظاهرة أخرى كنت بها أكثر سرورا، تلك هي الحشمة العامة التي بدت فيها هاتيك العشرات من المؤمنات.

لقد كنَّ **جميعاً** على الصورة الصالحة للصلاة، اللهم إلا واحدة كانت حاسرة الرأس وكأنها تشهد مثل هذا الحفل الإسلامي لأول مرة، ولعلهن تركنها لعادتها تألُّفاً لها، ورجاء أن تثوب بنفسها إلى المسلك الأفضل.

وإنما ضاعف سروري بذلك المظهر الإسلامي ما رأيت عليه النساء المتدينات في هذا البلد، حيث يأتين إلى المسجد كاسيات عاريات حاسرات الرؤوس والأذرع، وفي يد كل واحدة منهن كيس منتفخ، فإذا بلغن داخل المسجد استخرجن منه الخمار والثوب الخاص بالصلاة، حتى إذا ما حان موعد مغادرتهن المسجد خلعنها ورددنها إلى الكيس فلا يغادرانه إلا للصلاة الأخرى!

شهدت ذلك في مسجد مطيعة وفي مسجد الاستقلال الكبير وفي غيرهما من جاكرتا وفي معظم الحواضر التي زرتها من اندونيسية.. لا يستثنى من ذلك إلا المتقدمات في السن، وبخاصة اللواتي أتيح لهن أن يؤدين فريضة الحج..

وأدرت الحديث في هذه الندوة حول نقطتين اثنتين، أولهما: دخول الإسلام تلك الجزر وأثره في حياة أهلها حتى اليوم، والأخرى منزلة المرأة في الإسلام، وأثرها كذلك في بناء المجتمع الإسلامي.. وضربت لذلك الأمثال من تاريخ صدر الإسلام، **وذكرتهن** ببعض النماذج من نساء السلف ومواقفهن الخالدة.

وقد لاحظت أن كثيرات منهن كن يجمعن بين الاستماع والكتابة، ثم ظهر لي بعد ذلك أنهن

مكلفات تلخيصَ المحاضرة، وتحليل منطلقاتها الرئيسية، إذ جاءني الأخ سراج في يوم تال بمجموعة من هذه الملخصات كتب بعضها بالأندونيسية وبعضها بالعربية..

ولدى عودتنا من تلك الندوة قَدّم إليّ الأخ سراج علبة معدنية كالتي تحفظ فيها الحليّ وهو يقول: هدية للذكرى من الأخت رئيسة الجمعية. قال ذلك وهو يفتحها فإذا ضمنها خمس قطع معدنية كذوات القرش، وعلى كل منها اسم (الله) جل جلاله.. ولعمري أنها لهدية جديرة بكل تقدير تذكّرني بالمعنى الأعلى الذي يربط بين مسلمي العالم..

رواسب استعمارية

وفي اليوم التالي، وهو الجمعة الأولى التي شهدتها في أندونيسية، كان عليَّ أن أيمم شطر الملحقية لأعرف نتيجة مسعى موظفيه لتأمين السكن المنشود الذي رجوت منهم تأمينه..

ومعلوم أن مكتب الملحق ــ كسائر المؤسسات الرسمية ــ يتبع نظام الدولة في تعطيل الأحد دون الجمعة، وهي إحدى الركائز الاستعمارية التي خلفتها الصليبية في تركية والمغرب وأندونيسية وغيرها من ديار الإسلام.. هذاإلى جانب الصليب الأحمر، الذي استبقوه شعارا ثابتا على مؤسسات العون الصحي.. وقد استكان الناس دون أسف لهذا التنظيم الصليبي، حتى لم يعودوا يستغربونه فضلا عن أن يستنكروه..

وفي المكتب كان الأخ الشيخ خليل رضوان ينتظر ليريني المكان الذي وُفق اليه.. وقد طال الطريق إليه، وأخيرا وافيناه فإذا هو مجموعة من الأبنية الجديدة، شيدت لتجميع الراغبين في أداء فريضةالحج، وقد اعتاد المسؤولون عنها أن يؤجروا غرفها خلال السنة بمبالغ رمزية بدل تعطيلها. والحق أنه مسكن صالح، إلا أن بعده عن المكتب وعن السوق، إلى فقدان وسيلة التفاهم مع خدمه، كل ذلك حال دون حلوله.. فعدنا أدراجنا لنبحث عن مقر سواه.

وكان موعد الصلاة قد اقترب، وعلى الأخ خليل أن يتوجه إلى المسجد الذي سيلقي فيه خطبة الجمعة. ومالت بنا السيارة إلى أحد المنازل الواقعة في منتصف المسافة، وهناك عَرّفَ بيني وبين نسيبه التاجر، الذي بنى على نفقته المسجد الذي كلفتُ أن أتحدث فيه إلى المصلين عقيب الصلاة.. ثم لم يدعني الحاج أسموني هذا إلا بعد أن وعدته بالعودة مع خليل لتناول طعام الإفطار. ولا يفوتني أن أشير إلى ما لمسته عند هذا الرجل من المميزات، فهو ذو حس ديني يواجهك في حديثه ــ المترجم طبعا ــ وفي بنائه لمسجدين أحدهما هذا الذي أشرت إليه، وهو غاية في البساطة والرشاقة، والآخر قاعة فسيحة في الدور الأول من منزله قد خصصها لجماعة النساء. والظاهر أنها كذلك مركز تُلقى فيه الدروس الدينية عليهنّ..

أما الصفة الثانية فتبدو في تلك الرسوم الفنية التي تمثل صيادا يلاحق بسهامه طريدة.. وهي صورة مصنوعة من الرقائق الحديدية ضمن المشبك الحافظ للباب. ولا عجب في ذلك فالموسيقى والتصوير من الفنون المسيطرة على سواد هذا الشعب، ومن المتعذر أن تقنع أحدا منه بأن ذلك حرام في الإسلام أو فيه شبهة حرام.. ومع ذلك فقد نصحنا الرجل وحاولنا إثارة ضميره بعرض النصوص القاطعة في الموضوع، وبوجوب الطاعة لله ولرسوله دونما اعتراض بل بالتسليم المطلق الصادر عن منتهى الرضى بحكم الله ورسوله..

الاختلاف على التراويح

وفي (بيت الإخلاص) كان موعد حديث ما بعد العشاء.

وإلى ذلك المسجد حملني الشيخ خليل دون أن أعلم شيئا سوى أننا سنصلي العشاء والتراويح هناك. والمسجد هذا على شاكلة مساجد الأحياء الأخرى، أجمل ما فيه نظافته، وهو بناء متواضع زُيِّنت أعالي جدرانه بآيات الله، وفرشت أرضه بالقطيفة التي يسمونها: الموكيت، وقد فُصل منه جزء خاص للنساء أرخيت عليه الستور.. ولما حان موعد الصلاة حاول الإمام الشاب تقديمي كالكثيرين غيره فاعتذرت على الرغم من الحاحه، وانتظمت خلفه، وكانت صلاة متأنية أُدِّيت فيها الأركان في طمأنينة لا يكاد المصلي يفقدها في أي مسجد بأندونيسية، ولعلى لا أُغالي إذا قطعت بأنك لن تفقدها في أي مصل في أندونيسية.. فالطمأنينة والسكون المصور للخشوع أبرز سمات هؤلاء الناس في صلواتهم، سواء كانت صلاة فرد أو صلاة جماعة، بل إن الاستراحة الخفيفة بين السجود والقيام توشك أن تكون عامة شاملة لكل مصلٍّ، وهي السنة التي نكاد نستغربها ونفتقدها خارج هذه الجزر، ومن حقنا أن نتذكرها عندما نرى أولئك الذين لا يكادون يرفعون رأسا من ركوع أو سجود، والآخرين الذين إذا دخلوا الصلاة انطلقت أعضاؤهم تعبث كأنهم لاعبون لا مصلون!..

وتوقف الإمام قليلا عقيب الفريضة وما تلاها من أذكار، كأنه يتساءل: هل ثمة من يريد التحدث؟.. ولما لم يجد لذلك من أثر نهض ونهضنا معه إلى التراويح، حتى إذا فرغ منها غادر المسجد وتتابع وراءه أكثر المصلين..

ولا أذكر الآن عدد الركعات التي أديناها خلف ذلك الإمام من صلاة القيام، أثمان أم عشرون؟.. لأن عددها يختلف باختلاف الأئمة، وهؤلاء مختلفون باختلاف الجمعيات ــ أو الجماعات ــ التي ينتسبون إليها. وأهمها في أندونيسية أربع: المحمدية والإرشاد والشافعية والنهضة.. والأخيرة هي التي يرئسها الشيخ أحمد شيخو، وتنتشر فروعها على مستوى الجزر الكبرى كالجماعات الأخرى، والمتنقل في هذه الجزر لابد أن يواجه آثار الأربع بارزة في حياة الناس،

وبخاصة في المساجد والمدارس الكثيرة التي هي أوسع مجالات النشاط في كلّ من هذه المؤسسات.

ومن ظواهر ذلك الخلاف في التراويح أن المساجد التي يشرف عليها شيخ النهضة الأكبر تلتزم العشرين في ركعات القيام، على حين يقتصر المحمديون والإرشاديون على الثمان. وكثيرا ما وردت عليَّ الأسئلة في شأن هذا وذاك فيكون جوابي: أمّا أنا فأتابع فيها ما يؤثره الإمام، فوراء هؤلاء أصليها ثمانيا، وخلف أولئك **أؤديها** عشرين، ولو صلاها الإمام أكثر أو أقل لما خالفته، مادام يؤديها مثنى مثنى وفقا للتوجيه النبوي في النوافل، وإذا تفاقم الخلاف حولها إلى ما يخشى شره فصلاتُها في البيت خير وأبقى.

ولا يقف خلاف الفرقاء عند عدد هذه الركعات، بل يتعداه إلى أشياء أخرى، أهمها أن جماعة النهضة وأشياعها يمثلون المحافظة على الموروث دون نظر في الدليل، حتى ان مساجدهم لَتُدَوّي بالصياح، وتُبحُّ فيها الأصوات بألوان الدعاء الذي قلما يخلو من الشذوذ.. مثل قولهم، في انشاد يترنمون به عقيب كل ركعتين دون أن يفقهوا ما ينطقون:

شي لله يا رمضانْ بالقبول والغفـــرانْ

يـبـدأ الـترنيمة مؤذن المسجد، فيرددها الحضور خلفه في نغم رتيب، وهم لا يعلمون أنهم يدعون بها غير الله، ويسألونه حاجتهم في بيت الله الذي يقول فيه: (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا).

مع الجامعين

قلت إن أكثر المصلين قد انفضوا وراء الإمام، ولم يبق إلا عدد قليل لبثوا مثلنا متأخرين، ولم يغادر قسمَ النساء من المصليات إلا أقلهن.. وما هي سوى دقائق حتى بدأ المسجد يستقبل العديد من الفتيان الذين أقبلوا فرادى وجماعات حتى أوشك المسجد أن يمتلىء بهم.

وهنا همس لي الشيخ خليل يقول: هؤلاء طلاب جامعيون يريدون أن يعقدوا معك ندوة خاصة:.. فرحبت بالفكرة وانصرفت إلى الشباب أحييهم، ثم قدمت للندوة بكلمة ذكرت فيها انطباعاتي عن إخوانهم من الفتيان الأندونيسيين الذين يتلقون دراستهم في الجامعة الإسلامية، ولم أقل إلا الحق الذي علمته عن سلوكهم الطيب واجتهادهم الفائق، الذي مكّن لبعضهم أن يكونوا في المقدمة.. وضربت المثل لذلك بهؤلاء الذين تخرجوا في الجامعة الإسلامية خلال العشر السنوات الأخيرة، وهم الآن منتشرون كالكواكب في مختلف الجزر الأندونيسية، يُعَلِّمون ويُرَبُّون ويسهمون في نشر التوعية الإسلامية وتعميقها.. ثم أنهيت كلمتي بإبداء استعدادي لتلقي كلماتهم..

وجاءت الأسئلة تترى وفيها السطحي والجوفي والقصير والطويل، وكلها منصب على القضايا الإسلامية، ومستقبل الإسلام، ومسؤولية الشباب الإسلامي نحوه.. وكان أول هذه الأسئلة قول

أحدهم: هناك محاولة لقصر المسجد على أداء الصلوات وحدها، واستبعاد كل ما عداها عن حدوده، ولا سيما الكلام في السياسة.. فما حكم الإسلام في ذلك؟.. وما موقف الإسلام من السياسة..؟

وفطنت إلى ما يريده الفتى، فهو يثير قضية الساعة التي يواجهها الجيل الإسلامي في كل مكان حول نظام الحكم، وموقف الدولة بين الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية.. وما كان ليفوتني ما يعانيه دعاة الإسلام في هذه البلاد من ضغط يريد تجميد بل وأد كل نشاط إسلامي، ليفسح المجال واسعا أمام كل دعاية معادية للإسلام حتى التبشير بالنصرانية، وتشجيع التقاليد الباطنية الجاوية.. ومهما أنس لا أنس ذلك التوجيه الرسمي الذي ألقاه مسؤول أندونيسي كبير على طلابنا الأندونيسيين قبل قليل من الزمن، يوم جمعهم على حدة ليبلغهم أن واجبهم الأكبر هو إعداد أنفسهم لمجتمع (بانجاسيلا) وحده مع استبعاد أي تفكير في موضوع الحكم الإسلامي.. ولم ير ذلك المسؤول الكبير ضرورة لكتمان هذا التصميم إذ أعلن لوكالات الأنباء، وهو في طريقه يومئذ لحضور مؤتمر القمة الإسلامي في الرباط (اننا دولة أكثر سكانها مسلمون، ولكننا لسنا دولة إسلامية) وكأنه أراد بذلك التصريح أن يضع المؤتمر أمام الواقع الذي يريده حكام أندونيسية، فلا يكلفهم بأي مسؤولية تتجاوز حدود المجاملة، أو تتعارض مع التزاماتهم نحو أمريكة حامية الصهيونية والنصرانية[1].

وقد شاء الله أن أتلقى هذا السؤال في جو الصراع السياسي الكبير الذي تخوضه أندونيسية العزيزة هذه الأيام، بعد الفضيحة التي كشفتها محاكم سنغافورة عن وجوه بعض الكبار، الذين في سبيل الحصول على عشرات الملايين من الدولارات لم يتورعوا عن التعامل مع إسرائيل، حتى في صفقات السلاح يزودون به جيشهم من مصانعها.. وقد بلغ الصراع ذروته بالانتفاضة التي أثارتها (عريضة الخمسين) ضد الاستغلال الذي يريد تحويل مرافق الدولة إلى ملكيات المنتفعين من عهد البانجاسيلا.. تلك العريضة التي انتشرت أخبارها في مختلف أنحاء العالم، والتي بدأت تزلزل أركان الاستبداد، على الرغم من كل وسائل الإرهاب.

ولكن .. ماذا يستطيع مثلي أن يقول في جواب هذا السؤال؟

وتجاهلت ما وراء الاستيضاح من خلفيات.. وجعلت جوابي حديثا عاما عن شمول الإسلام لكل ما هو مصلحة للجنس الإنساني فردا وجماعات، وذكّرت بأن السياسة هي فن الحكم في إصلاح شؤون العباد، ومساعدتهم على تأمين الحياة الكريمة التي لا ظلم فيها ولا هوان. ولن يوجد عاقل في الدنيا يقول باستبعاد هذه المعاني عن بيوت الله، بل ان بيوت الله ــ كما يجب أن تكون ــ هي المصدر الأول لتحقيق هذه المعاني بالدعوة إليها والتحذير مما يناقضها، عملا بقول الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..).

---

(١) في العدد: ٤٠١/١٠/١٠ من مجلة الاعتصام القاهرية يقول (أبو ذر) ان سوهارتو صرح في مؤتمر الاعلام الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بجاكرتا (أن أندونيسية دولة لا دينية).

ثم تلا ذلك السؤال أسئلة لعل أهمها اثنان: أما أحدهما فعن الثورة الإسلامية في إيران.. وكان ذلك رجْعاً لبعض الصدى الذي لا يزال يهز ضمائر الشباب المسلم بإزائها في مختلف أنحاء العالم. وطبيعي أن يكون ذلك الصدى أبعد وأكبر كلما كان البلد المسلم المنفعل بها أشد تصورا لجرائم أمريكة بحق العالم الإسلامي، وبخاصة في احتضانها لدولة اليهود.. وتأجيجها لنيران الفتن بين أقطار المسلمين.

وكان جوابي على ذلك الاستفهام تلخيصا لمقاليَّ اللذين سبق أن نشرتْهما جريدة المدينة في جدة بعنوان (إيران العزيزة.. إلى أين؟) وهما عرض موضوعي لإيجابيات تلك الثورة وسلبياتها، إذ كان فيها الخير الذي استحق فرح المسلمين وتأييدهم بهدم الطغيان، والتحرر من أمريكة، ومجابهة ربيبتها إسرائيل، وإقامة الحدود الشرعية، وإلغاء الربا، وتعطيل مصانع الخمور، ومحاربة التفرنج في الفرد والأسرة والمرأة، واتخاذ العربية لغة مقارنة للفارسية.. وما إلى ذلك من المبشرات التي صفقنا لها بقلوبنا قبل أيدينا، وفيها ما لا يتفق مع الخط الإسلامي من تهديد لحرية الجيران المسلمين، وقد أمر الله ورسوله بإكرام الجار، ثم إعلان التأييد لحكام يعلم قادة تلك الثورة أنهم يقتلون المسلمين ويهتكون أعراضهم، ثم إقدام متطرفيهم على مصادرة الدبلوماسيين، وهم في حكم الشريعة ضيوف لهم حق الحَصانة في حماية الإسلام، مما ألب عليهم أمم العالم، وأوقع في أخلادها أن ذلك التصرف الجاهلي هو من خصائص الحكم الإسلامي.. وما إلى ذلك من أخطاء لا تزال في ازدياد وتضخم..

أما السؤال الآخر والأخير فقد كان صورة من الدعايات الصهيونية ضد هذه المملكة، تستهدف إضعاف ثقة المسلمين برجالها، ولم يكن الجواب عسيرا فقد ذكرت السائل بالحقيقة التي لا يحسن بمسلم أن يجهلها وهي أن هذه المملكة تمثل الوجه الإسلامي المشرق في عالم مشحون بالظلمات، وليس من مصلحة الكفر الإبقاء على هذه الصورة، فهي من أجل ذلك تنسج الأكاذيب لِتشوهها. وحسب المسلم أن يتذكر أنها شهادة كافر حتى يرفضها جملة وتفصيلا.

هنا أندونيسية

قال مرافقنا الشيخ خليل رضوان: لابد لزائر جاكرتا من مشاهدة (بستان أندونيسية).

قلت: إذن لابد أن يكون لهذا البستان أهمية خاصة، فقال: هو كذلك لأنه معرض عجيب لمختلف أوضاعها الطبيعية ومميزاتها العمرانية والاجتماعية والدينية والجغرافية والتاريخية.. فهو مجسَّم مصغر لهذه الجزر على امتدادها وتعدد طوائفها وعروقها البشرية.

وعيّنا لموعد الرحلة إلى ذلك البستان ضحى اليوم التالي -٨/ ٩/ ١٤٠٠- وحملتنا سيارة

الدكتور محمد ناصر ــحفظه اللهــ إليه في طريق يذكرنا بقول شوقي في وصف رحلته من لبنان إلى دمشق:

حسبت لبنان جنات النعيم وما علمت أن طريق الخلد لبنان

والحق أن من المتعذر إيثار جانب من جاكرتا **وأرباضها** على آخر، إذ الكل في النضرة والروعة سواء..

وانتهينا إلى المزار المنشود بعد مرحلة طويلة خلال أنواع الأيك.. وفي طرق لامعة لا تشكو عوجا ولا أمتا. وعلى مدخل الممر الكبير توقفت السيارة لندفع رسم العبور بضعة آلاف من الروبيات. وأؤكد على لفظة (العبور) لأن هذه الآلاف تعطينا فقط حق تجاوز المدخل إلى الرحاب الفسيحة الممتدة مسافات من الكيلومترات. ولكن المعرض الكبير يتفرع إلى أقسام لا يسعني استيفاؤها، وعلى المستطلع أن يؤدي الرسم عند كل قسم. وقد آثرنا ارتياد المناطق بالسيارة فكان علينا أن ندفع عن السيارة رسوما أيضا. وليس للقارىء أن يعجب من كثرة هذه الرسوم، فانها من الأمور التي يجب أن يألفها السائح، لأنها تحاصره أينما ذهب في أندونيسية. فهو في الفندق يؤدي مع الأجرة نسبتها المقررة من الضريبة، وفي المطار لا مندوحة لك عن الضريبة، ولو كان سفرك على حساب السفارة أو الملحقية.. وحتى في بعض الأسواق الكبرى لا يسوغ لك دخولها ما لم تدفع الرسم أولا..

وما أدراك ما البانجاسيلا

وصدق صاحبي فيما نعت به هذا البستان العجيب، فأنت تجوب خلاله وكأنك تنتقل بين جزر أندونيسية كلها، فتشاهد ما لا يتاح لك أن ترى بعضه في سياحتك، ولو استغرقت الأعوام بدل الأيام.

لكل جزيرة في المعرض نماذج من حيواتها مجسمة لعينيك في أشكال البناء، وأنواع الحيوان والطير والهوام والمعابد، وما لا يحصى من المعالم والمشاهد.

ودعني أقف بك على مَعْلَمَينِ من هذه النماذج، أحدهما تلك المعابد الممثلة للأديان الرئيسية في أندونيسية.. والثاني حدائق الطير الجامعة لكل أنواعه.

لقد أراد المخطط الأندونيسي أن يغمرك بالجو الديني الذي تعيشه الطوائف المنتشرة في أنحاء أندونيسية، فجمع بين المسجد الإسلامي والمعبد الوثني ــعلى اختلاف أشكالهــ والبيعة النصرانية، وذلك في بسيط متقارب من الأرض، وكأنه بذلك يفسر مفهوم سوكارنو وسوهارتو ومَن حولهما **للوحدة القومية في ظل البانجاسيلا، التي تقوم على مبادئهم الخمسة (الايمان بالله، والايمان**

بالانسانية، والايمان بالوطنية، والايمان بالوحدة الاندونيسية، والايمان بالعدالة الاجتماعية). فالايمان بالله واحد من أصناف الايمان الخمسة، وتعود أهميته إلى كونه يجمع سكان أندونيسية كلهم على صعيد واحد لأن (بينهم من يدين بالاسلام، ومن يدين بالمسيحية، ومن يدين بالبوذية، كما أن بينهم من لا دين له، ولكن هؤلاء ـــبنظر مخترعي البانجاسيلاـــ مشتركون في التسامح الفطري، و يعترفون بأن الإيمان بالله هو أهم مميزات أمتهم...)(١).

وهكذا يكون الإيمان الفطري بالله هو القدر المشترك بين جميع السكان، ولا حاجة بعد ذلك إلى الدين الذي يحدد علاقة العبد بربه، و يقرر التكاليف التي أرسل بها أنبياءه لقيادة البشر ية إلى الحياة السعيدة الآمنة في الدنيا والآخرة.. ومن هنا كان الجمع بين أصناف المعابد في تلك البقعة تعبيرا مقصودا عن أهداف القوم في تمييع الفكر الديني، حتى يكون المؤمن بها كمر يد ابن عربي القائل:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فأصبح قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجّهت ... ركائبه، فالحب ديني وإيماني

والعجيب العجاب في أمر هذه (البانجاسيلا) أنها سرعان ما استهوت مطامح المغامر ين، فإذا هي تمطر البلاد العربية بألوان التنظيمات المماثلة، فها هنا ميثاق أحمر، وهناك كتاب أخضر، وهنالك عقد.. ير يد أن يجمع العرب كلهم على طر يق النصر المؤزَّر... وعش رجبا تَرَ عجبا.

أما الإسلام الذي هو خاتم رسالات الله إلى عباده، والنظام الذي أنزله الله (تبيانا لكل شيء وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين) فحسبه أن تمنحه هذه المواثيق العبقر ية حق البقاء في المسجد، إلى جانب البوذية والباطنية وسائر النحل التي أنصفها المعري حين وصفها بقوله:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... وبادوا وماتت سنة اللؤماء

الإسلام هو المحظور

ولا حرج بعد ذلك على أي من هذه النحل أن يشارك في ألوان النشاط الإجتماعي والسياسي في ظل تلك الأنظمة، اللهم إلا الإسلام الذي لا يُسمَح له أن يتجاوز أبواب المساجد، والو يل

(١) أنظر كتاب (أندونيسية) الصادر من قسم الاستعلامات والعلاقات العامة بسفارة أندونيسية في جدة، ص ٣٥

لأهله إذا حاولوا التذكير بحقائقه، أو مارسوا الدفاع عن فضائله، فإن ذلك منهم عدوان على الوحدة الوطنية، وانتكاس بالثورات التقدمية، التي لا خطر يهددها مثل الحديث عن الإسلام..

أجل .. لقد كانت البانجاسيلا —ولا فخر— هي المنوال الذي صب في قالبها مغامرو البلاد العربية القوالب التي صنعوها لشعوبهم، وفرضوا عليها ألا تتحرك خارج نطاقها، فإذا ضاقت مواهب الشعوب بهاتيك الحدود فوجئت بالسياط تردها إلى الحجور المقررة، رحمةً بها وخشية عليها من وباء الحرية!..

ولا جرم أن الباعث الأول لهذا الضرب من الزيغ هو تصور أهله أن الدين ليس إلا نوعا من الإفراز الفكري، كغيره من النوازع الفطرية التي تقودها المصالح. فلكل ذي سلطان أن يفيد من هذا الاستعداد لتوجيه قطعانه إلى الطريق الأضمن لبقائه..

ومادام الأمر كذلك فلا ضابط للدين سوى إرادة المتسلط، يزيد فيه ما يشاء وينقص منه ما يشاء.. ويمازج بينه وبين غيره من الأديان، إذا وافق ذلك هواه، وتراءى له أن في ذلك أي منفعة..

وانسياقا مع هذا التصور كان إقدام زوجة ذلك الرئيس الكبير جدا على مشاركة الكاثوليك صلاتهم في قلب الفاتيكان، لأنها تحقق بذلك مفهومها وزوجها عن الخليطة التي تُمَكِّن الآخذ بها أن يتصل بخالقه عن أي طريق!.

وبهذا التصور نفسه يقدم ذلك الحاكم الآخر على إلغاء السنة ويغير تاريخ الإسلام، ويعتبر كل من لم يهتد إلى نِحْلَتِهِ من المشركين الضالين، لا فرق في ذلك بين المتقدمين والمتأخرين.

ونعود إلى ساحة المعرض لنتم جولتنا المختصرة خلال أقسامه، أو بعضها على الأصح.

وكان طبيعيا أن نزور معبد بوذا، لنستكشف ما نجهله من أحوال تلك النحلة.

إنه بناء من الطراز المعهود في معابد الوثنية الشرقية، أحيط بالعديد من التماثيل، وزخرفت جدرانه بأشتات الصور الرامزة إلى أساطيرهم. أما داخله ففراغ نظيف يتوسطه تمثال بوذا وهو جالس، وبين يديه شموع تتجدد كلما قاربت الإنطفاء. ودخل معنا سادنه الفتى، فطلبت إلى الأخ خليل أن يسأله: أهذا هو الإله الذي تعبدون؟ فأجاب: ليس بوذا إلها ولكنه أستاذ تعلمنا منه كل الخير. **—أو هكذا قال— وهنا تذكرت ما أعلمه من أن بوذا لم يدع إلى الله.. بل قصر عمله على الوعظ والإرشاد إلى قواعد السلوك الضابط للغرائز، التي يرى —في ضوء بيئته وموحيات عصره— أن انضباطها في حدود الخير هو السبيل الوحيد لإصلاح الإنسان. وهو المبدأ الذي استهوى**

من قبل أشتات الحيارى الذين لم يعرفوا الطريق الحق إلى الله، ولا يزال يجد طريقه إلى التائهين الضائعين في أميركة وأوروبة... ولعل كمال جنبلاط ــأحد ضحايا المجازر اللبنانيةــ لن يكون آخر هؤلاء الضائعين التائهين في لبنان.

بقي أن أحدثك عن ثاني المَعْلَمين في ذلك المعرض السياحيّ الكبير..

إنه حدائق الطير التي لم تغادر صغيرا ولا كبيرا من طيور أندونيسية ــفيا أحسبــ إلا فسحت له ملاذه الموافق لطبيعته.. داخل مشبك مشترك لا يعدو فيه جنس على جنس، لأن لكل مواطن هناك مرتعه الحر المستقل،

وأنّى لقلمي أن يرصد لك كل لون، و يسمعك كل نغم مما يموج به فضاء ذلك العالم الساحر الجميل!...

المسجد الأعجوبة

ومن روائع العمران في جاكرتا الجديدة مسجد الاستقلال، وإنه لرائعة قلما يقع البصر على ما يقاربها.. وما أجدني بقادر على وصف هذا البناء الهائل في حلقة كهذه، فلذلك موضع آخر هو الكتاب الذي سيضم هذه الحلقات وأخواتها السابقات، إذا مد الله سبحانه في أجلي حتى أكمله وأقدمه للنشر.. وعلى طريقة (ما لا يُدرك كله لا يُترك جله) سأحاول أن أقدم إلى القارىء صورة مصغرة عن هذا المسجد والظروف المحيطة به.. مع يقيني التام بأن تصغير أي منظور سيذهب بالكثير من معالمه ودقائقه، كالشَّبَح الذي تراه من بعيد فتحكم بأنه إنسان، ولكن مجرد تحديد جنسه لا يستوعب صورته ولا هُويته.

بدىء في بناء هذا المَعْلم العمراني الهائل عام ١٩٦١م واستمر العمل فيه حتى العام ١٩٧٨ وهي السنة التي احتفل بافتتاحه رسميا في موكب حاشد. وقد قدرت تكاليفه حتى استكماله بستة وأربعين بليون روبية، أي ما يعادل بسعر اليوم مئتين وثلاثين مليون ريال، جُمِعَتْ وتُجمع من أموال الدولة ومن تبرعات المحسنين والضرائب التي تستوفى من الحجاج. أما المساحة فمائة وعشرون ألف متر مربع، يقوم المسجد وسطها على عشرة آلاف، وتتوزع بقيتها على البسيط الرحب الذي يضم المرافق والمكاتب والمستودعات، و يرتفع هيكله مقدار دَور عال، يرقى إليه الزائرون والمصلون على درج من الرخام المحلي، فإذا ما صرت إلى داخله ألفيت نفسَك ضمن مربع مهيب تنهض على جوانبه الأعمدة الضخام، التي تحمل القبة العجيبة، العجيبة حجماً وفناً وانسجاماً ومادة، إذ يبلغ قطرها ٤٥م وقد شيد ظاهرها بالخزف المضاد للحريق، ونهضت إلى جانب المسجد منارته التي تعلو مسافة ٦٦٫٦٦م، وقد قُصِد بهذا الرقم عدد آيات الكتاب الحكيم.

وحسب المألوف من مساجد أندونيسية حُجِزَ منه قسمٌ كبير للنساء، وفُصِلَ بين القسمين بستار جميل، لم أعد أذكر من أي شيء صنع. وفرشت أرضه بالنفيس من الرخام.. وعلى كل من جانبي المصلى العظيم امتدت الشرفات الخمس، ذات المنظر الباهر المهيب، وقد تتابع بعضها فوق بعض طباقا مشرفة على الصحن الفسيح الرحيب.. وقد قيل لنا إن هذه الشرفات العشر تملأ يومي العيدين بالمصلين، الذين لا يقل عددهم في ما أقدر عن مجموع المصلين في أرض المسجد، التي صُمِّمَتْ لتستوعب الألوف.. وقد يفيض جمهورهم آنذاك عن طاقة المسجد بشرفاته فينتشرون في بسيط الفِناء الأدنى.. وحتى أيام الجمع العادية يتدفق المؤمنون على المسجد حتى يضيق بهم، فيتوزعوا في القسم الأعلى حتى يملأوا أربعا من الشرفات على الأقل.

أمحراب هذا؟

ولنقف لحظة عند محراب المسجد.

لقد درج المسلمون من مئات السنين على إعطاء مكان الإمام هذا تجويفا خاصا وسط الجدار القبلي، يكاد يكون متشابها في المساجد جميعا، وإن تفاوت مظهره من حيث الزخارف وعدمها.. أما هنا في مسجد الاستقلال الكبير فلن يرى الناظر المحراب المعهود، بل سيرى بعض الأعمدة العالية تُكَوِّن مستطيلا تقسمه في الوسط عارضة من شكل الأعمدة، وفي أحد جانبيه —على يمين الإمام— مُدَرَّجا يصعد عليه الخطيب إلى شرفة المنبر. وهو أقرب شيء إلى الشكل المعهود عند مذبح الكنيسة. وقد لفت انتباهي أحد مرافقيّ إلى تشكيلة ذلك المنبر وهو يقول: ألا ترى أن العارضة الوسطى قد أحدثت على العمودين الأماميين صورة صليبين!.. والحق أني لم أفكر بذلك قبل هذا التنبيه.. ولكني لم أستغربه عندما تبين لي أن مخطّط المسجد نصراني مشحون الذهن بالأخيلة الكنسية. وتذكرت هنا ما سبق أن شهدته في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، يوم وقع بصري على صليب منسوج فوق قبةِ مسجدٍ مصور على سجادة بعض الحجاج الكشمريين، ثم لم نلبث أن فوجئنا بالعديد من طراز هذه السجادة يحملها أولئك الإخوة من بلادهم ولا يعلمون ما يحملون!.

ولكن .. هل يعقل أن ينحصر التفطن إلى هذه اللعبة في هذا الأخ وآخرين مثله وحدهم؟! والمسؤولون الكبار.. ألم **يلمحوها** مرة قط!. أم أنهم يرون.

وقبل البحث عن جواب هذا الاستفهام المحيّر أقدم للقارىء صورة الوجه الآخر لظاهرة الصليب في مسجد الاستقلال، أنها النجمة السداسية التي تتوسط قلب القبة الهائلة، **ثم تتحلق حولها الدوائر**

الأخرى ذات الزخارف المدهشة في تدرج دقيق، تبدأ الأولى صغيرة حول النجمة، ثم تتابع، وكل واحدة محيطة بسابقتها، حتى تنتهي إلى المحيط الأقصى على حافة القبة..

لو نسِّقت هذه القبة قبل قيام إسرائيل لم تسترع نجمتها انتباه ناظر، ولكن هذه السداسية الزوايا قد أصبحت منذ عام ١٩٤٨ الطابع المميز للدولة، بل للخنجر الذي غرزته الصليبية الأمريكية والأوروبية في صدر العالم الإسلامي لمنعه من التحرك في الاتجاه الصحيح..

وإذن فها هنا ظاهرتان لا واحدة، يتعانق خلالها الصليب مع نجمة داود، في أعظم قبة لأعظم مسجد في أعظم دولة تحوي أكبر تجمع إسلامي في العالم.. فأيّ استقلال هذا.. **إلا** أن يكون استقلالا عن الدين الذي أنزله الله، إلى **الدين الذي وسوس به** الشيطان إلى صانعي (البانجاسيلا)!

ومن يدري .. فلعل خلوَّ ذلك المسجد الأسطورة من أي اسم لله، أو آية من كتاب الله، قد قُصِدَ به إلى تثبيت هذا الإتجاه، الذي لا يُستغرب من حكام أداروا ظهرهم للإسلام، وأعلنوا في كل مناسبة أن دولتهم علمانية لا تمت بأي سبب إلى الإسلام.. ومن أجل ذلك جاء هذا المبنى الضخم أشبه بقاعة دولة معدّة للأحفال الرسمية منه بواحد من البيوت التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه..

أحداث مريبة

والكلام عن هذا المسجد يجرنا بطريقة التداعي إلى تلك العناية البارزة التي تبذلها وزارة الشؤون الدينية بشأن المساجد وما يستتبعها من قضية التعليم الديني. فقد لاحظنا أثناء تجوالنا في بعض المناطق الأندونيسية تركيزا خاصا على هذين الأمرين، ذلك أن دروس الدين قائمة في مدارس الدولة وإن قصرت عن أمثالها في المدارس الإسلامية الأهلية.. وفي بعض الجامعات الحكومية مساجد سامقة وفائقة يرتادها المؤمنون من الطلاب وهم غير قليل ولله الحمد. وفي مدينة باندونج أدركتنا صلاة العصر قريبا من جامعتها فعرجنا على مسجدها الجميل، وشاهدت بعض الطلاب يأتي بالوضوء على غير وجهه فنبهتهم بإجراء الوضوء المسنون، ولما أقمنا الصلاة انتصب وراءنا عدد منهم، وعند الفراغ من الصلاة رأيت العديد من هؤلاء يتلاحقون إلى المسجد لأداء الصلاة في جماعات صغيرة متباعدة.. فلم أغادر المسجد حتى أبلغتهم ما يجب توجيههم إليه من وحدة الجماعة وتراصّ الصفوف، وكراهية تعددها في الوقت الواحد والمكان الواحد— ولعليْ أشرت إلى ذلك في ما تقدم.

ولا مندوحة للمفكر المسلم بإزاء هاتين الظاهرتين من أن يتساءل عن الدافع الأصيل وراءهما،

أهو الغيرة على الإسلام والرغبة في تربية الأجيال على تعاليمه؟.. أم هي محاولة لاحتواء الدولة للعمل الإسلامي كيلا يتحرك خارج الإطار الذي تريد!..

والذي يرى تشدد الدولة ــ وبخاصة المخابرات التي يرئسها نصراني ــ في مطاردة الإسلاميين، والتنكيل بهم داخل السجون، واحتجاز العديد منهم دون محاكمة منذ سنين، وفتح كل المجالات أمام المبشرين الذين يعلنون عزمهم القاطع على تنصير المسلمين، حتى ان رئيس الدولة ليفتتح بنفسه مؤتمراتهم ويبارك خطواتهم!.. إن من يرى ذلك التصرف الرسمي المجافي للإسلام، بل المناوىء له، سيجد نفسه أقرب إلى الارتياب منه إلى القول بحسن النية..

وإلا فكيف يفسر المفكر عمل الحكومة يوم عيد الفطر، إذ دفعت برجال الأمن إلى انتهاك حرمات المساجد في جاكرتا، حيث أكرهوا بعض الخطباء على التحوّل إلى غير مسجده، وأنزلوا بعضهم عن منبره على أعين جماهير المصلين، فأثاروا غضب الناس حتى اشتبكوا معهم في معارك مؤسفة داخل المسجد!.

إسلام حكومي

في مدينة تشايمس ــ من جاوة الغربية ــ وأثناء زيارتنا للثانوية الدينية الحكومية فيها، ألقى أحد مدرسيها الأستاذ فؤاد كلمة بالعربية أوضح فيها تاريخ افتتاح هذه المدرسة، والملابسات التي دفعت إلى إنشائها، فكان مما قاله: «إنها إحدى المدارس التي أنشأتها الحكومة عقيب المحاولة الثورية التي قام بها الشيوعيون لاغتصاب الحكم عام ١٩٦٥ وكان الغرض من ذلك تحصين الجيل الجديد ضد الإلحاد، الذي يهدد البلاد بما تبثه تلك العصائب الضالة من سموم الدعايات الهدامة..».

ومن هنا نفهم أن الأصل في إقبال الحكومة على إنشاء المساجد ونشر التعليم الإسلامي يعود إلى نية طيبة، تصدر عن اليقين بأن الإسلام هو الضمان الوحيد لصد عادية الشيوعية الوحشية..

هكذا بدأت الحركة بريئة تستهدف مصلحة البلاد، وبخاصة بعد أن اتضح لأصحابها أن المسلمين لا يزالون هم وحدهم حماة الديار، كما كانوا منذ عهود الغزو الأجنبي، فلا مناص إذن من الاهتمام بدينهم الذي يمنحهم القوة الصامدة بوجه المفسدين..

ولكن .. سرعان ما تغيرت النوايا، إذ تبين لسوكارنو ثم لسوهارتو ومن معه أن الإسلام الذي يرفض الشيوعية لا يسعه أن ينحني للاستبداد، وعلى هذا فلا مندوحة من محاصرته حتى لا يخرج عن الطوق الذي يراد له.. ومن هذا المنطلق بدأت المحاولات الجديدة لتكوين (الاسلام الرسمي) الذي يستهدف الإحاطة بكل تحرك إسلامي لا يقبل الاندماج في مواكب المتافين والمصفقين..

ولعل في الحفل الرسمي الذي أقام صلاة الغائب على سوكارنو في مسجد الاستقلال، وفي شعبان الماضي، بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته، أحد الأدلة القاطعة على توكيد هذا الإتجاه، الذي يريد مواصلة الطريق الذي شقه عهد هذا الطاغية في محاربة الإسلام...

لقاء سعيد

واستمرت أحاديث الصباح طوال الأربعة الأيام التي قضيتها في منزل الأخ الفاضل علي تامين، وبانتهائها انقطعت صلتي بذلك البيت الكريم، الذي أنست فيه بكل معاني الاخوة الإسلامية وما كان أحبها بشري عندما أخبرني أنه عازم وزوجه على أداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي هذه السنة، فأعطيته عنوان منزلي بالمدينة، وأكدت له أنه لن يحتاج إلى من يسأل عنه هناك، فهو لابد زائر مسجد قباء، فإذا غادره من أوسط أبوابه واجه البناء الذي يقع فيه...

ولقد حقق الله لقاءنا في طيبة المباركة، إذ فوجئت به والأخت قرينته في سرادق (التوعية) مقابل مسجد قباء، وقد قصدا إلى زيارتنا بصحبة الفتى الأندونيسي (صاحب الدين) الطالب في كلية اللغة العربية بالجامعة.

ولكن المؤسف أن المنزل كان خالياً من الأهل، فقد سافرت أم غسان إلى الشام لتفقد الأولاد والأحفاد والأشياء، وأعقبها الابن الأصغر سحبان، الذي بدأ سياحته إلى أسبانية منذ أواخر رمضان، وإذ لم يجد في المدينة زوجه التي سافرت بإذنه إلى اللاذقية ــ سورية ــ واصل رحلته إلى الرياض لزيارة بعض أصدقائه.

وقلت للضيفين العزيزين: هذا البيت تحت تصرفكما، وفيه كل ما يعوزكما، ولله الحمد، فلكما أن تصنعا من الطعام ما تحبان، وتستعملا من الحجرات ما ترغبان، فأنتما المالكان وأنا ضيفكما.. ولعل ذلك كان أفضل حل لمشكلة الطعام بخاصة، لأن للقوم مذاقا خاصا في شأنه يباين ما نألفه. ولو نحن قصرنا طعامها على طريقتنا لكلفناهما شططا. والا فما رأيك بأندونيسي لا يتناول من الماء إلا الحار، ولا يسيغ الطعام، حتى اللحم، إلا مخلوطا بالسكر، ومشبعا بالتوابل المحرقة... ثم تلزمه طعامك الذي لا يستغنى عن الملح، وشرابك الذي لا يطيب لك إلا مثلوجا أو شبه مثلوج حتى في فصل الشتاء.

ولئن نسيت كل ما مرّ بي من مشكلات الطعام في أندونيسية لا أنسى ذلك الإفطار الذي حضرته ذات مساء من رمضان على مائدة هذاالصديق، وقد احتوى على نوع من الأقراص التي تشبه ما يسمونه في مصر بالطعمية، فبشرت نفسي بأكلة عربية تنسيها ما عانته من غريب المأكولات حتى الآن.. وبدأت بأحد الأقراص فإذا هو أزكى مما توقعت وأشهى، ولكن.. ما إن

أوغلت في وسطه حتى أحسست بالنار تنفجر في حلقي.. وحرت في أمري كيف أتصرف بتلك اللقمة، أأخرج إلى الفناء فألفظها في المجرى الخارجي، أم أكره نفسي على ابتلاعها، ولو كلفتني الثقيل من البلاء!؟٠

ولاحظ بعض الحضور ترددي ذاك، فسألوني عما إذا كنت بحاجة إلى أي شيء.. فلم أتمالك أن قلت: لا شيء.. سوى أني أغالب نفسي على احتمال تلك القذيفة الحارقة.. وكانت نكتة لم يبخلوا عليها بدفقة من الضحك، ولم تضن عليها عيناي بقطرات حارة من الدمع... وكانت تجربة حاولت ألا تتكرر بعد ذلك اليوم، إذ جعلت أوصي صاحب الطعام أنّى كنت باستبعاد السكر والتوابل إلا ما أطلبه منها٠

مواريث هندوكية

وقضى ضيفاي الكريمان أسبوعاً كنت أثناءه ضيفهما حقاً، آتيهما بكل ما يمكن أن يرغبا فيه، ليصنعا منه ما يحبان.. وكان التجاوب بيننا على أحسنه ولله الحمد، حتى لقد أبيا إلا أن يقوما بتنظيف المنزل كل يوم، يتعاونان على ذلك كلاهما يدا بيد٠ ولم أر منعهما ذلك خشية أن يستشعرا الغربة، وأنا أحب أن اقصيهما عنها، وجزى الله ابنتي الزهراء ــالمدرسة في المدينةــ كل خير، إذ كانت تتردد علينا معظم أيام الأسبوع لتقوم بما يتيسر من واجب الإيناس للضيفة، وبصعوبة استطاعت وبعلها أن يحملاها وزوجها إلى منزلهما لتناول العشاء في منزلهما البعيد ذات مساء، لأن الضيفين اعتادا ألا يعودا من المسجد النبوي إلا في وقت متأخر بعد صلاة العشاء الآخرة، ولم يكن اصطيادهما للغداء بالأمر اليسير، إذ لم يريدا أن يتقيدا له بموعد محدود...

على أن الشيء الوحيد الذي كنت أضيق به منها، ولا أجد السبيل إلى تغييره، هو إسرافها في التكريم، وبخاصة من الزوج الصديق، الذي لا يقبل أن يواجهني إلا منحنيا إلى حد الركوع، وهو مطبق كفيه٠ وهي ظاهرة من الأدب الاجتماعي الذي يعرفه سكان الحرمين في الحجيج الأندونيسي إذ يأبى أحدهم أن يغادر المسجد إلا وهو على هذه الصورة أثناء مروره بين الناس، وما كنت أعلم لذلك سبباً إلا قبل أيام، حين كنت أطالع في كتاب (تاريخ أندونيسية) بقلم الدكتور محمد فخر الدين فوجدته يقول ــ٣٢ــ (وهكذا كان تأثير الدين الهندوكي في الشعب الأندونيسي، حتى التصقت فيه صفاته البارزة، مثل طريقة السلام بجمع الكفين ووضعهما على الجبين رأسيا، والسجود عند ملاقاة كبير أو عظيم وما شابه ذلك من تقاليد الديانة الهندوكية)٠ والغريب أن المؤلف يورد هذا التعليل، في صدد الكلام عن مواريث الهندوكية في مسلمي أندونيسية دون استغراب ولا إنكار، وهو يعلم أنها بقية من الوثنية التي لا تزال ماثلة في عبادة أهلها لأوثانهم، وقد شهدنا ذلك في كل معبد وثني زرناه أو مررنا به في مدن الهند، وتلحظ هذه الظاهرة سارية إلى

تصرفاتهم الاجتماعية في كل مكان، فالوثني هناك إذا حياك أو رد تحيتك فبهذه الطريقة، وعلى الأسلوب نفسه.. وكان المتوقع من مسلم يواجه **هذه المشكلة في قومه** أن يبذل النصح لهم بالإقلاع عنها، عملا بروح الإسلام الذي يريد من أهله أن يكونوا متميزين عن سائر البشر بآدابهم الربانية المحررة من كل الشوائب.

وليت المؤلف يقرأ قول الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا..) وتحذيره صلى الله عليه وسلم أمته من التشبه بأهل الكتاب.. وهو لو فعل ذلك في وعي لحقائق الإسلام، لما أغفل الانكار على المقلدين لأولئك الضائعين المضللين ممن هم أبعد عن الحق من أهل الكتاب..

وبهذه المناسبة أتذكر أن شيئا من هذا أو قريباً منه قد رأيته في مدينة ماراوي سيتي من الفيلبين، وذلك أنا كنا نسمر في بهو المنزل الذي يضم قسما من البعثة التعليمية، فإذا جاء أحد الإخوة الذين نتولي تدريبهم، واضطر إلى المرور من بيننا، قام بالحركة نفسها التي يقوم بها الأندونيسي في الحرمين، فلا يعبر إلا منحنيا وجامعا بين كفيه. ووجدتها فرصة صالحة لضرب هذه العادة، فوقفت بعضهم أسأله:

ــ ماذا تريد بهذه الحركة؟

ــ لا شيء سوى مجرد التعبير عن تقديري لكم.

ــ إن أحسن وسيلة لذلك هو تحية الإسلام.. أما هذا الانكسار فما هو إلا بقية من مواريث لا تتفق مع أخلاق المسلمين الذين ميزهم الله بالتساوي في حق العزة والكرامة..

واستمع هذاالأخ إلى كلمتي في صمت وتأمل، ثم قال: أنت على حق، ولن أفعل هذا بعد اليوم.. فقلت: هذا لا يكفي، فإذا اقتنعت بما سمعت كان عليك أن تذيعه بين إخوانك أيضا حتى تجهزوا على هذه العادة نهائيا..

وما أذكر أني رأيت أثرا لهذه الظاهرة الدخيلة فيا بعد بين مجموع الطلاب المعلمين.

روائع لا تنقطع

كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحا عندما أقبلت السيارة التي أعدت لحملنا إلى (تشايمس) الواقعة وراء مدينة باندونج، التي دخلت التاريخ بؤتمر (عدم الانحياز) الذي انعقد فيها عام ١٩٥٥ وهي إحدى حواضر الجزء الغربي من جاوة.

كنت أتصور الرحلة قريبة لا تزيد عن ١٥٠ كم وهي أحب إليّ بالسيارة، لأنها ستتيح لي فرصة للاطلاع على جانب مجهول من الريف الأندونيسي.. ولكن حساب (القرايا لم يوافق حساب السرايا) ــ كما يقول السوريون ــ فقد تجاوزت الرحلة ٥٠٠ كم، وضاعفت شقتها تلك السيارة غير المريحة، إذ كانت من الطراز الذي يسميه السائقون بالحجاز (الأنيسة) وهي أبعد وسائل المواصلات عن الأنس.. وقد سبق لي في مثلهاأبيات أذكر منها:

وسموها الأنيسة وهي أنأى عن الإيناس من صخر بقفر

في ضيق مقاعدها ما يضيق الصدور، وقد بلغت من الحساسية أنها لا تنفك عن الرقص المزعج طوال الطريق.. ولكن رحمة الله لم تفارقنا قط، إذ عوضنا من جمال المشاهد الفاتنة ما أنسانا الكثير من المتاعب.

إن القرى والدساكر مستمرة على جانبي الطريق، المظلّل أكثره بشوامخ الدوح، وقد تسربلت بمهابة القدم، وذكرتني ظلالها بقول المتنبي في أمثالها من شعب بوان:

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان

وبعد أقل من خمسين كم وصلنا مدينة (بوغور) وعن بوغور كتبتُ في مفكرتي يومئذ أنها (إحدى جنائن أندونيسية، وهي بلدة كبيرة تنتشر فوق عدد من المرتفعات، وفيها مصيف سوكارنو الساحر أيام صولته، وفيها كذلك البستان الذي قيل لنا إن فيه نماذج من كل أشجار العالم الأرضي، وقد شاهدنا الظباء روائع في بعض أجزائه).

الشاعر المجهول

وقد سبق أن ذكر لنا بعض الإخوة في جاكارتا اسم الشيخ عبدالله نوح من سكان بوغور على أنه أحد الشعراء المشهورين في أندونيسية، فأحببت ألا يفوتني لقاؤه، والاستماع لترجمة بعض شعره رغبة في الوقوف على بعض خصائص الأدب الأندونيسي من خلاله، ولم يكلفنا ذلك عسرا، إذ وجدنا الشيخ وكأنه ينتظرنا في قاعته الفسيحة التي يلقى فيها ــ كما يظهر ــ بعض دروسه على طلبة العلم ويستقبل فيها زائريه...

وكان لقاء سارا أكثر مما نتوقع، ذلك أننا لم نحتج إلى وسيط يترجم بيننا، لأن عربيته على غاية من القوة والوضوح. هذا فضلا عن مزايا الشيخ التي تقربه من القلوب، فهو في السبعينات من سنيه، وذو هيئة مباركة محبّبة... ولما طلبت إليه أن يترجم لي بعض شعره أجاب: ان شعري

عربي اللسان، عدناني البيان... وراح يقرأ لي منه، فإذا هو من الطراز الذي لا يحسنه إلا أولو المواهب العالية...

وسألته مستغربا: كيف تهيأ لك مثل هذا الإنتاج الرفيع وأنت بعيد عن مواطن العربية؟.. فأجاب: لقد درستها على بعض الشيوخ، ثم تابعتها على نفسي... وقد ساعدني على ذلك عملي في نطاق التدريس والتأليف.

وهو يشير بذلك إلى معهد الغزالي الذي أنشأه و يقوم على إدارته، ومن حيث التأليف يشير إلى معجمه المعروف في الأوساط العلمية، وهو يجمع بين الانجليزية والأندونيسية والعربية.. وقد طبع العديد من المرات ـ كما علمت فيما بعد ـ .

وقلت له: من طبيعة الشاعر شعوره بالحاجة إلى من يشاطره شعوره، فإذا فرغ من منظومة بحث عمن يسمعها و يُسمعه انفعاله بها... فهل بين جلسائك من يسدّ لك هذا الفراغ؟..

وابتسم في أسى ثم قال: شعري هنا كالزهرة في الصحراء تنضج وتذبل ثم تموت دون أن تجد من ينظر إليها...

وطلبت إلى الشيخ الشاعر أن يجمع لي ما لديه من منظوماته كي أسعى لنشرها... وتركت له بعض الاستطلاعات ليُعِدّ لي الإجابة عليها، فآخذها لدى عودتي من تشايس .. فقد عزمت على أن أضمَّه إلى الشخصيات التي سأترجمها في الجزء القادم من كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم) إن شاء الله، ليعلم المتهاونون بكرامة العربية كيف يجب أن يقدروا هذه اللغة التي شرفها الله بكتابه وبيان رسوله، صلى الله عليه وسلم، وهيأ لها قلوباً تحبها وعقولا تتفهمها فتؤثرها على لغة الآباء والأجداد...

بين حقول الشاي

واستأنفنا السير خلال حقول تتنافس أصباغها كأنها الموشور الذي لا تعرف من أي ألوانه السبعة يجتذب عينيك.. ولأول مرة أشهد مزارع الشاي تكسو الهضاب بحللها الزمردية، وقد انتصبت شجيراته على ارتفاع متساوق لا تكاد ترى فيه عوجا ولا أمتا... وأجيل بصري من نوافذ السيارة أستشرف الحقول الممتدة إلى أقصى الأفق، وقد تقاسمت السهول في مربعات مختلفات الأحجام والأشكال، وتدرجت في أوساطها الروابي والجبال حتى أشبهت مظلة خضراء احتشدت عليها جموع الفراش في روائع زينتها...

وبلغت الفتنة قمتها عندما أخذت السيارة تتسلق بنا سفوح جبل (شلوتو) الساحر بطبيعته

المدهشة، وبالمناظر العجيبة التي يُطل عليها من كل جانب... ولم أجد العبارة الموفقة لتسجيلها في مفكرتي عن أصناف الجمال والجلال التي ألفيتني محاطاً بها هناك، وفجأة وثبت إلى خاطري قصيدة (الجمال البليغ) التي سكبها على لساني ذات صباح مشهد مقارب لهذا في جبال صافيتا —من سورية الجريح— فإذا انا أردد منها على نفسي البيتين اللذين ختمتها بها:

وبعض الجمال يثير الشجون — وفي بعضه نشوة تُسكر
وأبلغه ما أمات اللسان — وراح الشعور به يزخر

قمة الروعة

وعلى هضاب شيلوتو تنتشر مقاصير الأثرياء في سباق إلى أروع الهيئات الهندسية، وتنهض الفنادق والاستراحات الأنيقة تعج بالسياح من مختلف أنحاء العالم... وكانت الساعة قد بلغت الثانية —فيما أذكر— فاتجهنا نحو المسجد الرابض في ذؤابة الجبل، للجمع بين العصرين، ولا حاجة لوصفه، بأكثر من كونه على غاية التناسب مع تلك البيئة الباهرة.. ويغلب على الظن أنه من ثمرات هاتيك اليقظة العجلى التى أعقبت محاولات الانقلاب الشيوعية أيام سوكارنو، فدفعتْ بالمسؤولين لإنماء الروح الديني الذي لا سبيل غيره للوقوف بوجه الهجمة الإلحادية...

وبعد استجمامة قصيرة بدأنا الانحدار نحو (باندونج) —التي سأرجىء الحديث عنها إلى حلقة أخرى— وآذنت الشمس بالغروب فكان علينا أن نتطلع إلى مكان نجدفيه ما نفطر عليه، ولم نوفق إلي ذلك إلا بعد أكثر من ساعة، حيث وقفت بنا السيارة أمام مطعم معدّ للمسافرين.. فيه أحسن ما يشتهيه الصائم في مثل ذلك الوقت، من السمك واللحم والمشروبات الغازية.. ولعل أفضل ما فيه أن أسعاره غاية في البساطة بالنسبة إلى ما عهدناه في جاكرتا.. وحسبي أن أذكر من ذلك أننا كنا نضطر إلى أداء ثلاثة آلاف روبية ثمن عشرة عيدان من الشواء في العاصمة، مع العلم ان مجموع ما في تلك العيدان لا يزيد على مئة غرام، ومعها طبعا بعض المقبلات الخفيفة. وبقليل من التأمل تعلم أن كيلو الشواء من هذا النوع لا يقل عن مئة وخمسين ريالا..

وبعد الجمع بين العشاءين واصلنا السفر باتجاه تشايس التي بلغناها في تمام الساعة السابعة مساء، ثم لم تتوقف السيارة حتى سارت بنا إلى جامعة دار السلام، حيث تعقد دورة التدريب لمعلمي العربية على مبعدة عشرة كيلومترات عن قلب المدينة.

محافظة حتى الجمود

كان مدير جامعة السلام الأستاذ عرفان والمعلمون من طلاب الدورة، على علم بتوجهنا إليهم، وذلك عن طريق مكتب الدعوة في جاكرتا. فلم يتطلب الأمر كبير جهد ليتم تعارفنا على أحسن

وجه.. وحضرنا مع الجميع صلاة القيام ــعشرين ركعةــ وأرادوني على العشاء فاعتذرت بما عودته نفسي من الإمساك عن أي طعام خلال الليل، اللهم إلا بعض الفواكه أو العصائر إذا حَضَرَت، ومن ثم أخذت طريقي إلى الغرفة التي أُعدت لي.. وهي قاعة كبيرة قُسّمت بحواجز لطيفة وغير تامة، فبعضها للنوم، وبعضها للاستراحة، وآخر للطعام.. ويلحق بها حُجيرة يمكن استعمالها للطبخ عند الحاجة، وبجوارها الحمام التقليدي الذي لم أر له مثيلا إلا في البيوت الأندونيسية المحافظة، فهو حمام ومغتسل يفصل بينهما جدار قصير وتتناول ماءَهَ بمغراف خاص من حوض صغير... والغريب أن بعض الفنادق الأنيقة لا تزال ملتزمة هذا الطراز من المرافق، على الرغم من صعوبة استعمالها، وكان بوسع القوم الاستفادة من طريقة الحمامات الحديثة المتوافرة في كبريات الفنادق، مع الإبقاء على الجلاس الأرضي مقابل الأجنبي غير المناسب، وبدلاً من الاغتراف من الحوض يؤخذ الماء بوساطة الصنابير المنظمة. ولكن تشبثهم بالنوع التقليدي يعكس صورة ميلهم إلى المحافظة التي تغلب على الطبع الأندونيسي، ولعلنا لا نبعد في القياس عندما نشير إلى ظاهرة المحافظة هذه في طرائقهم الموروثة حتى في حراثة الأرضين مثلاً، فقد قطعنا حتى الآن مئات الكيلومترات، ومررنا بآلاف الحقول، فلم نشاهد قط حَرَّاثة حديثةً أو حصّادةً من طراز آلي، بل هو الأسلوب الذي تحدَّر إليهم منذ عشرات القرون، والذي عمادُه الجاموسة والمحراث البدائي الذي توارى عن الأعين في معظم أنحاء العالم منذ دخول البشرية عصر البخار، بله الكهرباء والذرة..

وشيء آخر لعله من اغرب ما يواجه السائح في هذه الجزر، وهو قلة المواشي والدجاج التي هي قوام الحياة في كل مكان، فخلال عبوري هذه المسافة الطويلة لم أر سوى القليل من هذه الموارد، بل أراني غير مبالغ إذا قلت بأن كل ما شاهدته من ذلك حتى الآن لا يتجاوز بعض المئات إذا لم أقطع بأنه بعض العشرات من الجاموس والبقر والغنم والدجاج، وحتى في جاكرتا نفسها لا أذكر أني شاهدت حانوتا لبيع الدجاج، وكذلك الأمر في سائر الجزر التي زرناها فيا بعد من جاوة إلى كلمنتان إلي بالي.. مما يؤكد ما ذهبنا إليه من نزعة المحافظة على الأساليب الوراثية في المرافق، التي لا تقبل الجمود عادة بل يحول جمودها دون كل تطور اقتصادي صالح.

وقد سبق أن أشرت إلى الجمود الذي وجدته في بعض مناطق المسلمين في الفيلبين، بحيث تقلُّ المواشي ــإلا ما يعوزهم من الجاموس لزراعة الأرزــ وحيث لا يكادون يعرفون شيئاً عن الألبان ومشتقاتها، حتى شقَّت الطريق إلى ذلك جامعةُ الحكومة في منطقة «ماراوي سيتي» التي بدأت تعرض للبيع قوارير الحليب...

وهذا تماما ما وجدته في أندونيسية.. لقد بذلت جهودا مكثفة للحصول على بعض اللبن الرائب والجبن، وبعد لأي عثرنا على الأول عند بعض الباعة من الحضارم، ثم لقينا هذا وذاك في

إحدى البقاليات الكبيرة في جاكرتا.. ولا أنسى أن مرافقي السيد سراج مما كان ليتناول معي الجبن إلا بمشقة، وأخيرا امتنع كليا عن مقاربته، لأنه لم يستسغه بل لأنه لم يألفه من قبل!.

ولطالما سألت نفسي: ألا يتعظ الإخوة بجيرانهم الأستراليين، حيث يؤلف تصدير اللحوم واحدا من أهم مصادر الدخل القومي لأسترالية.. وفي يقيني أنهم لو التفتوا إلى هذه الناحية، وأعاروها ما تستحق من الاهتمام، لحققت في سويّتهم المعيشية ارتفاعا كبيرا، ولتصاعدت مواردهم الاقتصادية إلى القمة.. وذلك أمر بديهي في أرض تعتبر من أصلح بلاد العالم للزراعة وتربية الحيوان.

مغانم الكبار

على أن من الأنباء المشجعة والموجعة ما بلغنا أخيرا من أنّ ولدا لأحد كبار الحاكمين قد أنشأ بعض المؤسسات الحيوانية، وبدأ يستورد بعض الأنواع الممتازة من أوسترالية في بواخر الجيش.. وأنه من أجل توسعة تلك المؤسسات قد استولى على العديد من المنازل وبدأ يضمها إلى مزارعه قبل أن يؤدي ثمنها لأصحابها...

ومما يتحدث به الناس هناك أن مئات الهيكتارات من حقول القرنفل تقع في ملكية أخ لذلك الكبير، وهي ثروة لا تقدر، وبخاصة إذا علمنا أن كيلو القرنفل يباع في المملكة بأكثر من خمسين ريالا!.

تربية الأسماك

كذلك مما يسترعي الانتباه في أندونيسية إقبال الناس على تربية الأسماك، فقد شاهدنا في جزيرة جاوة الكثير من البرك الخاصة بهذا الشأن، وكثير منها بجوار المنازل، يتناولون منها السمك الحي ساعة يشاءون، ولذلك تكثر الأسماك على موائدهم حتى لتكاد تؤلف الركن الرئيسي في غذائهم اليومي...

وقد حدث أن زرنا إحدى المدارس الإسلامية الكبرى في مدينة تشايمس، فلما تحركت بنا السيارة لتعيدنا إلى مقرنا في جامعة دار السلام استوقفنا رئيسها، وأبى أن نفارق فِناء المدرسة إلا بعد أن جاءنا بسمكة برونزية تنتفض في شِصّها.. وقد سألنا بعض الإخوة عن تاريخ هذه المسامك لنعلم إذا كانت من توجيهات المستعمرين، فأكدوا لنا أنها معروفة في هذه الجزر من قبل عهود الاستعمار.

وإني لأتساءل هنا: ما الذي يمنع من تعميم هذه المسامك المنزلية في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فتكون سبباً في توفير أحسن أنواع الغذاء من أيسر سبيل؟.. بخاصة أنها لا تستغرق

جهداً كبيراً، ولا تشغل مساحة واسعة، فلقد شهدنا في بعض المطاعم أحواضاً صغيرة تُربى فيها الأسماك، وتباع منها المقليات حسب الطلب، وقد اشترينا منها حاجتنا، وحُضِّر لنا منها ما نريد في وقت قصير..

الحصان الأندونيسي

ومع كون أندونيسية من البلاد المصدرة للنفط فأسعار الوقود فيها مرتفعة، وهذا ما قضى باستبقاء العربات التي تجرها الخيول في المواصلات المحلية، ومن طرائف هذه العجلات الجميلة الرشيقة أن ترى الجواد الذي يخب بها لا يزيد حجمه عن ربع الحصان الذي نعرفه.. وهو نوع من الخيول ما وقع بصري على مثله قبل رؤيته هنا، ولكنه ليس بمستغرب في هذه الديارالتي (كل شيء فيها لطيف منمنمْ...).

وقد اتفق أننا كنا في زيارة إحدى المدارس الإسلامية في (بوغور) ذات يوم، ولم يكن بناؤها قد استكمل بعد، وأتينا مسجدها الذي لا يزال هيكلا دون سقف فتساءل أحدنا: أليس هذا المسجد صغيرا بالنسبة إلى المدرسة؟.. واختلف تقديرنا لما يمكن أن يستوعبَه من المصلين ما بين ٣٠٠ و٥٠٠ ولكن الأخ المدرس في ذلك المعهد، وهو من الأدباء المعروفين، حسم الخلاف بيننا بقوله: نحن الأندونيسيين صغار الأجسام، فهو يتسع للعدد الأكبر من أمثالنا.

وكانت نكتة بارعة أضحكت وأفحمت...

دروس ومحاضرات

كان برنامج العمل الذي وضع لنا في (دار السلام) يتألف من درس في النصوص والقواعد، ثم محاضرة في التوجيه الإسلامي التربوي، لكل يوم. وقد بدأنا تنفيذ ذلك البرنامج منذ صباح اليوم التالي لوصولنا ٩/ ٩/ ١٤٠٠هـ وقُدِّمتْ محاضرة اليوم عن موعدها، فكانت أول اتصال علمي وعملي بالطلاب الثلاثة والخمسين عقيب صلاة الفجر، غير الطالبات اللواتي لم أرلهن وجهاً فلم أعرف عددهن.

ولقد سرنى الفصل بين المعلمين والمعلمات، إذ أرخي ستار كبير في وسط القاعة الكبيرة، اتخذ الإناث أمكنتهن خلفه. وجعلت موضوع المحاضرة حول وحدة المسلمين وأصول هذه الوحدة من الكتاب والسنة، ومثلت لذلك بوجودي بينهم، والوشائج الجامعة بيننا.. ثم فسحت المجال في النهاية للمناقشة التي شارك فيها العديد من المدرسين وطلاب الدورة، وقد أثبت المتكلمون قدرتهم على استعمال العربية، واستعدادهم الحسن لتعليمها.

وفي الساعة ١٠ حان موعد الدرس، فاخترت له أبياتا من الشعر الإسلامي المتصل بأفكار المحاضرة، كتبها أحدهم على السبورة بخط جميل، ثم كلفت بعضهم قراءتَها وشرحَ مفرداتها، وتلخيص معانيها.. ومن ثَم دعوت بعضاً منهم لإعراب بعض الفقرات مع التوكيد على إيضاح الترابط بين الإعراب والمعنى... ووقفنا بعض الوقت على دراسة الأسلوب واستبانة خصائصه الجمالية، وأثرها في بلاغة التعبير.

وقد تعمدت أن أنهج في ذلك كله مسلك التبسيط، الذي لا مندوحة عن مراعاته مع طلبة يتلقون درسا في غير لغتهم الأساسية...

وهكذا مضينا في بقية الأيام الأربعة: درس نموذجي في الضحى، وندوة توجيهية بعد صلاة القيام...

ولم يرض فضيلة مدير الجامعة الكياهي ـ الشيخ ـ عرفان أن يقصر وجودنا خارج موعدَي البرنامج على الاعتكاف في الجامعة، بل رتَّب لنا بعض الزيارات النافعة لعدد من المؤسسات التعليمية، أحسن الله جزاءه.

صحوة أعقبتها نكسة

وأول مدرسة قمنا بزيارتها هي (معهد إعداد المعلمين الثانوية) وهي معهد حكومي يُقبَل فيه حامل الشهادة المتوسطة من الذكور والإناث. ولقينا من هيئة التدريس فيه استقبالا أخويا كريما، وفي اجتماع عام ضم طلاب المعهد ومجموع معلميه ألقى أحدهم ـ وكيل المعهد ـ الأستاذ فؤاد كلمة بالعربية السليمة، أعرب فيها عن سروره وزملائه بهذه الزيارة، وعرض خلالها تعريفاً مفصَّلاً للمعهد وطلابه ومناهجه، وركز بوجه خاص على البواعث الأولى لإنشائه عقيب المحاولة الشيوعية للاستيلاء على أزمة الحكم عام ١٩٦٥ إذ أيقن رجال الحكم ـ كما أسلفت في حلقة سابقة ـ إلاَّ سبيل إلى حماية البلاد من نكسة ماركسية أخرى إلا بتكوين الجيل المزود بالحصانة الإسلامية..

فالمعهد إذن إحدى ثمرات التفكير الصحيح الذي استولى على قناعة الحكام الجدد، وهو واحد من عشرات المعاهد التي أنشئت أيامئذ لهذه الغاية على امتداد الجزر الأندونيسية، وكانت سبباً في تزويد الجامعات بالمساجد بعد تلقيح مناهجها بالمضمون الإسلامي..

ولكن .. المحزن أن أولئك الرجال الذين أعلنوا إيمانهم بهذه الحقيقة، فأقاموا لدعمها كل هاتيك المؤسسات، قد فترت عزيمتهم أخيرا وبدأوا يتراجعون عن تلك الجادة المشرقة بنور الله، حتى انهم لا يتورعون اليوم عن فتح بلادهم لقوافل التبشير النصراني المزود بأساطيل البر والبحر والجو، بل إن

كبيرهم نفسه ليفتتح مؤتمرهم التبشيري –أيام وجودنا هناك– بالتشجيع الذي لا تنعم الدعوة الإسلامية بشيء منه في أندونيسية المسلمة.. وقبل سنتين حشد المبشرون قوتهم –ومن ورائهم كل أنصارهم الدوليين– لعقد مؤتمرهم المسكوني في هذه الأرض العزيزة، وأصروا على ذلك تحديا لمشاعر المسلمين الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها لمنعهم من ذلك، ووقفت الدولة وراءهم تحمي محاولتهم بكل قواتها.. ولكنهم اضطروا إلى تحويل وجهة المؤتمر إلى مكان آخر عندما اغتيل كبير قُسُسِهم، الذي كان يحمل راية التحدي، فعلموا أن الصبر على مؤامراتهم قد بلغ نقطة الصفر، وأنه لا مندوحة لهم من تغيير أسلوبهم في مواجهة الجماهير المسلمة.

التبشير والباطنية والبانجاسيلا

على أن تراجع المسؤولين عن الخط الإسلامي لم يقف عند حدود تشجيع التبشير النصراني الذي أصبح بفضلهم يكتسب كل حين مواقع جديدة في أوساط المحرومين من المسلمين، حتى لتتحول قرى بأكملها من الهُوية الإسلامية الى التابعية الدخيلة.. بل إن هذا التشجيع قد شمل أخيرا أوساط الباطنيين من سكان أواسط جاوة، وهم الذين يخلطون التعاليم الإسلامية بمواريثهم الوثنية القديمة، ولكنهم مع ذلك لا يفكرون بالانتساب لغير دين الأمة المسلمة. فقد رأى أولئك المسؤولون الكبار أن يَشُقُّوا هؤلاء عن جماعات المسلمين، ليشكلوا طائفة جديدة تكون لهم عونا أيام الانتخابات، وقد أدى ذلك إلى اضطراب عارم قادته الطبقة المثقفة من طلاب الجامعات، ولم يخمد لهبُه إلا بعملية قمع دموية أوقعت في الكثير منهم إصابات بالغة.. ثم انتهى الأمر إلى ما أراده المسؤولون الكبار، إذ صدر القرار التشريعي بمنح الباطنية الامتياز الذي لم تحلم بمثله قط...

وطبيعي أن ذلك الدعم الرسمي لجيوش التبشير، وما تلاه من تأييد للردة الباطنية ما كان ليحدث لو استمر حكام أندونيسية الجدد في خطتهم الراشدة، التي اقتنعوا بسدادها عقيب الثورة الماركسية، التي كانت تخطط لتدمير الكيان الإسلامي كله بعملية قمع تغرق أندونيسية في بحر من الدم...

ولعمر الحق لو أن هؤلاء الحكام الجدد صَمَدوا للمؤامرات الدولية، التي لا يخيفها شيء مثل تنامي الوعي الإسلامي، ولو أنهم واصلوا طريقهم السديد حتى إقامة الحكم الإسلامي الصحيح، لكانت أندونيسية في مقدمة الركب الإسلامي، بل لكانت أندونيسية اليوم هي المركز النموذجي الرائد في تطبيق الشريعة السمحة، التي أنزلها الله من فوق سبع سموات لإنقاذ الإنسانية من ظلمات الضَّياع، ولتوفير الحياة السعيدة الآمنة لعباده جميعا..

ولو حدث هذا لما أتيح لعامل إحدى المحافظات أن يقول لمجموعة من المدرسين في أحد مراكز

التدريب (نحن مستعدون لمساعدتكم بكل ما نستطيع إذا وقفتم في دورتكم عند حدود اللغة، ولكنا لن نسمح أبداً بتجاوز ذلك إلى الكلام في الدين..).

ولو حدث هذا لتردد أحد الوزراء طويلا قبل أن يقول عن افتتاح مركز لتعليم العربية في جاكرتا (ذلك هو الاحتلال الثاني..) وبديهي أنه يريد بالأول دخول الإسلام إلى بلاده!.

ولو حدث هذا لما وجد مندوب أندونيسية إلى مؤتمر قمة الرباط قبل عامين حاجة لكي يصرح لوكالات الأنباء بأن في بلاده أكثرية مسلمة، ولكنها ليست دولة مسلمة، وهو لا يعلم أنه بذلك يجرد أمته من أكرم مفاخرها.. ولو حدث ذلك لم يوضع الحظر ــ هذه الأيام ــ على سفر رجل الدعوة الإسلامية في أندونيسية الدكتور محمد ناصر..

وأخيرا لو استقام أولئك على الطريقة لما تيسر لكبير حزب الحكومة (الجولكار) أن يقول ذات يوم لطلبة أندونيسية في الجامعة الإسلامية بالمدينة: (حَذارِ أن تفكروا بدولة إسلامية. إن عليكم أن تعملوا تحت مظلة «البانجاسيلا» فقط.. وكل من لا يجد في نفسه الرغبة في ذلك فلا مكان له في أندونيسية) أما البانجاسيلا هذه فلها حديث آخر بإذن الله..

معاهد وجامعيون

وتابع الشيخ عرفان ــ مدير جامعة دار السلام ــ إحسانه، فمر بنا على عدد من المدارس العاملة لتثبيت الإسلام في هذه المنطقة، ومن هذه المدارس (المعهد الديني) الذي يحمل اسم (شنتاونا) وزرنا شيخه الفاضل الكياهي إسحق في منزله الجامع بين التواضع والتعالي، فهو مسكن قروي غاية في البساطة والنظافة معا، ولكنه غاية في السمو كذلك بمكتبته العامرة بمئات المجلدات التي تملأ أكثر من حجرة.. والماثل أمام صاحبها وهو في مجلسه من تلك المكتبة، وقد غرق في غمرة مهيبة من الوقار، لابد ان يسرح ذهنه إلى أيام الماضين من شيوخ العلم، وقد يتذكر وصف ابن المبارك للإمام مالك:

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
عز الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

وحانت صلاة الظهر فأديناها في المسجد المصاقب لبيت الشيخ، وفي هذا المسجد رأينا ولمسنا مظاهر الجو التعليمي ـ الذي طالما نعمنا بمثله في سن الحداثة. فهناك الألواح منتصبة على أضلاع الجدران، وعلى كل منها ملخصات دقيقة لنوع من العلوم... وأكثر ما شد بصري منها ذلك التلخيص لقواعد النحو، إذ استطاع أن يحيط بمعظم بحوثه في ضبط رائع.. .. وهناك الطلبة ومعظمهم في سن

الشباب، ولما استوضحنا أمرهم علمنا أن بينهم طلابا جامعيين، يتلقون في هذا المسجد ما ينقصهم من علوم العربية والدين... وذلك شيء مألوف في هذه البلاد، إذ يجمع الطالب المسلم بين العلوم العصرية، التي تساعده على طلب الرزق عن طريق الوظيفة ونحوها، وبين علوم الدين، ولا سبيل إليها إلا عن طريق العربية.. ولا أزال أذكر ساعة صعد إلى مقصورتنا في القطار ـ أثناء عودتنا إلى جاكرتا ـ أحد الفتيان، فسره لقاؤنا، وجعل يحدثنا عن عمله فإذا هو طالب يتلقى دراسته الجامعية في بلد، ويتلقى دروس الدين والعربية في بلد آخر هو الذي يعود منه الآن...

من أجل الإسلام

ومن ذلك المعهد القروي انتقلنا إلى المعهد الآخر (مفتاح الهدى) الذي نقلنا من جو الكتّاب التقليدي إلى جو المدرسة العصرية... فالبناء كبير ومديد، والفناء رحب فسيح يقوم على أحد جانبيه منزل المدير الكياهي ـ الشيخ ـ خير أفندي وفي صدره ينهض المسجد الجميل الرشيق الواسع وكانت جلسة ممتعة مع هذا الرجل الذي يعتبر وأمثاله من الشيوخ شيئا لا غنى عن معرفته من تاريخ أندونيسية الإسلامية...

إنه في السبعينات من سنيه، ولأول لقاء معه، بل لأول نظرة إلى وجهه الصيني، ذي اللحية الجميلة والعارضين الخفيفين، تشعر أنك تلقاء إنسان يستحق الحب والاحترام... فإذا ما تكلم ـ بلسان عربي مبين ـ وجاذبك أطراف الحديث بذلك الظرف المحبب، خيل إليك أنك قديم العهد بمعرفته ولكنك لا تذكر كيف وأين...

ووصفه الشيخ عرفان، بأنه من أصحاب السابقة في الجهاد. ومن هنا أتيح لي أن أقف على المعلومات التالية...

الجو الذي ولدت فيه شخصية سوكارنو هو نفسه الذي صنعت في ظله شخصيات: أتاتورك، وسعد زغلول، ورضا بهلوي، وأمان الله خان، وأحمد زوغو، وعبدالناصر، وبورقيبة، والقذافي، فكلهم أعدوا للقيام بمهمة التغيير الذي أرادته القوى الخفية في بنية الكيان الإسلامي.. ومن أجل ذلك سلطت عليهم الأضواء، وأحيطوا بأنواع من الأحداث المفتعلة، التي قربتهم من قلوب العامة وأشباههم حتى إذا حانت ساعة الصفر المقررة في دهاليز اليهودية والصليبية دفع بكل منهم إلى المسرح على أنه البطل المنشود...

هكذا تماما قذف الاستعمار بسوكارنو إلى منصة الاستقلال ليقوم بالدور الذي هيء له، وما هي إلا مرحلة بعد أخرى حتى زال القناع، وظهر الرجل على حقيقته محاربا للإسلام وأهله، ومتواطئا مع الماركسية المادية لتحويل مسيرة الشعب الأندونيسي إلى طريقها المرسوم...

وعلى دأب الشيوعيين، عندما يستشعرون القوة في ظهورهم، شرعوا في تحدي الوجود الإسلامي على مختلف الأصعدة، فكان لابد للوعي الإسلامي من أن يستيقظ على دويّ هذا النذير، وبخاصة أن المسلمين لا يزالون حديثي عهد بمقارعة الاستعمار، ولم تجفّ بعدُ دماء شهدائهم التي سكبوها لخلاص أندونيسية بعد أن تكالبت عليهم كل القوى المعادية للإسلام من الداخل والخارج.. وسرعان ما تحركت قوى الإيمان وتلاحق الشباب أفواجا إلى الغابات ليقاتلوا عن دينهم وأعراضهم... حتى بلغ المجاهدون قرابة مائة ألف خلال وقت قصير، يقودهم شيوخ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ونشبت المعارك في الجبال والشوارع، وراح المجاهدون يحققون الانتصار بعد الانتصار، حتى اضطر المتسلطون إلى تغيير خططهم، فجعلوا يسوقون أمامهم جموع المسلمين ليتخذوا منهم دريئةً بوجه المجاهدين، فإما أن يُلقوا سلاحهم مستسلمين، وإما أن يطلقوا نيرانهم على إخوانهم الأبرياء، فتقع الفرقة بينهم وبين الشعب.. فآثر الكثير من جنود الإيمان يومئذ أخف الشرين، ولزم المعتصمون في الجبال معاقلهم رافضين كل عرض تقدم به الأعداء...

المؤامرة الشيوعية

وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر من وراء الحدود إلى الشيوعيين باستعمال ضربتهم المقررة، فتحركوا للانقضاض على الحكم، وكان التقدير أن يقضوا في الهجمة الأولى على كل ذي اتجاه إسلامي في جهاز الدولة وفي أوساط الشعب.. ولكن الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا، فكُشِفت خطتهم الشيطانية وفوجئوا بانقضاض أهل الإسلام عليهم، فإذا هم خلال يوم وآخر بين صريع وسجين وشريد.. وبذلك انتقل زمام السلطة إلى سوهارتو والقادة الذين نجوا معه من مؤامرة الشيوعيين، فكان من اوليات بوادرهم ذلك النداء الذي وجهوه إلى المجاهدين يدعونهم فيه إلى المشاركة في بناء العهد الجديد، وفي ظل الإسلام المجيد.. ولم يتريثوا في إبداء حسن نياتهم، فباشروا في إقامة المساجد، وتعديل المناهج، والافراج عن الكلمة المسلمة.. وكان هذا كافياً لإقناع أولئك الشيوخ، وبينهم خير أفندي، بما سمعوه من زخرف القول فما لبثوا أن هرعوا إلى بيوتهم، وهم يحسبون أنهم حققوا كل ما يتمنون.

انقلاب على الإسلام

ثم ما هو إلا أن يستوثق الحكام الجدد من تمكنهم حتى اخذوا في إحياء ما اندثر أو توقف من مناهج سوكارنو، وإذا هم يقذفون بالقادة الإسلاميين، كالجنرال عبد الحارث ناسيوتيون وإخوانه، خارج نطاق المراكز ذات التأثير في حياة البلاد، وإذا هم يطاردون كل العاملين للإسلام، ويخنقون كل صوت يرتفع بالدعوة إلى الله وعلى الوجه الذي يرضاه.. وهكذا اتضح لكل ذي بصر وبصيرة

أن مغادرة المجاهدين معاقلهم في الجبال استجابةً لذلك النداء إنما كان من نوع الاجتهاد غير السديد، بل كان دليلاً على أن أولئك القادة من شيوخ الجهاد لا يزالون بعيدين عن تقدير الوقائع، وعن النظر السليم إلى أحابيل السياسة..

وما أشبه نزول هؤلاء الإخوة من الجبال بنزول الرماة يوم احد من معاقلهم التي أقامهم عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويظل الفرق بعيداً بين الأولين الذين اعتبروا بما حدث فلم يعودوا إلى تكرار الحادث، وبين الآخرين الذين قرأوا خبر الرماة ولم ينتفعوا بما قرأوا، ولم يتعظوا بما أحدثت مخالفتهم في صفوف المسلمين.

ومن هنا كان أسف البقية من قادة الجهاد، وبينهم خير أفندي، كبيراً لتخليهم عن حصونهم العزيزة بمثل تلك السرعة.. التي انتهت بهم إلى الندم اللاذع.

ولكن .. ليت دعاة الإسلام يفيدون من هذه النكسات الدامية، فلا يعودوا يسمحون للثعابين أن تلدغهم من الجحر الواحد مرتين!..

جهاد لم يتوقف

والحديث عن معهد (مفتاح الهدى) لا تفي به حلقة واحدة من هذا المسلسل، فهو بحق أحد معاقل الجهاد الإسلامي في هذه المنطقة من جاوة الغربية، ومن الغبن لصاحبه الكياهي خير أفندي أن يوصف بأنه تخلى عن النضال منذ وضع سلاحه وهبط من الجبال إلى مقره من مدينة تشايس، ذلك أنه إنما عاد من الجهاد إلى الجهاد، إلا أنه استبدل بسلاحه الناري سلاحا نوريا، فإذا كان بالأمس بين المرابطين على أحد الثغور للدفاع عن وجود الإسلام، فما ينفك في رباط للهدف نفسه، وهذه المئات من طلابه وطالباته الملتزمين بفضائل هذا الدين أفصح الشواهد الناطقة بهذه الحقيقة.

لقد أسلفت بعض الإشارات إلى صلاحية ذلك المعهد وسعته وكثرة رواده من الراغبين في معرفة دين الله... وآن لي أن أعرض للقارىء بعض الصور التي تركت الانطباعات عميقة في نفسي..

لم يكن في المعهد لدي زيارتنا سوى الداخليين من الطلاب والطالبات، وقد فاجأناه على غير علم سابق، إذ كان ذلك بعد الفراغ من الدرس الذي له دوامه الخاص في رمضان.. ولكن الشيخ أبى أن نفارقه دون أن نخاطب الحضور من تلاميذه بكلمة مناسبة، فليس من المعقول أن يزور المعهد شيخٌ من الجامعة الإسلامية ومن مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم يغادره دون أن

يسمعوا منه بعض ما يُروي أشواقهم إلى مهبط الوحي الذي إليه يأزر إيمان المؤمنين من كل حدب وصوب .

وما هي إلا لحظات حتى حُشِد مئات الحضور في مسجد المعهد، وقد أخذ كل من الجنسين شطره المعتاد مفصولا عن الشطر الآخر بالستار الحاجز..

كان المشهد مهيبا بما تراءى في جوه من السكينة والأدب، وزاده وقارا ذلك المظهر المميز الذي بدت فيه أسراب الطالبات، وكأنهن الحمائم البيض لا ترى العين منهن سوى الوجوه البريئة، على حين شمل الجلباب الأبيض الموحد سائر هياكلهن..

ولكم وددت لو شاع هذا الزي في أنحاء أندونيسية كلها، بل في أنحاء العالم الإسلامي جميعا، إذن لسجل المسلمون أكبر انتصاراتهم على القوى الخفية التي تشد بالمرأة المسلمة إلى غيابات المزالق باسم الحرية والتقدمية، لأنهم بذلك يؤكدون تميزهم الذاتي، واستمساكهم بالرسالة التي اختارهم لها الله، منذ وصف سلفهم الصالح بقوله لهم (كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..) ولا سيما بعد أن أصبحت المرأة معيار الثبات والانحلال في شخصية الأمة، وظن أعداء الله أنها أقرب عناصرها استجابة لمغرياتهم، فركزوا نشاطهم على استجرارها وإفسادها بكل ما يملكون من أحابيل الشيطان..

ولا أنسى، وأنا في صدد الكلام عن طالبات (مفتاح الهدى) أن ظاهرة التسامي فيهن قد بدأنا نلمسها ــولله الحمدــ في كل قطر من وطن الإسلام، حتى في حديثات العهد بالإسلام من أوروبة وأميركة.. وذلك على الرغم من وفرة المثبطات المرهقات التي تُوجَّه إلى قائدات هذا الزحف المظفر، وبخاصة في الأقطار التي يحكمها طواغيت الماركسية والاشتراكية من أرض الإسلام..

وحدة المسلمين

وركزت حديثي حول وحدة المسلمين، والعناصر الأساسية التي عليها تنهض هذه الوحدة، من العقيدة والعبادة، والأخلاق، والسلوك المتميز، وذكّرت الإخوة بمسؤوليتهم نحو هذه الأساسيات، التي تفرض على كل منهم ذكرا أو أنثى الثبات بوجه المغريات، واتخاذ الأسوة من حياة رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ والسلف المختار من صحابته وأهل بيته والتابعين لهم من الذين سبقونا بالإيمان.. بحيث يكون كل منهم ــذكرا أو أنثىــ موضع الأسوة للآخرين من الذين حالت ظروفهم دون الوصول إلى هذه المستويات..

ولم أنس أن أُدخل السرور والأمل إلى قلوبهم بالحديث عن إخوتهم الطلاب الأندونيسيين، الذين يتلقون العلم في الجامعة الإسلامية، وما يمتاز به جلهم من الصفات الحميدة، والغيرة على دين الله.. فكان لذلك كله أثره الطيب في قلوب السامعين.. إذ كان أحد الأدلة على صلاحية هذا الشعب المؤمن لنشر هداية الله وترسيخها في هذه الجزر، التي أصبحت مهبّ العواصف الوافدة من الشرق والغرب، وكلها يعمل جاهدا لإطفاء ذلك النور..

ولا جرم أن من أسباب النجاح في نطاق الدعوة أن تذكر من تحدثهم بالطيّب من مآثرهم أو مآثر قومهم، فترهف لك الاسماع، وتنشرح لقولك الصدور، وتتهيأ القلوب لقبول الخير الذي تريد.. وهكذا كان لتلك الإشارة إلى أبنائنا الأندونيسيين أثرها الجميل في عواطف إخوانهم وأخواتهم هؤلاء، حتى لم يتمالكوا أن أعلنوا رضاهم عن ذلك بحمد الله على ما وفقوا إليه من الصفات التي تستحق التنويه.

ولما تحركنا للانصراف من المعهد سألت الكياهي خير عن الجهة التي نهضت بمهمة إنشائه، ومن ثم بالإنفاق عليه وعلى طلابه.. وكأني بذلك قد لامست موضع الحساسية في قلبه فقال: «من فضل الله أننا لم نتلق حتى الآن أي معونة من خارج أندونيسية، وكل ما تراه من بناء للدراسة والإدارة ولسكن الطلاب والطالبات، مرده إلى تعاون أولي الغيرة والإحسان من أبناء هذه الأرض.. وعلى الرغم من حاجتنا الماسة إلى عون إخواننا المسلمين في البلاد العربية، لمواجهة المتطلبات المتجددة، فقد عقدنا العزم على ألاّ نمد يدا لأحد، إلا أن تأتينا المعونة عفوية، وبدافع من الرغبة الخالصة في خدمة الدعوة..»

ولعل من متممات هذه المعلومات أن أضيف إليها ما وقفت عليه في مختلف الجزر الأندونيسية، وذلك أن المدرسين والطلاب في مقدمة المسهمين في هذه الإنشاءات والتجهيزات، على ضآلة قدرتهم. فكثير من المدرسين أشبه بمتبرعين لا يكادون ينالون من المكافآت ما يستحق الذكر.. وكذلك الطلاب الذين يعيشون داخل نطاق المؤسسة يؤدون لها أقساطا شهرية لا تتجاوز العشرين ريالا إلا قليلا عن كل شهر من كل طالب، وهو إسهام يسد بعض الثغرات في موازنتها القائمة على تبرعات المحسنين..

العناية بالحجيج

ومن (مفتاح الهدى) أخذنا سبيلنا إلى المركز الإسلامي التابع للمجلس الأعلى الذي يشرف عليه من جاكرتا الدكتور محمد ناصر. وهو بناء فسيح ومتين ومهيأ لاستقبال محبي الثقافة الإسلامية، والظاهر أن لهذا المركز دورا هاما في خدمة الدعوة ونشر العربية، ولكن لم نشهد شيئا

من ذلك أثناء زيارتنا، لأن ضيق الوقت حال دون الاطلاع على أقسامه جميعا، وإنما اقتصرنا على أحد أجنحته وكان مشغولا بهيئة الحج، التي تتولى الأعداد لاستقبال المراجعين، وإنجاز المعاملات الخاصة بهذه المناسبة.. وهو عمل تُعيره السلطات المسؤولة في أندونيسية اهتماما غير قليل. وقد علمنا من بعض موظفي مكتب الملحق الديني في جاكرتا أنه أحد المكلفين للقيام بتوعية الحجاج، وأنه وزملاء له يقومون بهذه المهمة على صورة محاضرات وتوجيهات تساعد الحاج على أداء واجباته على خير وجه. ولعل لهذه التدريبات أثرها في ذلك التنسيق الذي يُعرف به حجاج أندونيسية كما نراهم في الحرمين، إذ يمتازون على سائر الحجيج بنوع من التنظيم المعجب، فهم أينما ساروا أو اتجهوا لا يفارقون الصف، كأنهم سرب من الطيور الهاجرة المنتظمة وراء مقدمتها..

ولعل من غرائب الاتفاق أن أبلغ من الحلقة إلى هذه الخاتمة، ثم أمضي إلى الجامعة لأجد رسالة تنتظرني في كلية الدعوة وأصول الدين، وهي موجهة إليّ من الأستاذ الذي تولى ترجمة حديثي في مسجد (مفتاح الهدى)، فكان من أثرها أن ردتني إلى ذكريات لم أنسها، وأعادت إلى نفسي نفحات زكيات من ذلك الجو العابق بروح الأخوة.

الحديث الأخير

هذه الأربعة الأيام قد قاربت الانتهاء، وهي المدة التي حددت لإقامتنا في تشايمس، وفي صبيحة الأربعاء ١١/ ٩/ ١٤٠٠ وعقيب صلاة الفجر كان موعد الحديث الأخير إلى طلاب الدورة.. وقد أدرته حول القرآن العظيم وأثره في تاريخ الإنسان، وحاجة المسلم المعاصر والعالم كله إليه.. وذكرتهم بمسؤوليتهم تجاهه، وواجبهم نحو بلادهم ونحو إخوتهم في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وركزت بوجه خاص على أهمية أندونيسية بالنسبة إلى الدعوة وأهليتها للقيادة الإسلامية والعالمية، إذا هي ألقت بثقلها في أحضان الإسلام..

وفي تمام السادسة تحركت بنا السيارة بين صفوف الطلاب إلى محطة القطار، الذي لا مركب منظم سواه بين تشايمس وجاركتا، وكنت أتوقع أن يكون أروح سفرا من السيارة، وكان ذلك ممكنا لو وجدنا فيه قسما للدرجة الأولى، التي لابد أن تكون أوسع مكانا وألين جانبا.. ولكن الواقع سرعان ما خيب الأمل، إذ لم يكن ثمة أفضل من الثانية التي حُجِز لنا فيها، وما أحسبها تختلف عن الثالثة بشيء من وسائل الإزعاج، سواء من حيث ضيق المسافة بين المقاعد، أو من حيث وضع المقعد نفسه.. فقد كان منسوجا من لحاء الخيزران إلا أن مستنده مع أرضيته يشكلان زاوية أكثر من قائمة، فالجالس عليه سيتعرض لبلاء كبير، إذ يظل أسفل ظهره محروما من الراحة لا يدعمه أي شيء.. ولا سيا في رحلة طويلة لا تقل عن الساعات الثمان..

وودعنا الإخوة المشيعين وقد ساءنا فراقهم الذي لا مندوحة عنه.. وما هي إلا دقائق حتى جعلت القاطرة تنفث زفيرها، ثم ترسل زعيقها، ثم تنطلق خلال الحقول الفسيحة، وفوق الجسور المديدة الرهيبة، تجتاز الأودية والأنهار، فتر ينا من طرائف الروائع كل جديد لم تمر به السيارة...

وأنظر الساعة في مفكرتي لأقرأ فيها العبارة الحية التالية:

إلى جاكرتا

(الخميس ١٤٠٠/٩/١٢

نحن الآن في القطار يجري بنا نحو جاكرتا منذ الساعة ٦٫٥٠ في طريق ساحر لا يحيط الوصف بجماله.. الحقول تتابع كالموج في المحيط الهادي، وأنواع الشجر يمر بنا مسرعا محيِّياً ملتفّاً بألوان من الحِبَر والحلي لا ينقصها حتى الأحمر والذهبي والبنفسجي.. كل شيء هنا يسبح بحمد ربه.. فتباركَ الله أحسن الخالقين...)

وكما لطفت مناظر الطبيعة الخلابة مشقة السيارة المتراقصة بالأمس، هكذا كان حظنا من القطار، فهو بمعروضاته الماتعة يكاد ينسينا ما نعانيه من النصب واللغوب.. وكان لوقفاته البليدة في العديد من المحطات وبأصناف ركابه المتغيرة هنا وهناك، ما يساعد على تجاهل المزعجات..

نشاط وجمود

ومرة أخرى يسترعي انتباهنا التناقض العجيب في مظاهر الحياة..

نشاط رائع يترجم واقعه بهذه الخضرة التي تكسو كل مرتفع ومنخفض من هذه الأرض، فلا يقع بصرك منها على رقعة لا تسجل جهاد الإنسان الأندونيسي في استغلال كل شبر، واستنبات كل نوع من الزروع المنسجمة مع مناخه وترابه، والانتفاع بكل قطرة من الذهب الأبيض ــ الماء ــ المتدفق في كل اتجاه ومن كل مكان..

ومهما أنس لا أنس تلك الأرض التي جاورتْ أحد الأنهار بعد باندونغ، وقد حال ارتفاعها غير اليسير عن مستواه دون مشاركتها في مياهه الخيِّرة.. وكأن زُراعها قد استكثروا تكاليف ريها عن طريق المحركات، فعمدوا إلى تعميقها، وما زالوا بها حفرا وجرفا حتى انخفضت عن سطح النهر.. ولقد استبقوا من معالمها الماضية كتلة أشبه بعمود يحدد مدى ما كانت عليه من الارتفاع الذي يقارب المترين..

ولكن .. إلى جانب هذا وذاك من مظاهر الجهد الحي ظواهر مناقضة لا أجد لها تعليلا سوى ما سبقت الإشارة إليه من الجمود والكسل..

لقد قطعت حتى الآن قرابة الألف من الكيلات خلال هذه المناطق الزراعية الفائقة الخصب، دون أن يقع بصري على محراث آلي أو جرافة أو رافعة.. وإنما هو الإنسان والجاموسة والأرض فقط ولا شيء غيرها..

ولقد دققت النظر في أنواع الحيوان والطير الأهلية، التي هي مناط حياة الإنسان في كل مكان.. فلم يتجاوز ما رأيت منها بضع مئات، من البقر والغنم والدجاج.. ولا أذكر أني شاهدت حمامة واحدة خلال هذه المسافات الشاسعة.

وليس الأمر بالنسبة إلى الصناعة أقل غرابة.. ذلك أني لم أر قط مصنعا واحدا طوال هذه المسيرة، اللهم إلا بعض معامل النورة ــ الكلس ــ تطحن الحجارة المحروقة لأعمال البناء.. ومصنعا لتجفيف الحليب على مقربة من جاكرتا، قيل لي انه مملوك لشركة هولندية.. وأذكّر بما قلته من قبل وهو أني لم أشاهد في جاكرتا، على كثرة ما تجولت من شوارعها، حانوتا واحدا لبيع الدجاج حيا أو مشويا.. وطبيعي أن بلدا يقل فيه الحيوان والطير الأهليان إلى هذا الحد لا يسأل عن موارده من النقد النادر الذي يعود عليه مقابل صادراته منها إلى الخارج.. ومن هنا يطل القارىء على طرف من التخلف الذي تعانيه عامة الشعب في مستوى المعيشة وزهادة الدخل، على الرغم من أنه يعيش على أرض لا أكبر منها استعدادا للعطاء الجزيل..

وانتهى القطار بنا إلى محطة العاصمة في تمام الساعة ٣٫٣٠ بتوقيت جاكرتا، وأبى مرافقنا الأخ أحمد جميل ــ الطالب بكلية اللغة العربية بالجامعة ــ إلا أن يكون إفطارنا ومبيتنا تلك الليلة في منزلهم.. وسرنا أن نتعرف هناك على والده الفاضل وبعض أقربائه، وكان بينهم أخ كريم لم يعوزنا إلى مترجم، لأنه يحسن من العربية ما تمس الحاجة إليه، وسألته عن مصدر هذه الكلمات العربية، فأجاب أنه يتلقاها من الدروس المسائية في المعهد المنشأ في جاكرتا لهذه الغاية من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكنت قد سمعت عن هذه المؤسسة حديثاً طيبا إلا أني لم أوفق إلى زيارتها بعد..

وبعد الإفطار قدم إلى المنزل الأخ محمود السامرائي خريج الجامعة الإسلامية، مندوبا من قبل الندوة العالمية للشباب المسلم بالرياض.. ومنه تلقينا بعض أنباء البلاد العربية، التي حجبت عنا منذ فراقنا إياها، واطلعنا على بعض الصحف الإسلامية التي صحبها من هناك.. وفيها من الأخبار الجديدة مقتل الأستاذ صلاح البيطار في باريس، وهو الأمر الذي لم أفاجأ به لأني أتوقعه منذ قرأت مقاله الصريح عن مأساة سورية، وقد أعربت عن توقعي هذا لبعض الأصدقاء..

حديث في التوحيد

وفي المسجد القريب من المنزل أدينا صلاة العشاء، وراء الإمام الذي ألح كثيرا بتقديمي فأبيت، لأني أريد الاطلاع على أوضاع المصلين في كل مسجد دخلته.. ولما حانت صلاة التراويح بدأ المؤذن التمهيد لها ببعض الكلام العربي المنظوم، ثم جعل يعيده بين كل صلاة وأخرى، وفيه ما لا يقره الشرع، والمصلون يرددونه وراءه دون فهم ولا علم.. فرأيت لزاما عليّ أن أسمعهم كلمة الحق في هذا الشأن، وسألت الأخ أحمد إذا كان على استعداد لترجمة حديثي على أتم وجه فلم يرفض.. وطبيعي أن الكلام في مثل هذه المناسبة لابد أن ينصب على موضوع التوحيد بعامة، وتوحيد الألوهية بخاصة، وقد مهدت له بمقدمة عاطفية عن أخوة الإسلام، والوشائج التي تربط بين كل مسلم وآخر في أنحاء العالم، وذكّرت بما لهذه الأخوة من حقوق في طليعتها النصيحة الخالصة لوجه الله، ومن ثم تطرقت إلى الفكرة التي أريد، ففسرت للمصلين معاني الكلمات التي يرددونها وما تحتويه من الشطط من حيث توجيه الدعاء **والاستغاثة** إلى غير الله، وطلب النفع من غيره سبحانه..

ولقد وجدت لكلامي صدى طيباً أكّد لي أن المسلم، مهما تراكمت الصوارف على عقله، لا يستعصي على الكلمة الطيبة المتصلة بمنابع الوحي، بل لا يكاد يسمع أمر الله ورسوله حتى يستيقظ ضميره و يثوب إلى الحق..

ولما كان صباح الجمعة ١٤٠٠/٩/١٣ مضيت إلى مكتب الملحق الديني لأستطلع أخبار زميل الرحلة، فاطمأننت إلى وصوله، ثم سألت عما إذا تيسر العثور على المكان المناسب لي كالذي كلفت بعض الإخوة بالبحث عنه، فإذا أنا بالأخ عدنان سومرجي قادما من لدن الدكتور محمد ناصر ليحملني إلى فندق (و يسما جوهر) الذي يقول إن صاحبه حضرمي من أهل الفضل. وكانت الغرفة صالحة، والخدم ممن يحفظ بعض الكلام العربي. وكان هذا كافيا لإيناسي، إلا أني لاحظت ان ثمة توصية بأن يكون الحساب على الدكتور، فاعتذرت سلفا وأفهمت مدير النُزُل أني لن أقبل هذا أبدا..

وحان موعد الإفطار، وكان عليّ أن أواجه مشكلته التي لا أعرف السبيل إلى حلها..

البحث عن الطعام

لم يبق دون الغروب سوى دقائق فعليّ أن أعرف مكان إفطاري، وقد فهمت من مدير الفندق أن المطاعم حول الفندق كثيرة، وهي كذلك ولكن ما السبيل إلى التفاهم مع أصحابها!. لقد طفت بعدد منها دون جدوى، فأنا لا أعلم ما لديهم من الطعام، ولا أستطيع الاستسلام للواقع

فأترك للخدم أن يقدموا لي ما يشاءون.. وحسبي ما لقيته حتى الآن من المتاعب في هذا الشأن، إذ لم أكد أعثر بلون أسيغه.. ومررت كذلك بالعديد من البقاليات أسأل بالفرنسية وبالاشارة عن الجبن واللبن وما إليها عبثا، فأنا هنا كالغريب الذي أضاع مفتاح غرفته، فلا يملك وسيلة لفتحها، ولا يجد من **يساعده** على ذلك.. وكان يرافقني في هذا التجوال فتى مهذب من نُدُل الفندق، بذل وسعه لمعاونتي ولكن دون جدوى.. حتى انطلق صوت المؤذن يعلن حلول المغرب، ويفسح للصائمين سبيلهم لكسر الريق إلا أنا.. وشدّ ما أطربني ذلك الصوت وهو يرجّع كلمات الأذان كما أقرها رسول الله —صلى الله عليه وسلم—.. حتى أوشكت أنسى الوحشة التي أعانيها.. وتوقفت قليلا أتبين موقع المسجد، وقد عزمت أن أنصرف إلى الصلاة أولا ثم أستأنف البحث عن الطعام، وسألت النادل بالإشارة عنه، وكررت له اسم «المسجد» وأنا أرفع يدي إلى شحمتي الأذنين.. **فإذا هو يردد** الاسم نفسه بعربية سليمة «مسجد.. مسجد»، ثم يأخذ بيدي الى **دارة** —فيللا— مقابل الفندق، ويفتح من مدخلها العريض الضخم بابا جانبيا ثم يدعوني للدخول.. بيد أني تريثت ولم أستجب له ظنا مني أنه لابد جاهل ما أريده، فليس هنا ظاهرة تدل على مسجد.. وظل الفتى يستحثني على الدخول مكررا بكلمة «مسجد»..

ضيافة عربية

وفكرت قليلا لعله منزل أحد ميسوري المسلمين قد جَعَل في جانب منه مكانا للصلاة.. واستخرت الله ودخلت، فإذا هناك ردهة واسعة، تضم مستقرا لسيارة ويقوم في وسطها حوض جميل، ولا أثر فيها لمسجد.. ومع ذلك لزمت الصبر حتى أرى النتيجة. وتقدم الفتى إلى باب المنزل فضغط على جرسه، وأطل علينا من ورائه وجه رجل تجلله سمرة محببة، فما كاد يبصرني حتى أقبل عليّ يصافحني ويرحب بي في عربية واضحة تخالطها لكنة خفيفة..

وشعرت بغاشية من الخجل تغمرني من هذا الموقف المفاجىء، ولبثت واقفا وأنا أكرر الاعتذار بأني لا أعلم إلا أني داخل إلى المسجد لأداء الصلاة.. فحاولت العودة من حيث أتيت ولكن الالحاح الكريم أقنعني بضرورة البقاء وقبول الضيافة..

وأثناء الطعام علمت أننا مع صاحب الفندق نفسه، وهو أحد مئات الألوف من العرب الحضارمة الذين أسهم آباؤهم في حمل راية الإسلام إلى هذه الجزر منذ مئات السنين، وعلى الرغم من ارتباطهم الوثيق بها لا يزالون محتفظين بالكثير من خصائص الجزيرة العربية، وبخاصة الكرم، والنشاط الذي اشتهر به الحضارمة في كل مكان.. بل إنهم **ليغالون** أحيانا في طابع المحافظة حتى ليكادون يحصرون علائقهم الأسرية في نطاق جنسهم وحده، فلا يتزوجون من غيرهم، ولا يزوجون.. ولعل بعض البواعث على ذلك انتساب الكثيرين منهم إلى البيت النبوي الشريف..

فهم حِراص أشد الحرص على صفاء هذا النسب وسلامته من الاختلاط.. وهو غلوّ لا مسوّغ له من الشرع الذي يعتبر الإسلام هو النسب الأعلى، والتقوى هي الكفاءة المميزة. على أن المؤسف أن غلوّا مقابلا قد شرع يتسلل إلى **أوساط** هؤلاء الإخوة، ودلك بظهور طلائع من جيل قد أخذت ببهارج المدنية الغربية، حتى أفرزت اليوم أفرادا من المغنين غرهم ما لاقوا من الإعجاب في أوساط المضللين، فراحوا يعلنون استخفافهم بالقيم، وتنكرهم للدين الذي أعز الله أسلافهم بخدمته وبإعلاء كلمته..

وأدينا صلاة المغرب جماعة مع هذا المضيف الفاضل السيد عبد الله مسلم العويني في منزله.. ولما اقترب العشاء مضينا جميعا إلى مسجد (جوت مطيعة) حيث أدينا المكتوبة والتراويح، واستمعنا إلى ذلك الأستاذ يلقي محاضرته بينها، فيستولى على انتباه السامعين حتى **لا يتمالكوا** أن يطلقوا القهقهة الموحَّدة استجابة لنكتة يوردها.. ولعمر الحق لقد أعجبت بإلقائه ولهجته وإن لم أفهم منه سوى الآيات والتحيات..

وفي النهاية ودعت مضيفي الكريم لآخذ سبيلي إلى حجرتي من الفندق.. وفي نفسي تساؤل جديد: هذا الإفطار قد يسره الله، فكيف السبيل إلى حل مشكلة السحور؟!..

مفاجأة ثانية

وسرعان ما جاءت المفاجأة الثانية، إذ لم أكد أدير مفتاح الضوء في الغرفة حتى وجدت ما لم أتوقع.. لفافة من الخبز المفضل، وأخرى من الجبن الهولندي الذي لم أعلم السبيل الموصل إليه.. ولم أشك أن ثمة توصية من هذا الأخ إلى خدم الفندق بإيقاظي للسحور، وتقديم ما يعوزني من الشاي في الوقت المناسب.. وكذلك كان..

ولا أدري الآن كيف تم اتصالنا بزميل الرحلة لأول مرة.. ولابد أن ذلك قد تحقق على يد بعض الاخوة من موظفي الملحقية الدينية.. وقد حاولت إقناعه بالانتقال إلى جواري في هذا الفندق الذي وجدت فيه كل الراحة، **ولكنه** أصر على أن يكون نزولنا في فندق (منتيكا) حيث ينزل هو، وأكد لي أن قرب فندقه من السوق يجعل الحياة أكثر يسرا.. ولم أشأ خلافه، وقد روَّضت نفسي على موافقة الرفاق في كل غربة، فلا أدع مجالا لأي سبب يحول دون انسجامنا..

وهكذا نقدت مدير الفندق أجرة الليلة عشرة آلاف روبية، وحاولت أداء ثمن السحور فلم أفلح، لأن ذلك كان هدية من صاحبه السيد عبدالله سالم العويني ــأكرمه اللهــ.

وفي فندق (منتيكا) قضينا معا سائر الأيام التي أمضيتها في جاكرتا على غير رغبة مني، بل لمجرد إرضاء الأخ الزميل. ذلك أن هذا الفندق من النوع المغرق في التفرنج، فالموسيقى مستمرة لا تقف، وفي ساحته السفلى مطعم واستراحة ومسبح.. ومع أننا قصرنا وجودنا على غرفتينا لم تسلم آذاننا من سماع اللغو، ولا أبصارنا من المناظر المؤذية.. بل لقد أخبرني زميلي أن نسوة من شوارد الليل يتربصن بالداخلين إلى الفندق والخارجين منه، فيتحرشن بهم ويحاولن إغراءهم..

والعجيب ــ بل الأعجب ــ أن صاحب الفندق هذا ــ كما حدثني زميلي ــ من المسلمين، وأنه حج واعتمر أكثر من مرة.. ومع ذلك لا يرى في عمله ذاك أي غضاضة، بل لا يجد فيه أي تناقض مع تلك العبادة، التي يصفها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنها تكفِّر ما سبقها من الذنوب إلا أن ترتكب الكبائر.. وإن لم تكن هذه كبيرة فأي شيء تكون الكبائر إذن؟!

وتثب الساعة إلى ذاكرتي قصة القوادة الأميركية، التي أعجزتها الشيخوخة عن مواصلة عملها في المتاجرة بأجسام البغايا، فرفعتْ عريضة إلى الجهة المختصة تذكر فيها أنها قامت بعملها بمنتهى الأمانة طوال خمسين سنة، وتريد الآن أن يُسمح بنقله إلى ابنة لها هي غاية في الاستقامة الكاثوليكية!.

وهكذا يبدو الفرق شاسعا بين النزلين.. ولكن لا أستطيع أن أنسى أن فندق «ويسما جوهر» وإن امتاز على «منتيكا» بالهدوء ونظافة الموقع من أولئك الشياطين، لم يخل من بعض هذه المفسدات، فقد رأيت في بهوه زوارا يرافقون نساء يكدن يخرجن من جلودهن فضلا عن ثيابهن.. فالبلاء عام وإن تفاوتت مقاديره بين مكان وآخر...

رؤيا يقظة

وبتلاقينا مع الأخ الزميل تبدأ المرحلة الجديدة من وجودي في أندونيسية... وقبل البدء في الكلام عن هذا الجانب أحب أن أسجل ما أعتبره مقدمة لهذا اللقاء. فأنا لم يسبق أن عرفت هذا الفاضل إلا من خلال الهاتف، الذي كان وسيلتنا لتعيين ملابسات الرحلة ومواعيدها، فقد تكرر هذا الاتصال بيننا عدة مرات، حتى انتهينا إلى الاتفاق على كل شيء. ومن ذلك أن يطير هو من الرياض إلى جاكرتا عن طريق مليسية، وعليّ أن أدبر سفري حتى يكون لقاؤنا في مكتب الملحق الديني بالعاصمة الأندونيسية..

على أني لم أحرم معرفتهِ الشخصية فيما بعد، ففي إحدى لياليَّ بمدينة **تشايمس** رأيتني أواجهه في مكتب الملحقية، وقد ارتدى عباءته وجلس إلى أحد المكاتب يكتب ويوزع الأوامر على

الموظفين.. وفي بعض تعابيره قسوة لم أسترح إليها، يوجهها إلى هؤلاء الإخوة الذين لمست فيهم كل تهذيب ورغبة في التعاون..

وشاء الله أن نلتقي فلا يختلف الأمر كثيرا بين الرؤيا الصادقة والواقع المشاهد..

والحق لقد كان تلاقينا طيبا.. وألفيت في جواره من حسن الصحبة ما لا أستطيع أن أنساه أو أتناساه، وبخاصة حين تعرضت للنكسة المتأتية من مشقة السفر بالسيارة والقطار ما بين تشاميس وجاكرتا، إذ ارتفعت حرارتي واعتراني بعض الإسهال، فاضطررت إلى ملازمة الفراش طوال يوم الاثنين ـ٣/١٦ـ وبعض الثلثاء، فأحاطني بكريم الرعاية والاهتمام، جزاه الله عني كل خير..

دراسة واستطلاع

في الاجتماع الأول مع الزميل تدارسنا المهمة الموكولة إلينا، وهي تفقد أمور الدعاة المكلفين من قبل دار الإفتاء في الرياض، والإطلاع على أوضاع المدارس الإسلامية في مختلف المناطق الأندونيسية، لتحديد ما ينبغي عمله لهؤلاء وأولئك.. ولا جرم أنها مهمة هامة وشاقة، لأنها تقتضينا التطواف على أكبر عدد ممكن من المعاهد المنتشرة على امتداد الجزر الأندونيسية، وكذلك توجب علينا زيارة المواطن التي يتحرك فيها الدعاة، للوقوف على أعمالهم، ولتعرف مستويات الناس ومدى حاجتهم إلى التوجيه الديني، لتحصينهم من الجهل والخرافة والدعوات الباطلة، وبخاصة دعاية مبشري النصارى، الذين خططوا لتحويل أندونيسية إلى بلد نصراني خلال خمسين سنة.. وقد أطمعهم بذلك تغاضي ـإن لم نقل تواطؤـ بعض المتنفذين والمسؤولين من المسلمين المتهاونين في شؤون دينهم وأمور عقيدتهم، وما وراء هؤلاء وأولئك من ضغوط خارجية، وأموال أجنبية لا حصر لها، مكنتهم من إقامة آلاف الكنائس، وتجنيد جيش من العاملين المدربين في مراكز التبشير الخاصة في أوروبة وأميركة، ووضعت في أيديهم أزمة الاعلام، ولا سيا عن طريق الصحافة التي توزع أكثر من مائة وخمسين ألف نسخة يوميا، وعن طريق المطابع ودور النشر، التي تغطي مساحة هائلة من مختلف الكتب والقصص.. هذا إلى العديد من المشافي والمطارات وكبريات المدارس.. بينها ١٧ مطاراً خاصا في جزيرة كلمنتان وحدها(١).. وفي جوكجاكرتا عشرات المعاهد التبشيرية، وهي على جانب كبير من القوة، حتى ان معاهد المسلمين هناك كثيرا ما تضطر إلى إقامة حفلاتها في بعض أبنيتها..

ولا ريب أن من الوقائع ذات الدلالات المثيرة أن يبلغ نشاط هذه المؤسسات التبشيرية أقصى قوته بعد جلاء الاستعمار العسكري، وفي ظل الحكم الوطني. ومرد ذلك بالدرجة الأولى إلى قدرة أصحابها على تلمس مواطن الضعف في الحركة الإسلامية، واستغلال الفجوات القائمة بين الشعب وأجهزة الحكم. ومن ذلك ما علمه القراء في حينه عن نجاح المبشرين في تنصير أسر الشيوعيين

(١) من تقرير هام نشرته مجلة المجتمع في العدد ٥١٢ ١٤ ربيع الأول ١٤٠١هـ.

الذين حُشِروا في المعتقلات عقيب محاولتهم الانقلابية عام ١٩٦٥ إذ ارتفع عدد المتنصرين من هؤلاء إلى أكثر من أربعمائة ألف ــ على ذمة الصحف التي نشرت تلك الأخبار ــ .

وإني لأكتب هذه الأسطر وبين يديَّ تقرير خاص عن «الحركة التنصيرية في جاوة الشرقية».. وفيه أقرأ الغرائب عن مخططات أولئك المبشرين الذين اتخذوا منطقة (مالانج) مركزا للانطلاق إلى ملحقاتها الأخرى.. مستخدمين في زحفهم الصحف والمجلات والنشرات والتلفاز والإذاعة.. ومسارح الفن وميادين التربية، وتوجيه المصالح الصحية... حتى ينتهي إلى الخبر التالي (وقد حققت هذه الحركة غير واحد من الانتصارات في بعض القري التي كان أهلها مستضعفي الإيمان، لا يشغلهم إلا حاجات بطونهم.. فتكونت في بعض المناطق قرى أعلنت أن سكانها كلهم أصبحوا مسيحيين، ويسمى من هذه القرى «سيتيارجو» و«بنوين»...)

وليس غريبا أن يحقق المبشرون المزودون بكل هاتيك الإمكانات بعض النجاح أو كله بين أولئك الذين يسميهم التقرير «مستضعفي الإيمان» لأن هؤلاء لم يستحقوا صفة المستضعفين إلا بسبب فقدانهم الوعي الديني، إذ لم يُقَيَّض لهم الدعاة الصالحون الذين يستحقون اهتمامهم، فظلوا عند حدود «الهوية» لا يفهمون للإسلام من معنى..

وما أكثر هؤلاء بين سواد المسلمين في آسية وأفريقية!.. وهم وحدهم موضع الأمل لغزاة الأديان المنحرفة، والتيارات الهدامة..

في مجاهل أندونيسية

وقبل أيام كنت في حديث مع الأخ الداعية الشيخ خليل رضوان عن أحوال الدعوة والدعاة، **وسألته أثناءئذٍ عما إذا** كان مندوبو دار الإفتاء يغطون حاجة المناطق الأندونيسية كلها، فكان جوابه بالنفي طبعا، وأخبرني أن ثمة نواحي لا يصل إليها داعٍ، وهي غارقة بالجهل إلى الأذقان، وضرب لذلك مثلا جزيرة «فلوريس» وتقع في محافظة نوساتنجارا الشرقية ــ مجموعة الجزر الشرقية من البلاد ــ وقد سافر إليها بنفسه وعلى نفقته، ويسمى منها «أدونارا» قائلا بأن خمسة في المائة من سكانها مسلمون وسائرهم من الكاثوليك، وأن في القرية مسجدا ولكن لم يستقبل أي مصل منذ عدة سنوات.. وليس هذا فقط بل إن المسلمين هناك يعاشرون أزواجهم بغير عقد شرعي، وقد أغفلوا سنة الختان.. وبلغ بهم الجهل والغفلة أنهم إذا توفي أحد أعيانهم، من بقايا الملوك، عمدوا إلى ذبح الجواميس وإقامة الحفلات أربعين يوما يقضونها في الطعام والرقص ولعب الورق والسهر حتى الفجر نساء ورجالا.. وقد استطاع خلال إقامته بينهم أن يردهم إلى كثير من الخير، فأجرى لهم عقود الزواج، وجاءهم بمن يختنهم صغارا وكبارا.. ثم اضطر إلى مفارقتهم فلا يدري شيئا عن مصيرهم بعد ذلك..

ويتحدث الأخ خليل عن نشاط التبشير فيقول: ان فرقا من المبشرين قد هبطت بطائراتها في بعض هذه المناطق الجاهلية دون علم من الدولة، على حين أن بعض المعونات الواردة من بعض الجهات الإسلامية لا تصل إلى مكانها من أندونيسية إلا في ضجة وزفة وعن طريق الجهات الرسمية!.

في الأزهرية والشافعية

وفي مكتب الدعوة تداولنا الرأي مع فضيلة الدكتور محمد ناصر وبعض معاونيه، **وانتهينا** إلى وضع الجدول اللازم لزيارة المؤسسات والدعاة. وفي الوقت المعيَّن من ضحى الأحد الخامس عشر من رمضان قدم الأخ عدنان سومارجي ليحملنا بسيارة الرابطة إلى مؤسستي الأزهر والشافعية..

وفي الأولى التقينا بنائب رئيسها الأستاذ سالم باسلامة، وهو حضرمي الأصل، كما يظهر من اسمه، ومن إخوان الدكتور ناصر، له في المدينة بعض ذوي القربى ممن يحملون الكنية نفسها، وعلى الرجل سيما الفضل والغيرة، وفي حديثه ملامح الوعي والعلم.. واكتفينا بالاستبيان **المطلوب**، إذ لم يكن ثمة مجال للطواف على الفصول، ولم يكن في المعهد سواه.

واستقبلنا شيخ المؤسسة الشافعية في منزله الجميل، وبعد كتابة الاستبيان الخاص بمدارسه، أخذنا بأطراف الحديث عن العلم والدعوة وأحوال الطلاب والطالبات، ولمسنا لدى الشيخ همة وتصميما عاليا، وجرَّنا الحديث معه إلى الكلام عن المواسم الدينية والموالد التي تُعني بها المدارس الإسلامية كثيرا.. وخلال الحوار قلت للشيخ: أترون الاحتفال بذكرى المولد نوعا من القربات؟ فسكت ولم يحر جواباً، فاستأنفت: هل ورد للموالد ذكر في ما بلغه رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ عن ربه؟ فنفى ذلك، فقلت: وهل نقل ذلك عن صحابته أو التابعين لهم بإحسان؟ فأجاب بالنفي أيضا، فقلت: وهل نحن أشد حبا وتقديرا منهم لرسول الله؟ فَلِمَ إذن **نحدث مالم** يفعلوه، ونعتبره من الصالحات؟!.. ولما لم أسمع جوابه على ذلك، واصلت حواري قائلا: أليس خيرا من حفلات الموالد، وهي من المحدثات، أن نحيّي صلةَ المسلمين بسيرة نبيهم ــصلى الله عليه وسلمــ فنذكرهم بروائع من حياته وجهاده وتوجيهاته في كل مناسبة، دون تحديد يوم معين لذلك؟. ولم أذكر ما كان تعقيبه على هذا، ولكني أذكر أنه ليس ببعيد عن الاتجاه الصحيح إن شاء الله..

وبهذه المناسبة أرى من الخير تذكير السادة من دعاة الهدى أن مجرد الالحاح على تبديع المحتفلين بذكرى المولد لا يزيدهم إلا تشبثا بها وعنادا، وقد لمسنا ولا نزال نلمس ألوانا شتى من هذا التشبث قد أصبحت تتخذ صفة التحدي لدعاة الحق.. وفي هذا ما فيه من النذير بالمزيد من تفرقة المسلمين. وقد دلتني تجاربي على أن محاولتنا إفهام أولئك الشاذين أن تقدير رسول الله موقوف

على اتباعه لا الاحتفال بمولده، لا تعدو كونها كلاما عاما يتضمن الدعوة إلى تصحيح السلوك في ضوء الإسلام كله، على حين أن المطلوب في هذه المناسبة هو تذكير المحتفلين بالبديل الشرعي لذلك العمل البدعي، وذلك باستغلال الفرص لتوجيه الناس إلى الفضائل العملية بل اليومية التي امتاز بها ودعا إليها ذلك الهادي الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم..

إنها فكرة أعرضها لشيوخنا وإخواننا.. **فإن تكن** صوابا فمن الله، وان تكن غير ذلك فمن نفسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

تناقض

كان الاحتفال بذكرى نزول القرآن العظيم رائعا حقا.. وقد علمت ذلك وشاهدت بعضه عن طريق تلفاز الفندق، إذ كنت عائدا من صلاة العشاء في مسجد (جوت مطيعة) وهو ــعلى بعدهــ أقرب إلى فندقنا من أي مسجد آخر، فإذا بالرائي ــعلى تعبير الأخ الطنطاويــ يعرض مشاهد الجموع المحتشدة في مسجد الاستقلال وهي تستمع إلى محاضرين يتحدثون عن هذه المناسبة.

إن العناية بالقرآن من أبرز المظاهر المشهودة في أندونيسية وماليسية ــبوجه خاصــ وهي تتخذ في هذين البلدينــ وليسا سوى بلد واحد في الحقيقةــ مسلكين اثنين، أحدهما شعبي، و يتجلى في إقبال المسلمين على حفظ القرآن وتجويده، وقد أثر ذلك في تفوق القراء الأندونيسيين أثناء المسابقة التي أقامتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٣٩٩ يضاف إلى ذلك ما نشاهده من أمثال هذه الأحفال السنوية في ماليسية، حيث يشارك الجنسان في التلاوة الرائعة..

أما المسلك الثاني في تلك المظاهر الرسمية تنظمها الجهات المختصة في الحكومتين. ولا حاجة إلى بيان الفرق بين كلا المسلكين، إذ هو بارز لا يتطلب اكتشافه الكثير من الذكاء.. ذلك أنه في الناحية الشعبية تعبير عفوي عن الانتماء الفطري إلى دين الله، الذي لا تجد النفس المؤمنة مأمنها إلا في ظله، على حين لا يعدو في الناحية الرسمية أن يكون محاولة لاحتواء ذلك التفاعل الروحي، حتى لا يتدفق في غير الاتجاه الذي تريد.. وإلا فكيف نفسر ذلك التضييق على دعاة الإسلام، وملاحقتهم بالارهاب والتنكيل، لخنق كل صوت يرتفع بالدعوة إلى تحكيم شريعته!. ثم كيف يمكن التوفيق بين تعظيم القرآن وفتح البلاد على مصراعيها وبكل آفاقها لدعاة التبشير، الذين لا يدخرون وسعاً لإطفاء أنوار القرآن..

بوغور الفاتنة

وكان يوم الأربعاء التالي موعدنا المقرر للسفر إلى **بوغور** وباندونغ، للاطلاع على أحوال معاهدهما الإسلامية.. ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السيارة التي تقف بنا حيث تشاء، ما

دمنا نؤدي أجور الركوب والوقوف، وكانت بالنسبة إليّ فرصةً جديدة لاستئناف تلك المتعة التي جربتها في رحلتي السابقة إلى تشايمس. لقد بدت لعينيَّ تلك المناظر الخلابة على صور أخرى لم أشهدها من قبل، ولا عجب فهذه المروج والحقول والمزارع والأشكال المختلفة التي تواجهنا أشبه شيء بمناظر البحر والسماء، فهي أبدا متجددة متموجة، لا تستقر على لون، بل تتجلى في ألوان شتى، وما لا يحصى من الإيحاءات والمؤشرات التي تستمد مواردها اللونية من حركة الشمس المستمرة التغير..

وتوقفت بنا السيارة في بوغور عند مكتبة المعهد الذي يشرف على إدارته الأستاذ صالح اسكندر، وهو من رفاق الدكتور محمد ناصر، ومن ذوي السابقة في العمل الإسلامي، وقد تحمل الثقيل من البلاء إذ قضى قرابة السبع السنوات في غياهب السجن أيام سوكارنو، وسنة أخرى في عهد ورثائه. وبعد تسجيل الاستطلاع المطلوب عن المعهد استأنفنا المسير. وللمرة الثانية أعبر المرتفع الآخاذ من جبل شلوتو، و يعبره زميلي للمرة الأولى، ولم أكن أقل منه انفعالا بروعته...

في باندونغ

حتى إذا صرنا إلى باندونغ وهي نهاية المرحلة، كان الأصيل قد أقبل يفرش جناحيه المورّدين على الفضاء، فأخذنا سبيلنا إلى حيث أدينا العصرين جمع تأخير.. وما أدري إذا كنت قد أشرت في ما تقدم إلى ذلك المسجد الذي قصد بنا السائق إليه على غير تقدير منا...

إن المسجد يسر الناظرين بأناقته ونظافته وميضئته المنضودة بالخزف الأبيض الجميل، ثم بالحديقة التي تحيط به، وفيها ما أعرف وما لا أعرف من أصناف الشجر والزهر.. ولعل أغرب ما في ذلك الزهر، وكل زهر شاهدته في جنوب شرق آسية، أن له ألوان أزهارنا على أتم ما فيها من الجمال، ولكنها كالأوراد الصناعية، يغريك منظرها حتى إذا ما حاولت استنشاق ريحها صدمتك حقيقتها الخالية من الأريج..

والمسجد هذا تابع لجامعة التكنولوجية الحكومية، وقد راعني ما رأيته من إقبال طلابها وطالباتها على الصلاة.. إلا أني استغربت من الطلاب أداءها في جماعات متعددة، فها هنا أفراد يؤمهم طالب، وهنا آخرون مثلهم، وهناك أيضا مجموعة ثالثة فرابعة.. كما قال الشاعر الأسيف في وصفه تفرقة المسلمين:

وتمزقوا أمما فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

فلم أر أن أفارق المسجد دون أن أقول لهم ما ينبغي أن يعلموه عن أهمية الجماعة، ودعوتهم للتجمع ثم أخذت في توجيه انتباههم إلى الخير الكثير الذي يفقدونه بتعديدهم الجماعات في الوقت

الواحد والمسجد الواحد، ولم أنس أن أشير إلى ما رأيت أثناء الوضوء من تهاون بأمره، وبصورة عملية أريتهم كيفيته.. وكان الأخ سراج ــ مرافقنا في هذه الرحلة ــ يقوم بترجمة كلامي إليهم.

ولما وصلنا المعهد وجدنا بعض مسؤوليه بانتظارنا، والظاهر من المقاعد والمكبرات أنهم كانوا معدين لاستقبال حافل، ولكنه ألغي بسبب تأخرنا.. ولم يكن ثمة متسع لعمل كثير، فاكتفينا بتفقد الاقسام المنظمة، والأبنية الجيدة، والمسجد الجميل، وسرّنا ما شهدناه ولمسناه من وجوه النشاط، ولا سيا عندما علمنا أن هناك عدة مدارس إسلامية تقع تحت إشراف هؤلاء الإخوة. ولا أنسى ما وجدت لدى مديره الفاضل من دربة طيبة على العربية تنم عن اهتمام صالح بها. ولا جرم أن ذلك قد زادني يقينا بفضل هؤلاء الجنود المجهولين المنتشرين في كل جزء من هذه الجزر مرابطين لحماية الإسلام ولغة القرآن.

وعلى الرغم من اقتراب وقت الغروب، فقد أصر صاحبي على العودة إلى جاكرتا، فرجونا من الإخوة أن يعتذروا عنا للفندق الذي حجزوا لنا فيه حجرتين بإشارة هاتفية من الدكتور ناصر، وجددنا الاتفاق مع السائق على إعادتنا مقابل عشرين ألف روبية أخرى..

ومن باندونغ حملنا بعض الطعام للإفطار.. وقبل أن نجاوز البلد غربت الشمس، وكنت على ظمأ فرحت أبحث عن قارورة ماء أبل به حلقي، وكدت أيأس من ذلك لولا أن قيض الله لنا مطعما في أطراف البلد اشتريت منه بعض الجرعات..

ذكريات ومآس

وقبل أن أفارق ذكرى باندونغ أرى أن أسجل عنها بعض الملاحظات: فقد مررت بهذه المدينة حتى الآن ثلاث مرات، وأديت فيها أربع صلوات في جماعتين، وفي كل مرة كنت أستغرب خلوّ الشارع العام الممتد عدة كيلومترات، من أي مسجد.. اللهم إلا واحدا عثرنا به بعد شق النفس.. ثم تبين لنا أن مساجدها غير قليلة ولكنها في داخل البلد فقط، وشيء آخر لا يفارق ذاكرتي وهو منظر تلك المرأة التي عبر بها بصري في أحد شوارع باندونغ، ونحن في طريق العودة إلى العاصمة، وقد برز بعض مقعدتها من خرق واسع في ثوبها البالي، والناس يمرون بها ولا يعيرونها التفاتا، كأنها واحد من المناظر المألوفة لديهم، وهي ظاهرة مؤسفة شاهدت مثلها في أحد شوارع جاكرتا العامرة، حيث كنت أمر من الفندق إلى المسجد فأرى امرأة فقيرة مع أطفال لها تفترش جانبا من أحد الأرصفة.. وقد سبق أن واجهت مثل ذلك وأهول منه في مدراس ــ بالهند ــ حيث رأيت أسرة تعيش على رصيف أحد المتاجر الكبيرة.. وفي مانيلا ــ بالفيلبين ــ شاهدت عدة أطفال يبيتون على أحد الأرصفة والمطر ينهمر على مقربة منهم، ولما سألت أحد الإخوة الفيلبينيين عن حياة هؤلاء

وطريقة معيشتهم، أجاب أنهم ينقبون عن أقواتهم في صناديق القمامة كل صباح.. ويالها من مآس!.

والزائر لباندونغ لا مندوحة له عن استقصاء الأسباب التي بعثت سوكارنو على إيثارها لتكون المنزل التاريخي لأول مؤتمر عالمي باسم دول عدم الانحياز.. مع أن في أندونيسية عشرات المدن التي تفوقها جمالا وتبزُّها مناخا.. ولا يقتضيك البحث جهدا كبيرا حتى تعلم أن باندونغ بنظر الأندونيسيين هي أحد المعالم الهامة جدا في تاريخها الحديث. إذ كانت منطلق الثورة الكبرى على المستعمرين، ففيها وضعت الخطط، ومنها انبعثت الشرارة التي ألهبت قلوب المسلمين بحب الاستشهاد.. ولباندونغ نشيد لا يكاد يجهله أحد في أندونيسية، حتى ليكاد يشبه المارسيليز بالنسبة إلى الفرنسيين. ولعلي أوفق إلى نقل معانيه إلى قراء هذه الحلقات قريبا..

الضباب الرهيب

وفي السيارة تناولنا ما أعددناه للإفطار.. وفي بعض الطريق جمعنا بين العشاءين، وحجب عنا الليل مناظر الطبيعة الشهية، فلم نكد نلمح مَعْلَماً مما حولنا، إلا أن نمر بقرية أو استراحة أُعدت لاستقبال السياح، فبددت أضواؤها الكهربائية حلكة الظلام، الذي ضاعف من رهبته تكاثف الضباب في المرتفعات، وما أحسبني ولا رفاقي بقادرين على نسيان ذلك الخطر الذي أحاط بنا منذ وصولنا إلى قمة شلوتو، إذ ما كدنا نفارق منطقة النور حتى وجدنا أنفسنا في تيه هائل لا نتبين خلاله سبيلنا، لولا مناكب الجبل التي قطعتها الجرافات أثناء شقها الطريق، فكانت بمثابة الصُّوى التي تحدد وجهة السير، ولولا كذلك أضواء السيارات التي تمر بنا أو نمر بها بين الحين والآخر، فنطمئن إلى أننا لا نزال في الاتجاه الصحيح.. وكثيرا ما أهبت بالسائق أن يتجنب السرعة خشية الانزلاق إلى تلك الأعماق، فيستجيب قليلا ويتجاهل كثيرا، بل لا يزيده اهتمامنا إلا ضحكا من قلقنا.. وحق له ذلك لأنه يعرف من الطريق ما لا نعرف، فهو يجتازه كما يفعل أحدنا عند سلوكه دربه اليومي، إذ يهتدي خلاله بالذاكرة العضلية، التي تحدد له دون تركيز الوعي مواضع أقدامه، ومواطن الحُفَر والالتواءات التي تواجهه.. حتى الحادثة المروِّعة التي شهدنا آثارها على كتف أحد المنحدرات، حيث كانت إحدى الرافعات الجبارة تشد بحافلة كبيرة لتخرجها من السفح..حتى ذلك المشهد الرهيب لم يغير من حال السائق، ولم يدفعه للتوقف أو السؤال عن مصير ضحاياها الكثيرين ــ كما يتوقع ــ.

وكان مستحيلا أن نعرج على منزل شاعر أندونيسية العربي لدى مرورنا ببوغوز الغارقة في الكرى، فواصلنا المسير إلى جاكرتا التي بلغنا منها فندقنا في الحادية عشرة، وفي نفسي أن أتصل به عن طريق الهاتف في اليوم التالي إن شاء الله...

إلى جيوجوكارتا

وحان موعد الرحلة الطويلة إلى بقية جاوة وثلاث من الجزر الأخرى، هي بالي وتيمور وكلمنتان، وتحركنا للسفر ضحى السبت ١٤٠٠/٩/٢١ بعد أن سددنا أجرة الفندق أربعة وثمانين ألف روبية وذلك عن السبعة الأيام، وبعض المخابرات المحلية.. ولا تهولنك ضخامة الرقم، فهو لايزيد على أربعمئة ريال .. ولم نحمل من أمتعتنا إلا ما لا غنى عنه، وتركنا بقيتها أمانة هناك، وكانت تذاكر السفر مهيأة من قبل الملحقية وعليها إشارة الحجز لأكثر الأمكنة المقصودة، وإنما ظل بعضها تحت رحمة الانتظار بسبب تزاحم المسافرين.

وكان الاتجاه الأول نحو (جيوجاكارتا) التي تعتبر أهم مراكز الحركة التبشيرية في جاوة. وبدت لنا بذلك فرصة جديدة لاستكشاف ما لا يستغنى عنه سائحٌ في أرض الله طُلَعَةٌ يحب ألا يفلت من عينيه منظر، ولا يفوت ملاحظاته مشهد. لقد كنا بالأمس نجول بين السهول والجبال على سطح الأرض، فلا يتجاوز بصرنا ما تسمح به حدودها القريبة، أما الآن فقد امتد تحتنا المنظور لنرى البلد والوادي والطود من عل، ودون عائق يكسر البصر، وسيظل السائح ضيق مجال الرؤية حتى يرتفع بالطائرة فوق مداه، وبذلك يؤلف بين أجزاء الصورة على الوجه الأقرب إلى الكمال.

ها نحن أولاء نحلق في سماء جاكارتا وقد تمطت تحتنا إلى أقاصي الآفاق، وكأنها حديقة أسطورية جمعت من كل شكل ولون، وتخللتها المساكن الخفيضة ذات السطوح القرميدية المائلة، وكأنها أعشاش الطيور.. ولا غرابة فكل مكان في أندونيسية دارة ـ فيللة ـ تحف بها الحدائق والجنائن الخلابة..

ثم ها نحن أولاء نمعن في الارتفاع، وتمعن هذه الصور من تحتنا بالتضاؤل والتواري والتجدد، وبذلك نضيف إلى مشاهدتنا السابقة ما بين جاكارتا وتشايمس مشاهد أخرى من أرجاء جاوة الغربية والوسطى، لا تحد روائعها ولا تحصى، وإن كانت الغمائم المتناثرة والمتكاثفة ما بيننا وبين الأرض قد شرعت تحجب عنا الكثير من معالم البر والبحر.. وما أدهشه منظرا ذلك الذي أرانا العديد من الجبال وقد انتصبت عموديا كجدران القلاع الهائلة على ضفاف بعض البحار..

الباطنية في جاوة

ولا أدري أي شيء أثار في خاطري هنا تصوراتي السابقة عن أخبار الباطنية التي تعيش في هذه الجزيرة التي تخترق طائرتنا النفاثة جِواءها..

لقد توافر لديَّ من العلم بهذه الطائفة أنها بقية من الفرق الوثنية القديمة، وهي بما تحمل من آثار الهندوكية والبوذية تبعث على الظن بأنها إحدى موجات الهجرة الوافدة من الهند. وعلى دأب النِحَل المنقطعة عن منابع الوحي تأثرت بكل الأفكار والمعتقدات التي عايشتها، فهي لذلك تجمع إلى جانب النحلتين المذكورتين، بين بعض تقاليد الإسلام والنصرانية. وبسبب التفوق العددي والعملي الذي يمثله الإسلام في هذه الجزر كان تظاهرهم بالإسلام أكبر، فهم إذن يعلنون الإسلام ليحجبوا به حقيقتهم. ولكن دعواهم هذه تظل سطحية، لأنهم لا يمارسون من العبادات الإسلامية سوى صلاة الجمعة والعيدين، وكغيرهم من باطنية الشام والهند يحورون معاني القرآن الكريم لتوكيد نحلتهم.. هذا إلى أنهم على توحدهم في الباطنية متعددو المذاهب، حتى ترى بينهم القريب إلى الإسلام، والمغالي في مباعدته..

وقد حدثني بعض ذوى الخبرة بهم أن بعضهم يصلي إلى الشرق مطلع الشمس، كشأن مجوس فارس، وبعضهم يعتكف في أعالي الجبال مدة، ثم يعود إلى الناس ليعلن لهم أنه أصبح من المتلقين للإلهام، والقادرين على شفاء الأمراض، ومن أخبارهم في ذلك أن كثيرين من ذوي الأمراض المستعصية يقصدون إلى هؤلاء المطببين فيجدون لديهم شفاء أسقامهم التي أعيت نطس الأطباء.

ويقال ان في جاكارتا فرقة منهم تسمى (سبود) SVBVD وعلى رأسها رجل من الذين مارسوا الاعتكاف وعاد إلى الناس بادعاء الإلهام، وقد حج مع المسلمين ويدعى الحاج صبح. وهو من مشهوري مطببيهم حتى ان مريضة أمريكية شفيت على يده بعد يأس، وأن كثيرا من المعالجات التي قام بها قد انتهت بنجاح.. وهذا النوع من محترفي الطب منتشر في الفيلبين والهند كشأنه في أندونيسية، وقد سمعنا من أخبارهم الكثير على أن الذي يسترعي الانتباه من أمرهم جميعا أن طرائقهم في معالجة الأمراض لا تقوم على الأسباب التي يمارسها أولو العلم بالطب، سواء على الأسلوب الغربي الحديث، أو الأسلوب العربي اليوناني القديم، الذي لا يزال معمولاً به في الهند وباكستان، وله فيها معاهده وكلياته الخاصة.. وإنما هو عمل أقرب إلى السحر والإيهام منه إلى قانون الأسباب والمسببات..

وقد سبق أن حدثنا القارىء في إحدى الحلقات عن مشكلة هذه الباطنية، وما انتهى إليه أمرها في أندونيسية، حيث أصبحت بموجب القانون ديناً تقرر الاعتراف به رسميا، وبات لمنتحليه الحق بإظهار شعائره والتجمع السياسي على أساسه.. ولا غرابة في ذلك فقد رأينا لهذه الباطنية جولاتها وصولاتها في قلب البلاد العربية خلال التاريخ الإسلامي، حتى إنها لتقيم الدول، وتنشىء الحكومات، وتبتدع الطرق، وتكوِّن الفرق، التي تملأ أرض المسلمين بالدماء والأشلاء.. ومن هنا جاء اهتمامنا بهذه الفرقة الجاوية التي نتوقع، كما يتوقع المسلمون في أندونيسية، أن يكون لها آثارها

العميقة في حياتهم وفي كيانهم السياسي في الغد القريب وإلى مدى بعيد، على الطريقة نفسها التي مارستها الباطنية ولا تزال تمارسها في مختلف الأقطار العربية...

وبعد ما دون الساعة من الطيران فوق البحار والأنهار والجبال والأودية أطللنا على جيوجاكارتا ذلك البستان الرحب الفائق الجمال..

وها نحن أولاء ننحدر نحو مطارها.. وما هي إلا دقائق حتى وطئنا أرض المطار، ثم لقينا الأخوين محمد مقدّس، ويعقوب باشا خريجَيْ الجامعة الإسلامية، ومبعوثَيْ دار الإفتاء.. اللذين أُخبِرا بقدومنا فهرعا لاستقبالنا.. ومن ثم حملتنا إحدى السيارات الى فندق (باتيك أوتيل) ذلك الفندق الذي يحمل اسم الصناعة المحلية التي تملأ منتوجاتها من الألبسة أسواق الجزر الأندونيسية..

مسجد ومقصف

والفندق أرضي، ولكنه كسائر فنادق أندونيسية، يمتاز بالنظافة وحسن الترتيب.. إلا أن أول ما يستقبلك منه أنواع التماثيل، وهي كسائر المشخَّصات تنم عن الهوى الفني الذي يكاد يطبع جنوب شرق آسية كله بميزاته...

ولقد تأذَّت أبصارنا قبل ذلك وفي بهو المطار بمناظر الكفرة الوافدين من أسترالية وأمريكة وأوربة، وهم في استهتارهم الفاضح، ثم زادنا أذيًّ أن رأينا بعض هؤلاء الخنازير ينزلون في جوارنا من الفندق نفسه.. ولم يقف شرهم عند هذا الحد، بل إنهم ما كادوا يستقرون في أمكنتهم من الفندق حتى انسلخوا من كل أثر للحياء، وإذا هم ذكورا وإناثا في عرى قذر لا يسترهم من اللباس الآدمي سوى تبان الاستحمام.. ولم يقصروا ذلك على باحة الفندق فقط، بل لوثوا به الشوارع التي يتجولون فيها أيضا.. والمؤسف أكثر هو أن صاحب الفندق مسلم حاج، وقد أعدَّ لنزلائه من المسلمين مكانا خاصا للصلاة — في مكان خاص لا يراه إلا القاصد إليه — ولكنه — كزميله صاحب فندق (منتيكا) في جاكرتا — لا يرى بأسا في الجمع بين الإسلام ونقيضه، فيستقبل في فندقه مثل هؤلاء القردة، ولا يدَّخر وسعاً لخدمتهم، فيقيم لهم جوقة من المغنين والمغنيات، ومعهم العازفون على الآلات والضاربون على الطبول، ليوفروا لهم ما يؤمن رضاهم من أسباب الترفيه غير البريء كلما أقبل المساء...

والحق أن هذا التبذل لم يعد غريبا على المسلمين وبخاصة في البلاد التي تتعثر في مفهوم التقدمية حتى لتقصرها على الفنون الهابطة، وجرِّ المرأة إلى هاوية السقوط باسم التحرر، وتوفير كل وسائل الإغراء لاجتذاب السائحين باسم الفنون الشعبية — الفولوكلور — ولو فقه وُلاتُهم واقع الحياة لأدركوا أنهم بذلك يسوقون شعوبهم وأنفسهم إلى غيابات الشقاء، ولاستيقنوا أن هؤلاء

الخارجين من ديارهم باسم السياحة هم أحوج الناس إلى التخفف من ذلك الفسوق الذي يدمر وجودهم، وأن أسعد ما نقدمه إليهم هو نماذج الحياة الإسلامية الحقة، التي من خلالها يتعرفون جمال دين الله، وبالتالي يفطنون لما يعانونه من الهوان والضياع في بعدهم عن سبيل الله...

مع الأستاذ باسويدان

على مدخل فندق (باتيك) تلقانا رجل أسمر نحيف بترحيب أخوي، وبلسان عربي مبين، فقابلنا اللطف بمثله دون أن نعلم عنه شيئا، وكدت أحسبه واحدا من طلابنا القدامى لولا ان سنه فوق الخمسين... وشغلنا قليلا عنه بإجراءات الفندق، حتى سلمنا الجوازات، وتسلم كل منا غرفته المناسبة.. وهناك أخبرني الأخ محمد مقدّس أن الرجل هو الأستاذ عبدالرحمن باسويدان، الوزير السابق في حكومة الدكتور محمد ناصر، وقد تلقى منه إشارة عن اتجاهنا إلى جوكجاكرتا فجاء يستقبلنا.. وشد ما آسفني هذا الخبر، فقد بلغني عن الرجل أخبار طيبة، وفي نيتي أن أسعى للقائه، ولا ريب أنا قد أسأنا إليه بتلك المواجهة الغافلة.. ولابد من استدراك ما فرط، وطلبت إلى الأخ محمد مقدّس أن يتصل به ويبلغه اعتذاري ورغبتي في لقائه.. وما هي سوى لحظات حتى عاد ليخبرني بأنه في منزله بعد صلاة العشاء.. وهكذا تم التلاقي الذي كنت اعتزمه قبل سفري إلى هذا البلد.

وفي قاعة معدة لاستقبال الزائرين من منزل الأستاذ باسويدان تداولنا الحديث في مختلف الشؤون.. وفهمت من خلاله أن ولدا له كان بين الطلاب الجامعيين الملاحقين بسبب اتجاههم الإسلامي، وقد كثر تردد الشرطة على المنزل لاعتقاله، حتى رأى هو أن يسلمه إليهم، وهو الآن مع إخوانه الموقوفين، ولا يدري أحد متى يفرج عنه وعنهم. ولم يكن ذلك النبأ مفاجئا لي، فقد أتيح لي أن اجتمع ببعض الشباب المطارَد للسبب نفسه، وسمعت منه الكثير عن أخبار أولئك المعذبين، سواء منهم الملقون في غياهب السجون، أو الهاربون من سياط الجلادين، ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، ولا جديد في ذلك عليّ ما دام سمعي مشحونا بهذه الأنباء التي نتلقاها صباح مساء من معظم أنحاء العالم الإسلامي.. إنه الصراع الأبدي بين النور والظلام، بين الدين الذي أنزله الله رحمة للعالمين، والتيارات المخربة التي لا تزال تقذف بها الشياطين عن الشمال وعن اليمين..

والأستاذ باسويدان كتلة من النشاط الذهني، ومن معلوماتي عنه ـ قبل أن ألقاه ـ أنه يعتبر هنا الرائد الأول للأندونيسيين المنحدرين من أصول عربية، وكان له مشاركة فعالة في المقاومة السياسية للاستعمار الهولندي، وعندما تألفت حكومة الدكتور محمد ناصر تولى منصب الوزير المساعد للإعلام، وكان له دوره في ارساء العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية والإسلامية إبان الكفاح الاندونيسي المسلح.. وهو من أقطاب حزب ماشومي الذي حظر منذ عهد سوكارنو،

ويرئس هذه الأيام المكتب الإقليمي للمجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في منطقة جوكجاكرتا.. إلى جانب رئاسته لمؤسسة (بيت الحكمة) التي تضم طائفة من كبار العاملين في حقل الدعوة، وقد حدثني عن رغبته في إصدار مجلة عن هذه المؤسسة باسم «أندونيسية المسلمة» أحد هدفيها تقديم أندونيسية المسلمة إلى شقيقاتها من دول العالم الإسلامي، والمجتمعات الإسلامية الأخرى في مختلف أرجاء العالم، وهدفها الآخر هو نشر العربية في أوساط مسلمي أندونيسية.. وهو شديد الحرص على أن يخرج العدد الأول من هذه المجلة أثناء اجتماع مؤتمر الاعلام الاسلامي الذي سيعقد في جاكرتا ما بين ٢١ و٢٤ من شوال القادم، ليتسنى توزيعه على المؤتمرين في الوقت المناسب، ولكن ظروفه المادية تحول دون المراد.. وهكذا تقف العُسرة دون تحقيق الكثير من المصالح الإسلامية في كل مكان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

نقاش علمي

وقد قام الأستاذ باسويدان بأداء فريضة الحج، وزار الجامعة الإسلامية بالمدينة، ويذكر بأسف أنه أثناء زيارته لنائب الرئيس، وكان هو فضيلة الشيخ عبدالمحسن العباد، طلب أخذ صورة لهما، فأبى الشيخ العباد ذلك محتجا بأنه حرام..

وهو إذ يذكر لي ذلك إنما يريد أن يعبر عن استغرابه لموقف نائب الرئيس يومئذ.. فلم أكتمه استغرابي لاستغرابه، وذكَّرته بقول الله عز وجل، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا﴾ ٣٣/٣٦، وذكرته كذلك بما صح من تحريم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– للتصوير دون تعيين، فالمؤمن الملتزم بطاعة الله ورسوله لا يقدم على معصيتها مهما تقلبت الأحوال، يقينا منه بأن أي انحراف عن الطاعة مدعاة للسقوط في الضلال المبين..

واستجرَّنا الكلام في موضوع التصوير إلى الكلام عن تحديد النسل، فإذا هو يذكر موقفا آخر عرض له في أحد الأقطار الإسلامية، إذ سمع أحد العلماء يرفض هذا التدبير الذي أصبح –في رأي الأستاذ– علاجا لا مندوحة عنه للانفجار السكاني في العالم الإسلامي، فكل معارضة لتحديد النسل مُنافية في تقديره للمنطق بل للواجب. وطبيعي أنه كان ينظر إلى القضية من زاوية الدعاية القائمة في أندونيسية وغيرها من ديار المسلمين لِوقف زيادة المواليد.. وعلى المنهج نفسه أخذت في مناقشة هذه الفكرة مع الأستاذ، فلفت نظره أولا إلى مصدرها الرئيسي، وهو دون شك الغرب الواقع تحت ضغط اليهودية التي لا ترى من مصلحتها أي زيادة في نسبة البشر، وبخاصة في الوجود الإسلامي، الذي لم يبق غيره حائلا دون مفاسد هذه الجرثومة العالمية.

ثم إن الدعوة إلى تحديد النسل في دار **الاسلام** لا تعدو أن تكون حربا على المسلمين الذين يقول لهم رسولهم الكريم: (تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الأمم)[1]. هذا فضلا عن يقين المؤمن بوعد ربه القائل في كتابه الحكيم (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها). فمجرد الإقدام من **أي حكومة في أي بلد إسلامي على وقف التوالد إنما مرده إلى الشك في وعد الله بتأمين الرزق لكل حي على الأرض.**

أما الاحتجاج بضيق المحصول الغذائي وعجزه عن الوفاء بحاجة البشرية المتزايدة فمردود قطعاً في معيار التفكير السليم، لأن العجز إذا وجد في محصول أمة فمرده إلى عجز العزائم والمهارات فيها عن الوفاء بحق الأرض.. وضربت له المثل من واقع أندونيسية وتخلفها في نطاق التنمية الزراعية والصناعية وتربية الحيوان.. ولو هي تتبعت خطى هولندة في هذا الميدان لأتت بالعجائب من أسباب الرخاء والقوة.. وهكذا القول في مصر والهند وكل بلد أُخذ بتلك الدعوة المسمومة إلى وأد النسل..

على أن لنا نحن المسلمين منظورا آخر لهذه القضية ننفرد به عن سائر الأمم. وذلك أن الجدب والخصب وما إليهما من أحوال الشدة والرخاء مقيَّد بإرادة الخالق الذي يقول في محكم كتابه (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) ٧ / ٩٦، ولابد أن الأستاذ قد قرأ ذات يوم في سيرة الفاروق عمر (رضي الله عنه) قولته العبقرية يوم خرج بالمسلمين للاستسقاء، فأمرهم أن يضرعوا إلى ربهم بالاستغفار، ثم عاد بهم. فسأله بعضهم: ألا تستسقي لنا؟ فأجاب: لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء. وتلا عليهم قول ربهم على لسان نبيه نوح (عليه السلام): (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) نوح ١٠- ١٢، وتقبل الله ضراعة عباده، وأنزل عليهم بركاته..

وقلت للأستاذ باسويدان: ولعلك لو عدت إلى ذاكرتك لواجهت مثل هذه الرحمات تنزل عليكم ذات يوم استجابة لضراعة خالصة في موقف استسقاء كموقف الفاروق وإخوانه. ولئن نسي الناس أو تناسوا أمثال هذه التجليات الربانيات، فلا يزال ثمة كثيرون من المسلمين — وأنا منهم والله — نتذكر.. وأي عجب في ذلك مادام الخير كله في يديه سبحانه، فهو يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر — يضيق —.

بقي أن نعي الفرق بين عملية التحديد حين تفرضها الدولة على المجتمع، وبينها حين يقوم بها أفراد لمصلحة يرونها..

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.

وقد تبين مما أسلفنا مباينة الأولى لأحكام الإسلام، لأنها جناية على المجتمع الإسلامي، تجره إلى الضعف في معركته الأبدية مع جنود الشيطان..

أما إقدام الأفراد طواعية على محاولة وقف الحمل أو تحديده فهي حق لهم أباحه الله على لسان رسوله ماداموا في ذلك غير مكرهين ولا مخدوعين..

وشتان ما بين المباح والمحرم في موازين أولي الباب..

وأخيرا.. ألا يحسن بنا أن نتساءل: لماذا دائما تأتي وصفة تحديد النسل على ألسن المشفقين من كهنة الغرب، مخصصين بها أهل الشرق وحدهم، وقد نسوا أممهم من هذه النصائح القيمة.. وهي التي تلتهم الأخضر واليابس من أقوات الشعوب؟!

وهل تساءلنا يوما: لماذا تبذل إسرائيل المستحيل لزيادة سكانها، ويراد من المسلمين وحدهم أن يقفوا نموهم السكاني؟!...

قصور بحق العربية

الأحد ٢٢ / ٩ / ١٤٠٠هـ

كانت مدرسة المعلمين المحمدية هي الأولى التي قمنا بزيارتها في جوكجاكرتا، وهي إحدى آلاف المؤسسات التعليمية والصحية التي تنتسب إلى (الجمعية المحمدية) على مستوى الجزر الأندونيسية. ويذكر الدكتور محمد سعيد غلاب في كتابه (البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر) عن هذه الجمعية (أن المرحوم الشيخ أحمد دحلان قد أنشأها عام ١٩١٢م لهدف تنقية الإسلام من شوائب البدع وأدران الخرافات، وسلك بها طريق الإمامين الشيخ محمد عبدالوهاب والشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني... وكان لها أثر فعال في مقاومة النشاط التبشيري أيام الاستعمار الهولندي، ولا تزال في مقدمة القائمين بمقاومته في هذه الأيام...).

وبعد مسيرة غير قصيرة في الشوارع والأزقة وقفت بنا السيارة أمام بناء يذكّرني بما قرأته عن دوائر وزارة الخارجية الباكستانية مطلع تأسيسها، إذ كانت توزع مكاتبها أيامئذ في ما يشبه الخيام.. فالبناء واسع، والغرف كثيرة، ولكن كل شيء هناك ينم عن الفقر.. حتى مكتب الإدارة، الذي فيه قضينا وقت الاستطلاع، شارك بقية الأقسام في الضيق والبساطة وضعف الإضاءة.

وكان بعض أساتذة المعهد ينتظرون قدومنا، وكان ترحيبهم كريما، ولكن المؤسف أنهم سواء في

البعد عن لغة القرآن، فما أذكر أني سمعت من أيهم كلمة في غير اللسان الأندونيسي، الذي تولى ترجمته لنا الأخ محمد مقدَّس.. ولم أكتمهم أسفي لذلك، وذكَّرتهم بأن أول واجبات العاملين للإسلام اهتمامهم بالعربية التي كانت في وقت ما، ويجب أن تصبح قريباً، لغة العالم الإسلامي كله.. وتساءلت: إذا كان هذا موقفكم أيها الإخوة ــ وأنتم الأساتذة ــ من لغة القرآن فما الذي ننتظره من طلابكم في هذا الشأن؟!.

ولكي أهز أريحيَّتهم نحو هذه القضية الهامة جعلت أقص عليهم ما لقيناه لدى دورة المعلمين في تشابِس من رغبة في العربية، وإقبال عليها، وتفقه بها، وكذلك ما وجدناه في معهد (دار الرحمن) في جاكرتا من عناية فائقة بهذه اللغة الكريمة، حتى إننا لم نحتج إلى مترجم في أي من المؤسستين..

وازدهار في كونتور

ووثب إلى خاطري في هذه اللحظة ما سمعته عن معهد (كونتور) ــ الذي ضاق وقتنا عن زيارته ــ من اهتمام بالغ بلغة الكتاب الحكيم.. ذلك الاهتمام الذي لمست ثمراته في طلابه الذين يدرسون بالجامعة الإسلامية، وفيهم المزوَّدون بثقافة ممتازة في العربية والعلوم الإسلامية، فضلا عن الأخلاق العالية التي يتحلون بها. ولقد كلفت أحد هؤلاء الأبناء كتابة وصف عن أعمال يوم في معهد (كونتور)، فكان منه قوله: (لغة التخاطب بين الطلبة يوميا وفي كل ساعة هي العربية، ولا يسمح أبدا للطلبة باستعمال الأندونيسية، إلا أن يكونوا حديثي العهد بالدراسة، فيرخص لهم بذلك إلى نهاية النصف الأول من العام الدراسي... وقد خُصِّص للطلبة الأندونيسيين فترة واحدة للتحدث باللغة الوطنية، وذلك أثناء التدريب على الخطابة والمناظرة، ثم يعود الحظر بعدها...) والإدارة إنما تفعل ذلك لما هو معلوم من أن اللغة الموروثة للإنسان تستعصي على النسيان، فلا حاجة إلى تكرارها بعد أن أخذ كفايته منها في الحياة اليومية والدراسية السابقة لمرحلة كونتور..

واجبنا نحو العربية

وقبل أن أنصرف عن هذه الناحية أرى لزاما عليَّ أن أعيد التأكيد على المؤسسات الاسلامية العاملة في حقل الدعوة، سواء في هذه المملكة الغالية، أو غيرها من بلاد المسلمين المعنيّة بهذا الواجب، بضرورة الإكثار من المبعوثين من مدرسي الدين والعربية إلى أمثال هذه المدارس الإسلامية، سواء في أندونيسية أو الهند أو بنقلادش، وسواها من أفريقية وآسية وأوروبة وأميركة.. وأكرر الآن ما سبق ان كتبته وقلته في بعض محاضراتي أن من أهم واجبات الدول العربية، وبخاصة الغنية منها، رصدَ نسبةٍ معينة في موازنتها السنوية لنشر العربية في أقطار المسلمين، الذين هم في غاية الشوق للمزيد من هذا الخير..

ولكم ذكرت مدرسين للعربية في الربوع التي زرتها من وطن الإسلام انهم بإتقانهم العربية أصبحوا من صميم العرب، بل ربما فاقوا بنسبتهم هذه الكثيرين مِمَّن يتبجحون بالعروبة في بلاد العرب، لسبب واحد هو التزامهم لغة القرآن وحدها في حديثهم وتدريسهم، على حين أفسد اللحن ألسنة أولئك، حتى لا يستطيعون تطهيرها من آثار اللحن السوقي.. وهذه حقيقة لم تعد محل خلاف بعد الذي ورد في الخبر عن رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ: (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي باللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي)(١).

ومما سرّنا من أولئك الإخوة المدرسين أنهم كانوا على تجاوب تام مع أفكارنا بشأن العربية.. وفهمنا منهم كذلك أنهم بصدد الإعداد للانتقال إلى أبنية أكثر سعة وأحسن مكانا..

مدرسة نموذجية للبنات

ومن هناك اتجهنا إلى مدرسة إعداد المعلمات التابعة أيضا للجمعية المحمدية.. وقد وجدناها على خير ما نتوقع، فالبناء جديد وفسيح، وقد نسقت في وسطه انواع الأشجار والأزاهير.. فهي والحق أنموذج للتنظيم الذي تحسنه المرأة المتحضِّرة..

وفي إحدى القاعات رُتِّب لنا لقاء مع فضليات هذه المدرسة، وكان لقاء مباركا بما وجدنا فيه من الحشمة التي تمتاز بها المؤمنات الملتزمات زيا ووعيا وحديثا. وفي حديث قصير مركز تكلمت عن مسؤولية المعلم، وجلال مهمته، وأثره العميق في مجرى الدعوة في حياة الأجيال.. وقد قام بترجمته الأخ محمد مقدس الذي كانت والدته إحداهن..

ومحاضرة في (قوة الإسلام)

وأدينا صلاة العشاء والقيام في (مسجد قوة الإسلام) ذلك المساء، وقد سبق أن ألقينا فيه على المصلين، في مثل هذا الوقت من مساء الامس، حديثا في موضوع التوحيد، وأسس العقيدة الصحيحة، وأثرها في سلوك المسلم.. فجعلنا حديث اليوم تتمة للأول، وبيانا مفصلا لما يجب على المؤمنين من حراسة واعية لجوهر العقيدة، حتى لا تتسرب إليها الشوائب المفسدة لها. وضربنا لذلك الأمثال من واقع الأديان والمذاهب والبدع والتيارات المختلفة، التي كان لها أثرها الفعال في بروز الفرق الضالة وانحراف الشعوب عن جادة الوحي، منذ قديم الأزمان حتى الآن.. وذكَّرنا السامعين والسامعات بالنبأ العظيم الذي يحدثنا به رسول الله ــصَلوات الله وسلامه عليهــ عن الطائفة الثابتة على الحق، التي اصطفاها الله للشهادة على عباده، بإعلان الحقيقة والحفاظ على أنوارها ساطعة مهما ادلهمت الظلمات.. وختمت تلك التوجيهات بالدعاء إلى الله أن يجعلنا والاخوة السامعين من هؤلاء الداعين إلى الحق، والعاملين أبداً لإعلاء كلمته في كل مكان وزمان.

---

(١) من حديث رواه الحافظ بن عساكر بسنده عن مالك.

ولقد أحسن الأخ سراج في إيصال هذه المعاني حيةً إلى القلوب بما أفرغ عليها من حرارة الإيمان والاتقان.. جزاه الله خيراً.

المهنة الشاقة السعيدة

وكان نبأ رحلتنا قد بُلّغ إلى معظم المبعوثين، فلم ينتظر بعضهم حتى نقدم إليه بل أقبل هو علينا من بعد عشرات الكيلات.. وشد ما كان سرورنا بهم بالغاً إذ كان هؤلاء القادمون من خريجي جامعتنا، وقد عبر على فراقهم سنون عدة لم نرهم خلالها، ولم نتلق خبرا عنهم.. ولا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أوكد ما كتبته ذات يوم في مذكراتي ــ التي لا أدري متى يقيض لها النشر ــ من أن مهنة المدرس هي أشق المهن من حيث الموجبات، ولكنها أسعد المهن من حيث النتائج، وما أكثر ما نعمت بآثارها أثناء تجوالي في بعض أنحاء العالم الإسلامي، إذ كان لقائي تلاميذي القدامى هنا وهناك من أكبر المتع الروحية. وفي يقيني أن المعلمَ المرهَق تحت أعباء جهاده لو أحسن التفكير في عواقب ذلك الإرهاق لانقلب تعبه راحة، ولتحول شقاؤه ــ الموهوم ــ نعيما...

وألح علينا هؤلاء الأبناء بزيارة مواطنهم، وحاولوا اقناعنا جهدهم بأن لهذه الزيارة آثارها الطيبة والمشجعة، ولكن ضيق الوقت، وإصرار زميل الرحلة على التزام الخط المحدد قد اضطرنا إلى الاعتذار بل إلى إغفال الجواب على مخابرتهم ثم على برقيتهم التي وجهوها إلينا عقيب عودتهم إلى محالّ عملهم...

المدينة الشاعرية

تعذر على إخواننا أن يؤمنوا لنا المقاعد اللازمة إلى مدينة (سورابايا) عن طريق مطار (صولو) إذ كانت المقاعد كلها محجوزة لأيام عديدة، فاضطررنا لصرف النظر عن صولو واستبدلنا بالطائرة القطار، وأديت عني وعن الأخ سراج أربعة عشر ألف روبية لمقعدين في الدرجة الأولى. وهكذا غادرنا جوكجاكرتا ذات المليون من السكان، والتسعين بالمائة من المسلمين، وتحرك بنا القطار إلى سورابايا، وكان ذلك صباح الإثنين ٢٣/ ٩/ ١٤٠٠.

لقد تحدثت أكثر من مرة عن متعة النظر إلى الدنيا من خلال نافذة القطار، وبخاصة عندما يكون السفر في مثل الجزر الأندونيسية.. حتى للشيوخ الذين تجاوزوا السبعين مثلي، فأصبحوا يضيقون بالتنقل ويؤثرون السكون الطويل عن التحرك المعرَّض لِلُغوب.

ولا أحدث القارىء الآن بجديد عندما أشير إلى بعض سمات هذه الجنات الأخّاذة.. وحسب القارىء أن يقرأ معي هذه العبارة الحية، من مذكرات بدأت كل فقرة منها في المكان الموصوف

(نحن الساعة نعبر سهول جاوة الشرقية المائجة بالخيرات عن يمين وشمال.. حقول من الأرز فُصِّلت كبُسُطِ السندس، وغابات لا تحصى من قصب السكر ومن الأشجار التي لا حصر لأصنافها..)

على أن الغريب أن الحيوانات الأهلية تظل نادرة الظهور.. فكيف بالوحشية التي لم أر لها طيفاً ولا ظلا..

لم تكن الشقة بعيدة، فلم تكد تحين العاشرة حتى أشرفنا على أرباض ــضواحيــ سورابايا.. وطبيعي أننا لم نجد من ينتظرنا في محطة القطار، بسبب تغييرنا خط السير، ولعل بعض الإخوان كان يترقب وصولنا في المطار، إذ لم يعلم بما طرأ على رحلتنا من التطور غير المتوقع..

وحملتنا إحدى السيارات إلى البلد.. وكأن السائق قد أُخِذَ بمنظر أثوابنا فاتجه بنا إلى أحد الفنادق الملائمة لسكان منابع النفط، وكان الفندق المختار يحمل اسم (ميراما) وهو من فنادق الدرجة الأولى، وما أراه ينزل عن مستوى أفخم الفنادق التي في جاكرتا، ففي قاعدته السفلى مصرف ومحالُّ تعرض روائع التحف.. وكل حجرة من طبقاته العليا تشبه شقة صغيرة فيها ويلحق بها كل ما يتطلبه النزيل المترف من وسائل الراحة والنعيم، ولا تزيد أجرتها لليلة الواحدة على ٢٧٫٠٠٠ روبية مضافا إليها ٢٠٪ للخدمة..

وجمال الطبيعة والتنسيق الشائق هو القدر المشترك بين حواضر أندونيسية، ولكن لسورابايا ميزة أحسبها تنفرد بها حتى عن جاكرتا. انها من أكثر مدن أندونيسية سكاناً ومن أكثرها امتدادا وتنظيما وسعة شوارع، ولكنها إلى ذلك أكثر ما رأيت من تلك الحواضر هدوءا.. وما أظنني بمبالغ إذا قلت بأنها المدينة الشاعرية الأولى في هذا الأرخبيل، وهي بالنسبة إلى أندونيسية أشبه بـ(زانبوانغا) في جزر الفلبين.

ومن حجرتي الـ ٥٠٨ في الدور الخامس جعلت أجيل بصري في ما يواجهني من روائع سورابايا.. الأبنية التي يغلب عليها الانخفاض، والمنتشرة إلى أقاصي الآفاق، وقد نهضت في أوساطها وعلى أطرافها أصناف الدوح.. وكأن كل منزل فيها قصر مستقل في حديقته.. واشرأبت من خلالها المنائر الذاهبة في الأعالي هنا وهناك وهنالك..

يا لله.. إنها لوحة فاتنة من رشاقة وأناقة وجمال يعيا بها الوصف.. ولا عجب أن يلحظ الناظر كل هذه الروائع في بلاد طبعت أذواق أهلها بموحياتها، فباتوا كما قلت فيهم من قصيدتي الأندونيسية:

قبسوا رقة الشعور من الأر ... ض التي صاغها الإله فأحكم

ومع كل ما توافر لهم من ذلك الحس الجمالي أبي محافظ جاكرتا ــ كما قيل لي ــ إلا أن يلزم كل بيت بأن يكون فيه شجرة واحدة على الأقل.. ومن يدري، فقد يمتد هذا الإلزام ذات يوم إلى كل منزل في أندونيسية جميعاً..

وقضينا بقية النهار في رحاب الفندق لا نفارقه إلا قليلا.. حتى إذا كان موعد الإفطار مضى الأخ سراج إلى السوق فأحضر لنا سمكتين مشويتين مختلفتي النوع، ولكن سرعان ما كدرتا علينا راحتنا، إذ كانت إحداهما قد بلغت غاية الفساد، وساء طعم الأخرى، فألقينا بهما في سلة القمامة.. وطلبنا طعاما جديدا من الفندق.

و يثير ذكر السمكتين في خاطري هذا التساؤل: كيف يقدم بائع على إضرار الناس بمثل هذا الغش، وبخاصة في أيام الصيام، حيث لا يجد المشتري سببا لكشف ما يبتاعه إلا على مائدة الإفطار؟! ثم كيف يُترك سوق الطعام في مدينة كهذه دون مراقبة صحية لأصناف الأغذية..؟!

مسجد الفلاح

وأقبل بعض الإخوة لز يارتنا في الفندق، وأطلعونا على البرنامج الذي أعدوه لنا، وكان في رأسه مخاطبة المصلين في مسجد الفلاح عقيب صلاة التراو يح، وبعد صلاة الفجر من كل يوم نقضيه في سورابايا، وقبيل العشاء حملونا بسيارتهم إلى المسجد المختار، وما أدري إذا كانوا قد أعلنوا أمرنا للمصلين فاحتشدوا على هذه الصورة التي شهدناها، أو أن هذا التكاثر هو ديدنهم اليومي، وبخاصة في رمضان..

إن لمسجد الفلاح هذا روعة آسرة، فهو على بساطته يوشك أن يضاهي أروع المساجد التي شاهدناها أناقة وجلالا، يتسع في تقديري لألفين من المصلين، وخُصِّص قسمه الخلفي بطابقيه للنساء، ولقد حضرنا فيه صلاتي العشاء والفجر طوال إقامتنا في سورابايا، وفي كل مرة كان يدغدغ مشاعري منظر عشرات ــ إذا لم أقُل مئات ــ الدراجات الآلية ــ الدبابات ــ تتراصُّ في جوانب الشوارع المحيطة بالمسجد، وهي تعني بالطبع أن هناك جيشا من الشباب يقصد هذا المسجد الجديد المبارك من مختلف أبعاد البلد. وذلك دون ر يب مؤشِّر بارز إلى أن في سورابايا ــ بل في أندونيسية كلها ــ جيلا من الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، فهم يمثلون الأنموذج الذي يتحرك اليوم في كل ديار الإسلام، باتجاه العزة التي ميز الله بها أمة الخير، ولن تستطيع قوة في الدنيا أن تطفىء شعلة قلوبهم، أو تقف مسيرتهم دون الغاية، التي حددها لهم كتاب ربهم، وهي تحكيم شر يعته الخالدة لا في حياتهم وحدها، بل في حياة الإنسانية كلها، التي تتطلع من أعماق تيهها الى المنقذ الذي يأخذ بيدها إلى ساحة النور، وهم على أتم اليقين بوعد ربهم الذي يقرع قلوبهم

وسمعهم صباح مساء بقوله المبشِّر (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) ٢٤/٥٥، ولقد بدأت طلائع الفجر الصادق تتعالى مع إطلالة القرن الخامس عشر، الذي سيشهد بقوة الله سقوط الشعارات الشيطانية من الاشتراكية والشيوعية والثورية، وسيودِّع إلى الأبد كل مواثيق الصبية الكبار، التي أرادوا بها صرف الإنسان المسلم عن ميثاقه الأعلى، الذي قطعه لربه منذ نطقت جوارحه بكلمة التوحيد.. وما هذه الجموع المؤمنة تتلاحق إلى بيوت الله في كل مكان.. إلا إيذان بنصر الله القريب وفتحه المبين، حين تنطلق أصوات المؤمنين في كل ديار المسلمين: «لمن الملك اليوم؟» فيأتي البيان بكل لسان (لله الواحد القهار..).

ولن ننسى ونحن نشير إلى مواكب الشباب الزاحف إلى مناجاة ربه وتجديد علاقته به، تلك الأفواج المتكاثفة من الأخوات الصالحات اللواتي يملأن الجوانب من البيوت، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.. فيستمدون من روحها ما يضيء لهن الطريق، فيمضين للإسهام في تكوين المستقبل الإسلامي على بينة من الله ونور...

وكانت كلمة الليلة للأخ زميل الرحلة، الذي راعه ما راعني من تلك المشاهد فأدار حديثه حول المحور الذي تستدعيه.

المنطلقات الأربعة

وكانت الخطوة الثانية في برنامج الليلة هي التوجه مع الإخوة الإرشاديين إلى مؤسستهم. ومن حق هذه المؤسسة الإسلامية علينا أن نخصها بزيارة طويلة، فهي إحدى أربع قواعد تعتبر المنطلقات الرئيسية للنشاط الإسلامي في أندونيسية، ولكل منهن أثره الواسع، وأسلوبه الخاص في تحقيق مبادئه، وأعني بالأربع: المحمدية، والارشاد، والاتحاد الاسلامي ثم نهضة العلماء.

وانسياقا مع الخطة التي ألزمتها نفسي في تسجيل مشاهداتي التحليلية خلال رحلاتي في بعض أجزاء العالم الإسلامي، أراني مضطرا لعرض ملخص عن معلوماتي حول كل من هذه المؤسسات مستقاةً من أوثق المصادر، فضلا عن انطباعاتي الشخصية من خلال دراساتي لأوضاع المسلمين على الطبيعة..

ولم يعد ثمة حاجة للكلام عن أولاهن ــ المحمدية ــ فقد سبق أن قدمنا للقارىء في حلقة سابقة ما ينبغي أن يعرفه عنها، ولنبدأ الكلام هنا عن مؤسسة الارشاد، التي نحن بصددها، فلقد وضع أسسها المرحوم الشيخ أحمد السركني الأنصاري السوداني، وكان من علماء الحرم المكي، وقدم أندونيسية في نطاق العمل للدعوة الإسلامية.. وقد أسهمت هذه المؤسسة ولا تزال تسهم بجهد محمود

في الإرشاد الحق، سواء عن طريق التعليم أو المطبوعات أو الخدمات الاجتماعية الأخرى... وبين يديَّ وأنا أسطر هذه الكلمات نسخ من نشرة يصدرها الارشاديون بعنوان (الإصلاح) وهي تحمل للمسلم الأندونيسي توجيهات حية من كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشذرات من الحكمة النافعة، معروضة باللغتين العربية والاندونيسية. وقد كُتِبَت على غلاف إحداها بالحرف العربي الجميل شهادة الحق، ودارتْ أبحاثها في صفحاتها الثلاثين حول معانيها العظيمة.. وقد أحسن منظّموها اختيار الأحاديث الشريفة الداعية إلى تجريد التوحيد من شوائب الشرك، كحديث ابن عمر عن الحلف بغير الله، وحديث ابن مسعود المتفق عليه عن أعظم الذنوب، وحديث التحذير عن مقاربة العرّافين وتصديقهم، الذي رواه مسلم. وعلى غلاف النسخة الثانية كذلك وبالحرف العربي الجميل (إن الدين عند الله الإسلام) ويدور مضمون النسخة على عرض بعض الآيات وتفسيرها في معاني الدين والإسلام، ويتخلل ذلك نخبة من الأحاديث الشريفة المتصلة بالموضوع، والداعية إلى مكارم الأخلاق.. تعرض النصوص العربية كما وردت في كلام الله وحديث رسوله، ثم يقدم تفسيرها باللسان الأندونيسي، وهذه النشرة تؤلف جزءا من نشاط المؤسسة، الذي ترك في قلوبنا أحسن الانطباع..

حوار ومشاهدات

وفي الاجتماع الذي تمَّ بيننا وبين هؤلاء العاملين في القاعة التي اتُّخِذَ جانب منها مسجدا، تناول الحوار مختلف جوانب العمل، وتطرقوا إلى حاجتهم إلى العون المادي للمضي في مشروعاتهم الكثيرة، ووجدت الفرصة مناسبة لتوجيه أنظار الإخوة إلى بعض الأفكار التي تجمعت لدي من خلال هذه الرحلة، وكان من ذلك تذكيرهم بأن على العاملين في خدمة الدعوة، ولاسيا في مثل أندونيسية، أن يستفيدوا من ظروف البيئة لدعم مشروعاتهم.. وأوضحت ما أريده ببعض الأمثلة العملية، كإنشاء بعض الصناعات المحلية، والقيام ببعض الأعمال الزراعية، وإحداث بعض المداجن التي تقوم على تربية الحيوان والطيور ونحوها على أساس تعاوني، مما يؤمل أن يكون له مردود طيب يساعد على تحقيق الكثير مما يبتغون.. ففي ذلك غنية عن العون الخارجي أو عن بعضه على الأقل.. وقد سرني أن وجدت لديهم تجاوبا مع هذه الأفكار، ولا سيا عندما أخبروني أنهم قد باشروا فعلا بعض هذه الأعمال، وأن لمؤسستهم فندقا يستقبل النزلاء في سورابايا...

ومن هناك انتقلنا إلى أقسام المؤسسة لنستكمل معلوماتنا عنها.. فررنا ببعض فصول الدراسة، واطلعنا على الكثير من المشاهد المبشرةُ بكل خير. على أن المفاجأة البهيجة هي التي واجهناها في مستشفى المؤسسة، حيث أطللنا على مهاجع المرضى، وشاهدنا الاستعدادات **الطبية**، وقد علمنا أن ثمة ستة وثلاثين سريرا لقسمي الذكور والإناث.

فجزى الله أسرة الارشاد على نشاطهم المشكور، ووفق الله سائر العاملين في خدمة الدعوة إلى سد مثل هذه الثغرات التي لا تزال تنتظر المجاهدين لمصلحة الإسلام والمسلمين..

أما الاتحاد الإسلامي ـــفرساتوان إسلامـــ فقد قامت مؤسسته سنة ١٩٣٦ على يد أحد فضلاء الشيوخ واسمه أحمد حسن للغاية نفسها التي استهدفتها المحمدية والإرشاد، وهي التعاون على خدمة الدعوة، بتطهير العقيدة من أدران الشرك، وتنقية الدين من شوائب البدع.. فالثلاثة متفقة على الهدف وان اختلفت في الأسلوب.

وعلى الرغم من أن هذه الجمعيات الثلاث قاصرة عملها على ميدان الإصلاح الديني، دون التعرض مباشرة لأمور السياسة، فقد برز من أبنائها عدد من كبار الساسة والقادة، أمثال الدكتور محمد ناصر، والأستاذ الدكتور كسمان سينجوديمجو، والمرحوم الجنرال سودرمان، القائد الأعلى للقوات المسلحة أيام مقاومة الاستعمار الهولندي، وكان أول جنرال في الجيش و يعتبر أبا للقوات المسلحة في أندونيسية..

نهضة أم كبوة ؟

ونخلص إلى الكلام عن (نهضة العلماء) فقد أسسها الشيخ هاشم أشعرى عام ١٩٢٦م لغاية مختلفة وهي مقاومة الحركة السلفية التي تر يد العودة إلى منابع الوحي المصفَّى.. ومن هنا كان الجفاء شديدا بين نهضة العلماء من جهة وسائر الجمعيات الإصلاحية من الجهة الأخرى. وكان لهذا الخلاف الذي طال زمنه أثره العميق في تمز يق وحدة المسلمين، حتى وفق الله العاملين فجمعوا شتات المؤسسات الإسلامية في مجلس شورى موحّد هو ما عرف في العالم الإسلامي بجماعة «مشومي»..

وطبيعي أن يكون لهذا التجمع الإسلامي وقع غير مرض للسلطة التي لا تر يد خيراً للإسلام، وبخاصة بعد نجاحه الساحق في معركة الانتخابات.. فإذا هي تتسلل إلى الصفوف فتصدعها ـــكما حدث في تركية بانضمام بعض فرق المشايخ إلى صفوف الماسونيين ضد حزب الخلاصـــ وكان أول نجاح حققته في هذا الجانب ذلك الذي حدث عام ١٩٤٧ عندما انفصل حزب «شركت إسلام» ـــالجمعية الإسلاميةـــ عن جماعة «مشومي»، ثم جاءت الدسيسة الثانية على يد سوكارنو وزبانيته عام ١٩٥٢ إذ أوهموا اتباع «نهضة العلماء» بأن قيادة «مشومي» تشكل خطرا على الاتجاه التقليدي، الذي تمثله حركتهم، فانفصلوا عن «مشومي» ليؤلفوا حزبا خاصا كان دأبه ـــولا يزالـــ معارضة «مشومي» وتأييد كل معارض له في كل مجال(١)..

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتاب (البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر) للدكتور محمد السيد غلاب. وكتاب (قسمات العالم الإسلامي المعاصر) للدكتور المهندس مصطفى مؤمن.

في ركب المنافع

ولا أذيع سرا إذا قلت بأن الدافع الأساسي لشذوذ هذه الجماعة عن الصف الإصلاحي لا يعدو **التعلق** بمتاع الدنيا، ومن أجل ذلك تسارع لإرضاء العامة بالسكوت عن أخطائها، وتقف إلى جانب المتسلطين في كل مناسبة، رغبة في المشاركة ببعض النفوذ، حتى لتكاد الوظائف الدينية تصبح حكرا على أعضائها وأتباعها.. فالمتخرج في الدراسات الإسلامية سيظل معزولا عن العمل الرسمي أيا كان حتى يحصل على مرضاتها. وقد رأينا خريجين في بعض الجامعات العربية يحتلون مناصب القضاء، ويتناولون أفضل الرواتب، لأنهم محسوبون على هذه «النهضة»، على حين لا يجد نظراؤهم من الخريجين عملا يسد حاجتهم للحياة إلا بشق النفس، ولا جريرة لهم إلا الالتزام بحق العلم الذي ملأهم يقينا بفداحة المسؤولية أمام الله..

وإني لأكتب هذه الأسطر وفي رأسي ذكرى كبار الأندونيسيين الثلاثة، الذين وفدوا إلى المملكة العربية السعودية قبل أيام، ليجتمعوا بمئات الطلبة والعمال من مواطنيهم، فيجددوا لهم توجيهاتهم مغلفة بالوعد والوعيد، الوعد الذي يفتح أمامهم آفاق المستقبل، إذا هم عرفوا كيف ينسجمون مع روح (البانجاسيلا)، وبالويل والثبور والحرمان لكل من يجرؤ على التفكير بالطريقة الإسلامية!.

وقد حدث أن تعرفتُ شابا تخرج في مكة المكرمة، على مستوى جيد في اللغة العربية وآدابها، وهو موظف في بعض الوزارات.. وذات مرة فاتحني بأن في جاكرتا اسرتين توفي عائلاهما اللذان كانا من رجال الجهاد، وتواجهان الآن أزمة شديدة بسبب عجزهما عن سداد تكاليف الدراسة لبعض أبنائهما.. فدفعت إليه بما يسر الله لمواجهة أزمتهم، ثم فاجأته ذات يوم في أحد المحال مع زميل لي يحاول إثارة شكوكه في شباب دار الإسلام، فيصوب إليهم من التهم والتجريح مثل الذي ألفناه من أعداء المجاهدين في كل مكان، فلم أتمالك أن أكرَّ علي أكاذيبه فأفضحها بالحجج التي أخرسته.. ولقد رأيتني أتساءل عقيب ذلك: فمن أي أصناف البشر إذن تانك الأسرتان اللتان نسبهما الرجل إلى مجاهدين..؟!

هذا إذا كان لهاتين الأسرتين من وجود خارج حدود مخيلة هذا الموظف...

الإسلام منهج الحياة

فجر الثلاثاء ٩/٢٤ وافانا بعض الإخوة بسيارتهم إلى الفندق فحملونا إلى مسجد الفلاح، وعقيب الصلاة قُدّمتُ للكلام فكان مدار حديثي حول القرآن المعظيم واللغة التي شرفها الله به، وأشرت خلال ذلك إلى ما سبق من الاحتفال بذكرى نزوله يوم السابع عشر في مسجد الاستقلال،

وما في ذلك من الدلالة على اهتمام مسلمي أندونيسية بكتاب الله، ثم ذكّرت السامعين بمسؤولية المسلم نحو هذا القرآن الذي وصفه منزله عز اسمه بكونه يهدي للتي هي أقوم، فما من رأي ولا دعوة ولا عمل ولا خلق ولا فلسفة ولا نظام حكم، إلا وهو أقوم منه وأضمن لمصلحة الإنسان وأهدى.. ولا جرم أن الاحتفال الحق به إنما يكون بالتزام المسلم سبيله، واتخاذه منهج حياة لا يزيغ عنه في صغيرة ولا كبيرة.

وعرضت لأولئك الإخوة بعض انطباعاتي السعيدة عن استمساك المسلمين في هذه البلاد بالكثير من موحيات الذكر الحكيم، على الرغم من ضغوط الاستعمار وانحرافات السياسيين، وحملات المبشرين..

ومن ثم تطرقت إلى موضوع العربية والعلاقة الوثيقة بينها وبين القرآن.. من حيث كونها المنفذ الوحيد إلى فهم مضامينه، والتلقى عن مبلغه صلوات الله عليه وسلامه. ولم أنس أن أذكّر بالخير الكثير الذي لمسناه خلال هذا التجوال من عناية بالعربية في مختلف المعاهد الإسلامية التي زرناها.. ولكنا لا ننسى كذلك كثافة السدود التي لاتزال تحول بين المسلم العربي والسواد الأعظم من مسلمي أندونيسية العزيزة، حتى لا يجد الأخ سبيلا للتفاهم مع أخيه إلا عن طريق الإشارة، أو اللجوء إلى لغة الأعداء.. فلو أن كل أخ من مسلمي هذه الجزر ألزم نفسه حفظ كلمة عربية كل يوم لتحصل لديه **ثلاثمئة** وستون مفردة، من لغة القرآن في كل عام، وبذلك يُسْهِم بتفتيت الحواجز القائمة بينه وبين إخوانه، ثم بينه وبين ذلك الكتاب، الذي يكب على تلاوته صباح مساء، وهو لا يفقه منه حرفا، على الرغم من تفوقه المشهود في تجويده.. فكيف إذا هو علم —مع ذلك— أنه بإقباله على تعلم العربية إنما يقوم بنوع من العبادة التي تُرضِي عنه الله ورسوله..

وكان للأخ سراج فضل إبلاغ هذه الأفكار إلى القوم على أحسن وجه أحسن الله مثوبته.

تفاهة العقلية الوثنية

ولما حان موعد السفر حملتنا سيارة الفندق إلى المطار.. على دأبها في خدمة المسافرين من نزلائه دون أن تقاضيهم على ذلك أجرا خاصا، لأن الحساب النهائي يشمل كل شيء ولا يفرط بشيء.. وصدق موعد المطار فلم يتأخر أكثر من دقائق، وها نحن أولاء نحلق على ارتفاع شاهق فوق بحر جاوة باتجاه جزيرة (بالي) التي إليها يتطلع سائحو الغرب، ويعتبرونها —بنظرهم— رائعة أندونيسية الأولى..

وفي مطار (دنباسر) البوذية حطت بنا الطائرة، ولم نلبث أن وجدنا السيارة التي أقلتنا إلى

المدينة المقصودة، خلال طريق طويل من الحقول والأيك والمزارع.. حتى وقف بنا السائق على مدخل الفندق ــالذي كان ذات يوم قصرا للسلطان البوذيــ.

وبمجردوصولنا إلى تلك الساحة التابعة ــكما يبدوــ لذلك الفندق وجدنا أنفسنا محاطين بكل سمات الوثنية، ففي مقابلة المدخل تنهض التماثيل الكريهة بصورها الشيطانية. إن عددها غير قليل، والقدر المشترك في هيئاتها هو تلك الوحشية البارزة في أنيابها المعقوفة إلى خارج الأشداق، وبما تحمل بأيديها من أدوات الفتك كالسكاكين والخناجر والمطارق.. وقد أقيم منها اثنان على جانبي المدخل وكأنهما حارسان للباب..

وحاولت أن أعرف دلالة هذه التماثيل عند أصحابها فلم أوفق، لذلك عمدت إلى الاستنباط الشخصي، فانتهيت إلى أنها ليست من الصور التي يتقربون إليها بعباداتهم، وإنما هي ضرب من الرموز المعبّرة عن إيمان القوم بانتشار ما يسمونه بالأرواح الشريرة، التي ــبزعمهمــ تهاجم المخلوقات بأذاها وفسادها، فهم يتخذون من هذه التماثيل البشعة وسائل لإرهاب أولئك المفسدين، ومنعهم من اقتحام الفندق!.

وعلى الركن الأيمن من الداخل نوع آخر من الصور التي بالغ في اتقانها الرسام، فهي على شكل امرأة سوية يتفرع من أعلاها عدة رؤوس لنساء أخريات.. واستطعنا أن نسمع تفسيرها من كاتبة الفندق، إنها إحدى معبوداتهم، وبرؤوسها المتعددة يرمزون إلى مهامّها المتعددة أيضا.. وقد سبق أن لاحظت مثل هذا التعدد في رسوم الوثنية الهندوكية بمدراس، حيث تتكاثر أيدي المعبود، إشارة إلى تكاثر الفاعليات التي يتصورونها له.. ولا تعليل لذلك سوى ما تحمله هذه المصوَّرات من الأدلة على طفولة العقلية الوثنية، التي لا تستطيع الارتفاع إلى **تصــور** الصفات العلى التي يعرفها المؤمن الرشيد لربه تباركت أسماؤه.. فيعمدون إلى التعبير عن تخيلاتهم البدائية لها بهذه الأشكال. ولا حاجة لأن تناقش المفكر منهم كيف يقبل مثل هذا الهبوط الفكري، لأنه روض نفسه على أن يحصر تفكيره في مصالحه الدنيوية فقط، أما في الناحية **الروحية فهو** قانع بمجرد الحفاظ على التقليد المحض. وهي هي الشنشنة نفسها التي نجدها عند كل ذي تعلق بالخرافات والأوهام، وإلا **فكيف** تفسر تقديس مفكري النصرانية لتماثيل القديسين، وانسياقهم للقول بألوهية مخلوقين كانا يأكلان الطعام ويمشيان في الأسواق.. حتى ليقول أحد عباقرتهم (كريسبي موريسون) في الدفاع عن هذا التناقض. «لا مجال للتلاقي بين الدين والعلم، لأن لكل منهما عالمه المستقل..» فالحمد لله الذي صرف عنا هذا التمزق، وهدانا إلى النور الذي ألف بين طاقاتنا على الحق الذي قامت به السموات والأرض..

احتفالات وثنية

وما كدنا نأخذ طريقنا مع الدليل إلى الغرفات حتى واجهتنا لفحة من رائحة لم تألف مثلها آنافنا، وبعد جهد علمنا أن مصدرها تلك الصحاف الأنيقة التي نسقت عليها بعض الأزاهير، ووضع كل منها أمام واحدة من الغرف.. وسبحان الذي خالف بين أحاسيسنا حتى لنجدها على غاية من الكراهة، في حين يجدونها على غاية من الحسن!.. والاهتمام بالزهر شيء أساسي في حياة البوذيين كما يظهر، لذلك تراها منثورة هنا وهناك وحتى في الممرات، وكذلك موقفهم من الطعام فهم ينثرونه في مختلف المواضع تقدمةً للأرواح، التي يعتقدون أنها تسرح في كل مكان. وقد قيل لنا إن البوذي مهما اشتدت به الحاجة لا يمدّ يده إلى ذلك الطعام المخصص لها..

وكنت داخلا في الصلاة حين تسربت إلى سمعي ضجة مقبلة من أقصى الشارع المجاور، ثم تأخذ في التزايد، ثم تشرع في الخفوت، وجاء زميلي يدعوني لمشاركته في مشاهدة الموكب، ولكن الموكب صار إلى نهايته، فلم أدر عنه شيئا إلا ما قصَّه عليَّ من أن امرأة محمولة على **مِحَفَّة** وخلفها ومن حولها الجمهور يدق الطبول و يصعّد الترانيم، والمشاهدون يرشونها بالماء. وطبيعي أن ذلك كان أحد الاحتفالات (الفولوكلورية) التي يجتذبون بها السيَّاح الأجانب الهاربين من رتابة الحضارة الآلية.

في مسجد الأخوّة

ولما أقبل الأصيل كان علينا أن نتحرك في طلب طعام الافطار، وهو أمر يتطلب جهدا في بلد لا يتجاوز المسلمون فيه الخمسة في المائة، ولكن الله يسّر فتعرفنا مطعما لمسلمين أخذنا منه حاجتنا، ثم جعلناه محجتنا كلما أعوزنا الطعام، وبعد تناول بعض التمرات من زاد الزميل، مضينا إلى مسجد (الأخوّة) القريب حيث أدينا صلاة المغرب مع قليل من الناس.. ثم عدنا إليه بعد ذلك لصلاة العشاء، وكان ثمة برنامج منظم كالذي عهدناه في جاكرتا وغيرها، يقضي بتقديم أحد المتحدثين بين المكتوبة والتراويح، فلما فرغ الرجل من حديثه قدّمني أحد المصلين للكلام، ونهض معي الأخ سراج للترجمة..

ومهدت **للحديث** بكلمة عن أخوّة الإسلام، التي يحمل شعارها هذا المسجد، ثم عمدت إلى إثارة الانتباه لواجب المسلم بإزاء دينه، ومسؤوليته نحو الآخرين من الذين يتخبطون في الظلمات بعيدا عن نور الهدى.. وتطرقت لواقع (دنباسر) وقلة المؤمنين بين سكانها.. وتساءلت: «لنتصور أن واحدا مناقد شاهد جمهورا من الناس يتخبطون في أرض مملوءة بالحفر وقد غمرّهم الظلام، وهو يملك المصباح الذي يكشف لهم طريق النجاة.. فما على هذا الإنسان أن يعمل بهؤلاء..؟ أيكتفي

بالتفرج على مأساتهم.. أم يساعدهم على الخلاص باستعمال مصباحه..؟ ذلك مثل المسلمين والآخرين، فهم وحدهم حملة النور المنقذ، وهم المكلفون بأمر الله نجدةَ هؤلاء الغارقين في مستنقعات الوثنية، فإذا هم أغفلوا واجبهم نحوهم، وحجبوا ما لديهم من النور عن أعينهم، فقد خانوا أمانة الله، وعطلوا رسالتهم التي بها جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس...

ولكن.. علينا أن نتذكر قبل كل شيء أن المسلمين لن يكونوا مؤهّلين لهداية الضالين إذا لم يبدؤوا بأنفسهم أولا، فيكونوا بسلوكهم الصحيح أفضل قدوة للناس..

لقد شبع الناس من الكلام عن الإسلام، وهم الآن يتطلعون إلى رؤية الإسلام الصحيح مطبقا في سلوكهم المميز، الذي يبصّر الآخرين بالفرق بين الإسلام والكفر، وبين النور والظلام..».

وفي نهاية الحديث أقبل السامعون يصافحوننا بحرارة، وشد ما سرّنا أن نجد بينهم بعض الإخوة الحضارمة يخاطبوننا بلغتنا، ويأبى أحدهم أن يفارقنا حتى نعده باستجابة دعوته لإفطار الغد في منزله المجاور للمسجد..

ولكن الذي نغّص علينا تلك الأمسية الماطرة فقدان سراج نعله الجديدة التي تركها عند المدخل، ثم لم يعثر لها على أثر..

مهوى السُيَّاح

لم يكن لنا في (دنباسر) من مهمة خاصة، إذ ليس في مدارسها أحد من مبعوثي دار الإفتاء، ومع ذلك فنحن مضطرون للبقاء هنا عدة أيام بانتظار الاذن من مسؤولي الأمن العام للسفر إلى جزيرة تيمور، التى تعتبر منطقة محظورة، فكانت فرصة طبيعية للتجوال في مختلف أرجاء هذا البلد، الذي هو مهوى أنظار وأفئدة السُيَّاح وبخاصة من استرالية.. ولعل لكثرة هؤلاء أثرا غير يسير في الحركة الاقتصادية التي تموج بها الشوارع. وما أكثر الحوانيت التي تحتوي المعروضات الفنية من الصناعة المحلية الجاذبة لهم، ولا سيما الأشياء المتصلة بالنحت والرسم وما إليها.. وقد ألفينا بين تلك المعروضات أنواعا من النسيج الرفيع المصنوع في المعامل الوطنية، وهو يضاهي أرقى ما تخرجه المصانع العالمية.

ودخلنا أحد أكثر تلك الشوارع حركة ونسيجا، فإذا نحن نواجه أخانا الحضرمي السيد عبدالله سند، الذي دعانا للإفطار منذ عِشاء أمس.. وإذا هو صاحب واحد من أكبر متاجر البلد، وقد ملىء بأكداس الأقمشة، التي أخبرنا أنها كلها من مصنوعات أندونيسية، وكذلك لأخيه جعفر

معرض مجاور من الطراز نفسه، وعلمنا منها أن أكثر تجار ذلك الشارع من الحضارمة.. ومن كلا المعرضين اشترينا بعض الأقمشة بأسعار لا تتجاوز سدس ما تباع به في أسواق المدينة...

وتحقيقا للوعد المضروب أدينا صلاة المغرب في مسجد الأخوَّة، ومنه اتجهنا إلى منزل السيد عبدالله سند الذي جمعنا بأخيه وأولادهما الشباب، وبعض أهل الفضل من معارفهم..

والسمات العربية الأصيلة شديدة البروز في ملامح القوم، أما من حيث اللسان فعلى غاية الوضوح لدى السيد عبدالله، لا تشوبه أي لكنة، على الرغم من مرور ست وأربعين سنة على هجرته إلى هذه الديار، ولكنه نصف عربي عند السيد جعفر، وغائب تماما عند أبنائهم.. وأما معروضات المائدة فتذكرنا بقول المتنبي في ذكرياته عن دمشق، وهو يجتاز (شعب بوان) في جنائن فارس...

ولو كانت دمشق ثنى عناني لبيقُ الثردِ صينيُّ الجفانِ
تحل به على قلبٍ شجاع وترحل عنه عن قلبٍ جبان

إنه الكرم العربي والذوق العربي الأصيل الذي لقيته في جاكرتا عند الأخ الحضرمي الآخر السيد عبدالله مسلَّم العويني...

وعن هؤلاء الفضلاء سجلت في مذكرتي المعلومات التالية عن (دنباسر): إن نسبة المسلمين لا تعدو الخمسة في المائة من مجموع السكان، ولكن نشاطهم يفوق عددهم، ومن ظواهره وجود أحد عشر مسجدا معمورة بالمصلين، الذين فيهم العربي والهندي. وهناك البُهرة الذين ينتسبون إلى الإسلام ويؤدون صلواتهم في أمكنة خاصة بهم، ويصومون رمضان لا على أساس الرؤية بل على حساب الأيام.. ولا يخالطون أهل السنة إلا قليلا. أما بقية عناصر المجتمع فهم من أتباع النحلة البوذية، والكل على اختلاف مذاهبهم يعيشون في جو لا بأس به من التفاهم..

وغادرنا المنزل قبيل العشاء، إذ أراد الإخوة أن نؤدي الصلاة في مسجد آخر لم يُسَمَّ بعد، لأن بناءه لم ينته، وبإحدى سياراتهم حملونا إليه، ثم أعادونا إلى فندقنا عقيب صلاة القيام، وبعد أن أكد علينا السيد جعفر أن يكون إفطارنا القادم عنده..

وكان الاجتماع الثاني الذي تم مساء اليوم التالي على الصورة البهيجة التي عشناها يوم أمس.. وقد **أحسّ** كل منا من الأنس بالآخر ما لا تتسع لترجمته الكلمات، فجزى الله هؤلاء الإخوة عنا كل خير، ووفقنا إلى لقائهم أوبعضهم في رحاب المدينة التي إليها يأرز الإيمان، ويتطلع إلى زيارة مسجدها النبوي من المؤمنين كل جنان..

على أني لا أجد مناصا من الإشارة الخفيفة الى تصرف مؤسف ما كنت أتوقعه صدر من بعضنا، وكاد يسلبنا متعة ذلك المجلس، لولا فضل الله الذي ربط على قلبي فتجاهلت ما رأيت. ولقد سجلت ذلك بالتفصيل في مذكراتي الخاصة، التي لا أدري متى يقدّر الله لها الظهور..

التناقض الغريب

والآن، ونحن على أهبة السفر من (دنباسر) أراني مسوقا إلى تسجيل بعض الظواهر التي شدت انتباهي، ففتقت ذاكرتي عن بعض المشابهات التي غفلت عن الإشارة إليها في الوقت المناسب..

لقد أسلفت الكلام عن التناقض الغريب الذي طالما واجهته في جاكرتا، بين المبالغة في نظافة المساجد والبيوت والأفنية، وانكشاف المجاري الحاملة لفضلات المياه والمنازل على جوانب الشوارع.. ونسيت أن أشير إلى منظر لا يقل شذوذا ولا غرابة.. وذاك يوم كنا في زيارة إحدى المدارس المحترمة في العاصمة، وأراد مسؤولوها الفضلاء أن يطلعونا على بعض مشروعاتهم خارج المدرسة، حيث تنهض الأبنية الجديدة المتممة لها، وبينا نحن ندير البصر في تلك الأرجاء إذا نحن نفاجأ برائحة خانقة، ولم يطل البحث عن مصدرها حتى علمنا أن مصدرها ذلك الحقل القريب من الأرز وهو غارق في ضحضاح من أقنية المياه الملوثة!.

وليس من شأني أن أعالج هذه الظاهرة من الناحية الصحية، فذلك من عمل ذوي الاختصاص بالخدمات العامة، فقد يقررون ــ لو شاهدوا ما شهدناه ــ أن في ذلك خطرا على صحة السكان المجاورين، وفي مقدمتهم الطلاب والمدرسون، الذين لابد من تأمين الرعاية الصحية لهم بدلا من تعريضهم للأوبئة المتوقعة.. وقد يقررون غير ذلك. ولكن مما لا ريب فيه أن في هذا منافاة لأصول التربية التي تفرض علينا أن ننمي في طلابنا حس الجمال الذي يحبه الله ــ كما جاء في الحديث الصحيح ــ والعناية بالنظافة التي يأمرنا الإسلام بالتزامها، حتى نكون بمثابة الشامة بين الأمم.. وقد حذر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المؤمنين من محاكاة غيرهم في قوله: «نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» (١).

وأنا لا أدري إذا كان يهود اليوم لا يزالون على طريقة أسلافهم من قينقاع والنضير وقريظة في استطابة الحياة الوسخة، ولكن الذي أدريه أن الذي فوجئنا به هناك مما لا يتفق مع روح الإسلام في قليل ولا كثير..

أما الظاهرة التي ردتني إلى تذكر ذلك المشهد فمن الضرب نفسه، وذلك أن (دنباسر) التي هي

---

(١) من حديث رواه الترمذي وحسنه ــ جمع الفوائد ٥٨٣٦.

مهوى السائحين من الأقطار، التي تكاد تتخذ من النظافة العامة ديناً لها.. دنباسر هذه تجمع كذلك بين النقيضين من النظافة وضدها.. وقد أشرت فيما تقدم إلى عناية سكانها باستهواء أولئك الوافدين عن طريق العرض لكل ما هو مغرٍ من الأعمال الفنية، في كل حانوت من شوارعها العامرة.. والآن أضيف إلى مشاهداتي تلك ما يواجه الأبصار في واحد من أبرز شوارعها، وهو الممتد ما بين فندقنا ومسجد الأخوّة، من مظاهر الاهمال، بل القذارة البالغة، فهناك نهر يقسم البلد، وكأن فضلاته كلها تصب في مياهه، فهي أبدا تتدفق بأنواع من الغثاء والأوساخ وما إليها.. ومع ذلك لا تعدم العين أن ترى فيه هنا وهناك من يخوض هذه المياه الملوثة طلبا للرزق، أو البحث عن شيء ينفعه..

وعلى كتف الجسر، الذي يزدحم فيه المشاة والسيارات، يستمتع المارة بمنظر أكداس القمامة تتجمع في شبه حجرة مكشوفة لا تنفك تضمِّخ الآناف بعبيرها الخانق! • والعجيب أن هذا كله معروض للأعين على مقربة من تماثيل الآلهة التي يحرق بين يديها العود الطيب أمام الكثير من المتاجر.. فتتعانق الروائح المختلفة أو المتباينة، لتؤلف مزيجاً كبيت بشار القائل في وصف الخياط الأعور:

خاط لي زيدٌ قباء ليت عينيه سواء

حتى لا تستطيع الحكم على المشموم أطيب هو أم بعض السموم؟..كما لا تعلم: أهجاء بيت بشار أم ثناء؟!...

إلى كوبانغ

الجمعة ٢٧ / ٩ / ١٤٠٠

كان غريبا هذا الكشف الذي قدمته إلينا إدارة الفندق، فقد سبق تحديدهم أجر الغرفة ذات السريرين بثمانية آلاف روبية لليلة الواحدة، ولكن القوم يطالبوننا الآن عن كل ليلة بأكثر من تسعة آلاف.. بزعم أن هناك ضريبة للدولة لم تذكر في الأجرة.. والظاهر أن الفنادق الأخرى تستوفي الضريبة مع الأجرة، ونحن ندفعها دون ما علم منا..

وقد سبق أنْ أشرت إلى موضوع الضريبة عند الكلام عن بستان أندونيسية الذي في جاكرتا، حيث كان علينا أن ندفع عند كل قسم من ذلك المعرض الكبير، والآن أضيف إلى ذلك ما على المسافر أن يؤديه من الضريبة في كل مطار يريد أن ينطلق منه إلى أي مكان داخلا أو خارجا.. ولا يقف الأمر عند الضرائب الحكومية وحدها، فهناك ضرائب شخصية أخرى على مثلنا أن يؤديها مكرها أو مختارا كلما أُغلق بوجهه باب الحجز في أي مطار، إذ أن هناك غالبا سماسرة مستعدين لتأمين العدد



● مدرسة إسلامية في كوبانغ

الذي تريد من المقاعد مقابل مبلغ معين لكل مقعد. وقد دفعنا هذه الضريبة في كل مكان لم يتم لنا الحجز فيه من قبل. وهكذا كان علينا أن نحاسب الفندق بكل ما طلب دون تردد..

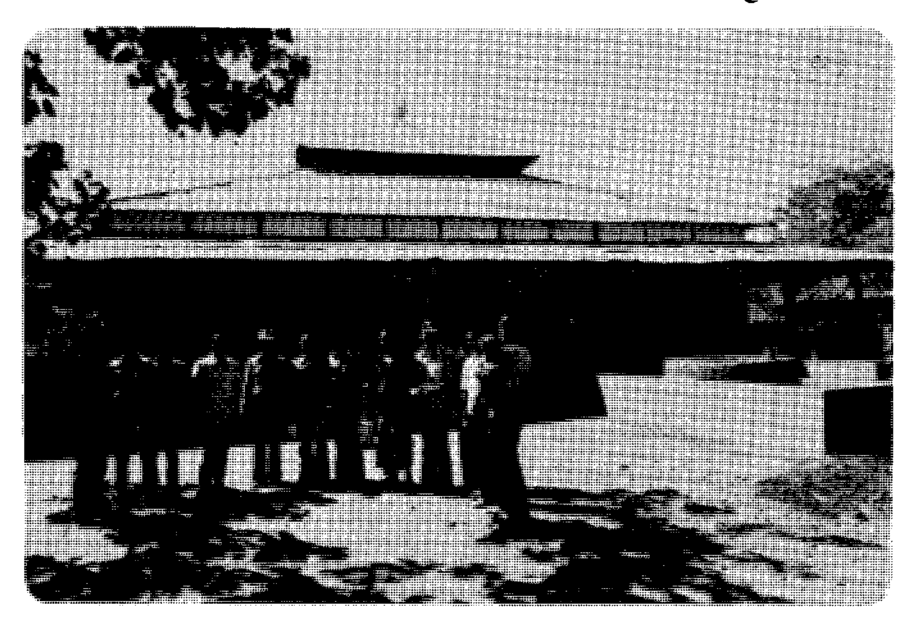
نحن الساعة في الطائرة المتجهة إلى (كوبانغ) عاصمة جزر نوساتنجارا الشرقية..

ما أروع منظر الغمام يعمم الجبال المتلاحقة من تحتنا.. وما أكثر الجزر الصغيرة التي نمر بها وليست سوى قمم جبال أخرى برزت هنا وهناك من قلب البحر، وكأنها رؤوس سابحين مَهَرةٍ قد ضاقت صدورهم بضغط الماء، فاخترقوا سطحه ليملأوا رئاتهم بما يعوزها من الهواء..

يالها من لوحات ساحرة!.. جزر وبحيرات وجبال وسحاب.. وما لا يُحصى من أفانين الجمال.. لكأننا نعيش في عالم من الخيال يموج بالأحلام السعيدة..

المصيف الهادىء

وبعد تسعين دقيقة بدأت الطائرة في الانحدار، وراحت تطلق زمام عجلاتها، كما تفعل السلحفاة حين تهمّ بالتحرك لنشدان الرزق.. وما هي سوى دقائق حتى ذهبت تدرج على ساحة المطار المتواضع.. ومن هنا حملتنا سيارة أجرة إلى البلد الذي بدا لي أشبه بمصيف أثير لمن يريد الهدوء



والخلاص من الضوضاء، وفي القسم الذي عبرناه إلى الفندق كانت المنازل أقرب إلى الدارات الريفية البسيطة المزدانة بأنواع الشجر والزهر.. وكذلك كان الفندق الذي اتجه بنا السائق إليه في طرف البلد كأنه استراحة شاعرية، لا تكاد تسمع فيها لغوا، وقد لطف الجو بلطف النسائم التي كانت تهب ناعمة منعشة..

كان علينا أن نسعى أولا إلى مكتب الخطوط الجوية لتأمين عودتنا في الغد إلى سورابايا، ثم إلى كلمنتان.. لذلك سارعنا، بعد إيداع أمتعتنا غرفتيْن صالحتيْن، إلى البحث عن سيارة تقلنا إلى هناك، وقد وجدنا طلبتنا في إحدى الحافلات المحلية، التي أنزلتنا أمام المكتب، وكان مغلق الباب، مفتوح النافذة، ومن خلف زجاجها حاولنا التفاهم مع الموظف الذي كان يرتب أوراقه، فلم يُعرنا اهتماما.. وأثار ذلك بعضنا فجعل يضغط الزجاج، و يدق عليه دون جدوى، وطلب من مرافقنا الأستاذ سراج أن ينقل إليه كل ما في كلامه من غضب واستياء، ولكن سراجا أحجم عن ذلك، فكان جزاؤه غير قليل من تلك الغضبة الحارقة.. حتى لم يتمالك دموعه من شدة الانفعال..

وأصر زميلنا على مواجهة المحافظ ليبلغه شكوانا من ذلك الموظف الحجري، وجعلنا نجول باحثين عن مقره، وبعد لأي اهتدينا إلى المقر، ولكن لم نجد هناك سوى بعض الحرس والموظفين المناوبين، ومنهم علمنا ألاّ سبيل إلى لقاء المحافظ قبل غد، لأن الدوائر الرسمية تغلق أبوابها لصلاة الجمعة، ثم لا تفتحها سائر اليوم..

وأثناء تطوافنا في رحلة البحث هذه لقينا أحد الفتيان خارجا من أحد المنازل فسألناه عن منزل المحافظ، وإذا امرأة عليها سيما الوقار والشيخوخة تطل من الباب لتستطلع خبرنا، وبخاصة بعد أن لامس سمعها بعض كلامنا العربي، فرحّبت بنا بلهجة قدم عهدها بالعربية، ودعتنا للاستراحة قليلا، وهناك علمنا أننا تلقاء أسرة من أصل يمني توشك أن تفارق لغتها نهائيا، ولكنها لم تفارق ملامحها الأصيلة وأنسها بكل ما يمت إلى أصلها القديم..

عون أخوي

وكان معنا عنوان أحد الموظفين بالشؤون الدينية واسمه الحاج عبدالشكور، فلم يكن لنا بد من الاتصال به لتسهيل مهمتنا، ولم ننتظر إلا قليلا حتى وافانا بسيارته، وبها انتقلنا إلى مسجد (نور السعادة) حيث التقينا بإمامه الشيخ محمد الحبشي، الذي ألح علينا بالإفطار عنده ذلك اليوم، فاعتذرنا بكثرة المشاغل وضيق الوقت.. وعن طريق الأخ عبدالشكور استحصلنا على الحجز اللازم مقابل خمسة آلاف روبية، وبذلك وُجدت المقاعد بعد أن قيل لنا على وجه القطع أن مقاعد الطائرة محجوزة كلها!. ومن حق هذا الرجل وأخيه علينا، وكلاهما عامل في شؤون الحجيج، أن نسجل لهما شكرنا وتقديرنا لما ألفينا لديهما من جميل الرعاية وكبير الاهتمام جزاهما الله عنا كل خير.

وقبيل العشاء الآخرة وافتنا سيارة الأخ عبدالشكور، فحملت زميلي إلى مسجد (الفتح) وتابعت سيرها بي إلى مسجد الشيخ الحبشي، الذي تولى ترجمة حديثي إلى جمهور المصلين، الذي اكتظ به المسجد على سعته، وكان الأخ سراج قد تخلف مع الزميل للقيام بهذه المهمة. ولقد ركزت موضوعي حول رمضان وليلة القدر الذي فضلت ألف شهر لتشرُّفها بنزول القرآن العظيم.. ومن هنا كان إلحاحي على وجوب الاهتمام بكتاب الله والالتزام بأحكامه وأخلاقه، حتى يتحقق المسلمون بمعانيه فيستردوا مكانتهم في طليعة الركبِ الإنساني، كما كان سلفهم الصالح..

وقد كان لذلك الإمام الفضل في إبلاغ هذه الأفكار حارةً إلى قلوب السامعين، إذ كان هو أول المتفاعلين بها، وبذلك استطاع أن يحرك عواطفهم على النحو نفسه الذي حرك عواطفه.. وبذلك أيضا تهيأ لي أن أختم محاضرتي بحوار مع الجمع انتهى بأخذ العهد عليهم أن يكونوا من المحافظين لحدود الله، الملتزمين بطاعة الله ورسوله، حتى يكون كل واحد منهم، ذكرا أو أنثى، صورةً حية للدين الحق الذي ينتسب إليه، وبخاصة في بلد كهذا لا يزيد المسلمون فيه على أربعين في المائة..

ولم أكد أفرغ من الكلام حتى أقبل القوم يتدافعون نحوي ليعبروا عن انفعالهم بالقُبَل والعناق، على النحو الذي واجهته في الفيلبين من قبل، وخشيت معه الهلاك والاختناق..

واستمرت عناية الأخوين الموظفين بنا طوال وجودنا في كوبانغ، ففي صباح اليوم التالي وافتنا سيارتها إلى الفندق لتحمل كلا منا إلى المسجد الذي كان مصلاه بالأمس، وعقيب صلاة الفجر تجمع المصلون، ورأيت أن أدير الحديث حول الصلاة والجماعة وآثارها في تربية الفرد والجماعة، وبعد مقدمة مبسطة سردت خلالها طائفة من الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع، انصرفت إلى أسلوب الحوار لأستثير ذهن السامع عن طريق الأسئلة المحركة للتفكير، وأتلقى الأجوبة المثبتة للمعاني.. حتى إذا أتيت على آخر الحديث أخبرت القوم باضطرارنا للسفر وسألتهم الدعاء بظهر الغيب.. وشدّ ما كان تأثري عميقا عندما هممت بركوب السيارة فإذا بفتى من هؤلاء الاخوة يتقدم نحوي ليقول لي في حرارة واستحياء: (أنا أحبك)..

لقد أدى هذا التعبير بصعوبة تدل على أنه حديث عهد بحفظ بعض الكلمات العربية.. ولكنه كان تعبيراً غنيّ الدلالة على ما في نفسه من المشاعر الإسلامية الصادقة..

ومررنا بمسجد الفتح ابتغاء حمل الزميل، إلا أنه كان لايزال في محاضرته، فانتظرنا طويلا حتى أرسلت الشمس تباشيرها، فآثرنا أن نسبقه إلى الفندق لنرتب أمتعتنا استعدادا للسفر..

شمس جديدة

وفي الطريق شاهدت لأول مرة في حياتي مثل ذلك المنظر الذي طلعت به علينا شمس كوبانغ.. وما أرى في إمكاني وصفه الآن لكرور الشهور عليه، ولذلك أعود إلى مفكرتي لأنقل عنها تلك العبارة التي كتبتها تحت تأثيره المباشر: (... ما أروع إطلالة الشمس هنا في خط الاستواء.. إنه لمشهد لم أتصوره قط، فالشمس أشبه بقرص من ذائب الفضة يتوهج بقوة لا يحتملها بصري فأضطر إلى غضه.. إنه لمنظر يستحق أن يصوَّر وأن يقصد السائحون كوبانغ للاستمتاع بروعته...).

العودة إلى سورابايا

في المطار حيث كنا ننتظر موعد إقلاع الطائرة إلى سورابايا، تقدم نحونا رجل عليه سيما الأدب، ومعه الأخ عبدالشكور الذي حملنا بسيارته، وبمنتهى التواضع جعل يعتذر إلينا عن تصرف موظف المكتب الذي أبى أمس أن يستمع إلينا أو يرد على طلبنا بكلمة.. وعرفنا أن الرجل هو مدير المطار، وقد أخبره الحاج عبدالشكور بأمر الموظف، فساءه ذلك، ولم يَدَعْنا إلا بعد أن اطمأن على راحتنا وارتياحنا. فكان هذا اللطف آخر ما نتزود به من مدينة كوبانغ.. وحتى الساعة لا أدري هوية الرجل: أبوذي هو أم مسلم!.. ولعله من غير المسلمين، فإن يكن كذلك فهو إنسان من الذين قال الله في أمثالهم **(لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس..) ولقد حقق الفضيلتين الأخيرتين فاستحق بذلك جميل الثناء..**

وسددنا ضريبة المطار ثم انطلقنا إلى الطائرة.. التي حطّت بنا في ميناء سورابايا الجوي قرابة الساعة ٤٫٣٠ بعد الظهر، بتوقيت كوبانغ الذي يزيد ستين دقيقة عن زمن جاكرتا.. وفي بهو المطار لقينا أخوين من خريجي الجامعة ينتظراننا، ولم نتلبث إلا يسيرا حتى وجدنا السيارةالتي حملتنا إلى الفندق العالمي ــ ميراما ــ نفسه، الذي حللناه في القدمة الأولى مقابل الأجر الرسمي، وهو ٤٫٥٠٠ روبية، وعلى دأبنا من قبل أدينا صلاة العشاء والتراويح في مسجد الفلاح، الذي مازجت ذكرياته نفسي بما أُحسُّ فيه من موحيات الخير، وهناك أعلن أحد الإخوة للمصلين أن لنا إليهم حديثا عقيب صلاة الفجر التالي..

إلى الشباب

وتحقيقا لذلك الإعلان قُدّمتُ للكلام في موعده المقرر ــ صباح الأحد ٢٩/ ٩ــ فأعربت للجمهور المالىء ذلك المسجد عن الانطباعات الكريمة التي نحملها من هذا المسجد ورواده، وبخاصة الشباب الذين يؤلفون الكثرة الكاثرة منهم... وعرضت بشيء من التفصيل إلى البواعث الفكرية والروحية التي تدفع الشباب البارّ إلى عمران بيوت الله، فاستحقوا بذلك أن يكونوا إحدى الفئات السبع، التي بشرها رسول الله صلوات الله وسلامه بإظلال الله إياهم يوم لا ظل إلا ظله..

وعرجت إلى الحديث عن ليلة القدر وفضائلها وما تنطوي عليه من الفرص السعيدة التي بها فضلت الألف من الشهور.. وربطت ذلك كله بالرسالة الخاتمة التي حملها كتاب الله إلى الثقلين، وواجب الشباب المؤمن نحوه بوصفه آخر رسالات السماء إلى الأرض، ونحو لغته التي لا سبيل إلى تذوقه والتزود منه إلا عن طريقها.. وختمت ذلك بحثِّ الحضور على التصميم الجازم بأن يستمروا بعد رمضان على النهج الذي أخذوا به أنفسهم أثناءه..

إلى كلمنتان

ولما بلغت الساعة ٨٫٣٠ من صباح ذلك اليوم حملتنا سيارة الفندق إلى المطار الذي لم يكلفنا من الانتظار أكثر من تسعين دقيقة، حتى أخذنا أمكنتنا من الطائرة المتجهة إلى جزيرة كلمنتان.. وقد وجدنا مثل ذلك في كل رحلة سبق أن حجز لنا فيها، وإنما جاء العناء فقط من الرحلات التي لم يتيسر فيها الحجز، فكان حظنا منها الانتظار.

وها نحن أولاء نحلّق فوق خليج (كاريماتا) على ارتفاع شاهق.. ومن تحتنا بحر من الغمام الأبيض كأنه حقل لا نهاية له من القطن المنفوش، يحجب ما تحته حينا، ويكشف بعضه حينا آخر..

وما أهيبَ جلال المبدع لهذه الآيات، حين يعي الناظر إليها واقعه، فيتذكر أنه جاثم في جوف زورق جد صغير لا يحفظه شيء إلا عناية الله ورحمته.. وأنه وزورقه والكرة الأرضية تحته، ببحارها

وجبالها وفضائها، ليست سوى زورق صغير آخر، يسبّح بحمد ربه، ويسبَح وفق سننه، في جو السماء لا يمسكه إلا هو سبحانه..

وأنظر الساعة في مذكرتي عن ذلك المشهد المَهيب فأقرأ هناك هذه الأبيات التي كتبتها إذ ذاك في غمرة الانفعال بروعة المنظر:

نحن فوق الغمام في قبضة الأقـ ـدار نمضي كأننا سهم رامي
كلنا مسلمون للخالق الأمـ ـرَ ولو لم نفه بأي كلام
فتعالى المهيمن الضابط الكـ ـلّ ومزجي الأكوانِ في إحكام
وبتوفيقه نطير ونمشي ونوافي ديارنا بسلام

فتردني إلى تلك اللحظات الخاشعات المائجات بأنواع التحميد والتعظيم، للباريء الكريم الرحمن الرحيم، فتبارك الله أحسن الخالقين..

في بنجرماسن

وها نحن الآن قد طوينا ما شاء الله من المساوف حتى أشرفنا على جزيرة كلمنتان، التي يقول سراج إنها ثالثة أكبر جزر العالم، وفيها أطول وأعرض أنهار أندونيسية، تجري فيه السفن محملة منها بأروع الأخشاب إلى مختلف الأنحاء وبخاصة اليابان.

وبعد أربعين دقيقة من الانطلاق في أعالي الفضاء أشرفنا على بسيط (بنجرماسن) وطفقت معالمها تتجلى شيئا فشيئا، ولاحت لنا قبة مسجد بجوار عدد من الأبنية قيل لنا انها جامعتها الإسلامية الحكومية.. وما هي سوى دقائق حتى لامست الطائرة صعيدَ المطار المتواضع.. ثم لحظات وإذا نحن في قاعة العابرين، حيث نلتقي عددا من الإخوة الواقفين بانتظارنا وقد أقبلوا علينا معانقين في لهفة وشوق صادقين.. ولم أكد أتذكر أنني لقيت أحدا منهم قبل هذه الساعة، حتى سمعتهم يسمونني ويذكرونني، وإذا هم جميعا من أبنائنا خريجي الجامعة الإسلامية.. وبعضهم من الذين درسوا عليّ النحو والبلاغة والأدب والسيرة النبوية..

يا لَلَّه.. ما أسعدني بهؤلاء الأحباب!. حقا إن مهنة المدرس أشقى المهن ولكنها ــ كما أسلفت ــ في ظل مثل هذا اللقاء أسعد الروابط البشرية على الإطلاق.. ولا عجب فهي مهمة النبيين والتابعين لهم بإحسان.

ولا أنسى ذلك الكهل الفاضل الذي كان يتقدم أولئك الأبناء لدى تلاقينا، وكأنه صديق لنا

قديم .. وقد وصفوه لنا بأنه مدير (جامعة أناسر) التي أول ما شهدنا من معالم بنجرماسن ونحن في أعالي الجو.

مقابر الشهداء

وفي السيارتين المعدَّتين لنقلنا مضينا مع الإخوة، وأثناء الطريق الممتد بين حقول الأرز والمنازل المتناثرة هنا وهناك، استرعوا انتباهنا إلى مجموعة من البقاع البيضاء تبدو من بعيد، وقد انتشرت على قطعة من الأرض، وهم يقولون: تلك هي مقبرة مئات الشهداء من الحجيج الذين تحطمت بهم الطائرةالنيجيرية أثناء عودتهم من الديار المقدسة..

وتذكرنا على الفور تلك المأساة التي هزت العالم الإسلامي كله في العام الماضي عقيب موسم الحج، وفي ضراعة حزينة سألنا الله الرحمة لأولئك الإخوة.

ومن ثم انتهينا إلى الفندق الذي اختاروه لنا في قلب البلد.. وللحال تسلم كل منا غرفته، وكلتا الحجرتين في الدور الأرضي، ومتشابهتان من حيث الموقع والأثاث، ففي كل منها مقاعد غاية في البساطة وسريران في المستوى نفسه، ويلحق بكل واحدة حمام من الطراز التقليدي غير المريح.. وخير ما فيها نظافتها. ولقد قبض صدري فقدان حجرتي للمنافذ إلا واحدة من جهة الشمال لا نرى من خلالها سوى جزء ضئيل من الفضاء.. لأن أكثرها محجوب بالمنزل المجاور.. ومع ذلك لا تنزل أجرتها عن ١٣٫٠٠٠ روبية، أعني أنها تزيد ألف روبية على أجرة غرفتي في فندق (منتغ) بجاكرتا..

وتذكرت أن ثمة غرفا أفضل من هذه مررنا بها أثناء دخولنا ساحة الفندق، فسألت عما إذا كان من الممكن نقل متاعي ومتاع سراج إلى إحداها بدلا من هذه.. فجاء الجواب بالإيجاب، وتم خلاصنا من الجو المظلم إلى غرفة لا أحلم بخير منها في هذا المنزل.. والغريب أن أجرتها أقل من تلك بثلاثة آلاف..

وطاب لنا المقام في هذا الجو الهادئ، فرصدنا له ثلاث ليال نطير بعدهنَّ إلى جاكرتا إن شاء الله..

بؤساء

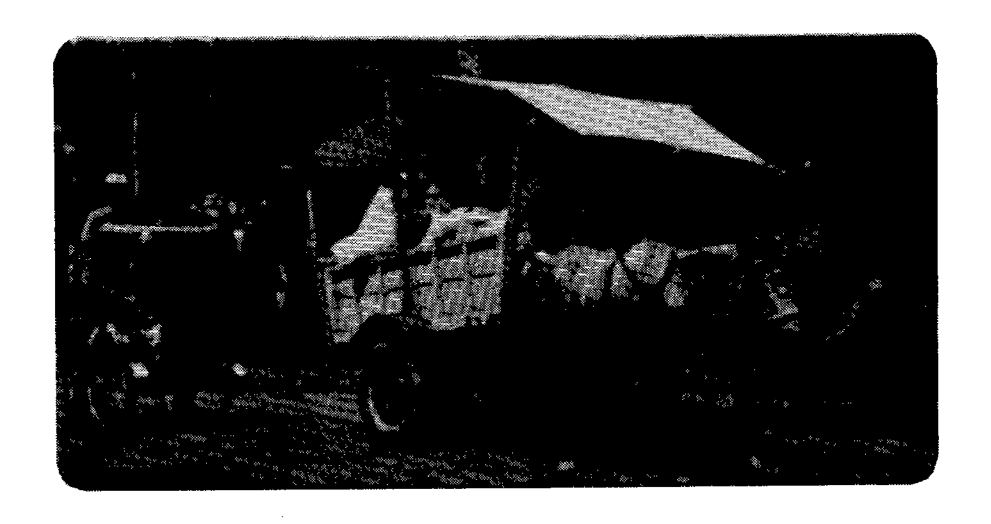
وتواعدنا مع الإخوان على أن يكون تلاقينا ضحى اليوم التالي، وأدينا صلاة العصر في مسجد الجهاد القريب، ثم مضيت وسراجا لتأمين طعام الإفطار، وآثرت ركوب (البتشاك) رغبة في أن أعرف من أحوال البلد ما لا يتوافر لي بالسيارة.. والبتشاك، وتسمى في الهند وباكستان (الرتشاك) دراجة عادية ذات ثلاث عجلات، يقوم فوق الخلفيتين منها مقعد يتسع لراكبين، ويتولى سائقها دفعها بالضغط على دواستي المقدمة.. ويالله لهذا المسكين وهو ينهض ويهبط لإكراه مركبته على السير.. ولا

سيا حين يواجه عقبة أو مرتفعاً ... وسألت سائقنا المعذّب عن دخله اليومي، لأعلم إذا كان خيرا من دخل أشباهه في سورابايا، فإذا الجواب واحد وهو أن مردود يومه، من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، لا يعدو الألف وخمسائة روبية، يؤدي منها الرسم المقطوع لصاحب المركبة وهوخمسمائة روبية وسألته ثانية عن أسرته فإذا هي زوجة وثلاثة من البنين والبنات، وقلت: أيكفيكم ذلك القدر الباقي من الدخل؟ فأجاب: يجب أن يكفي ما دمنا لا نجد غيره..

وكفاني الأخ سراج متابعة الاستقصاء، إذ أخبرني أن مثل هؤلاء لا يطمعون بأكثر من الحصول على بعض الموز والأرز، أما المسكن فعلى الغالب سرادق صغير من القماش أو ورق المقوّى يقيمونه حيث وجدوا له مكانا... ومما زادني خبرة بشقاء هؤلاء البؤساء ما علمته فيا بعد عن أسعار اللحوم والخضار والفاكهة، حتى إن الكيلو الواحد من التفاح مثلا وهو من نتاج البلد لا يقل ثمنه عن الألف وخمسمائة روبية.. وهيهات لمثل هذا المسكين أن يحلم وأسرته بشيء منه...

وغرقت في غمة من التأمل الكئيب: هذا الجهد الذي يعانونه سيدفع بهم إلى الشيخوخة قبل أوانها.. فما المصير الذي سينتهون إليه يومئذ؟!..

ولم أجد لهذا التساؤل من جواب سوى أن أسأل الله لهم العون والعافية بعد أن فقدوا كل أمل برحمة المسؤولين...



● «البتشاك» دراجة عادية ذات ثلاث عجلات



● زراعة الأرز

ترف مسرف وفقر مدقع

من قبلُ فسر لي بعض الإخوة اسم :تشايمس ــالتي سبق ذكرهاــ بأنه الماء العذب أو الحلو، وأما بنجرماسن التي نحن بصددها فمعناها (الماء الملح) ولهذا الاسم علاقة فعلية بالماء الذي يحتضنها من كل جانب، فهناك نهر (باريتو)، وهو من السعة والعمق بحيث تجري فيه الزوارق الكثيرة ذاهبة وآيبة، ومنه ومن سواه من الروافد العديدة تتلقى حقول الأرز ريها الغزير.. ولكن هذه المياه كثيرا ما **يطغى** عليها بحر (سامودرا) بغتة فيمتزج الطعمان، فتغلب الملوحة على العذوبة، فيسري ذلك حتى إلى اسم البلد.

وبنجرماسن مركز محافظة يقارب سكانها المليونين والنصف، وهي تضم خُمس هذا العدد، ويبلغ المسلمون منهم ٩٥٪، وتتوزع البقية بين النصارى الذين يؤلفون أكبر الأقليات، ثم الصينيين، وهم أصحاب الثروة الكبرى، كشأنهم في سائر الجزر، ثم البوذيين.

والمرأة في بنجرماسن كأكثر نساء أندونيسية من حيث المظهر الغربي، إلا أن المسلمات منهن أكثر محافظة واتصالا بالشكل الإسلامي من مسلمات جاكرتا.. هذا فيما يبدو للعيان، وما أدري إذا

كان ثمة بقية من الملتزمات باللباس الأصلي المقبول إسلاميا، إلا أني لم أر دليلا على ذلك..

والمتجول في أرجاء هذا البلد وفي ضواحيه يلمح ظواهر الخير كثيرة، فالأرض كسائر بقاع أندونيسية من حيث الخصب ووفرة المياه وصلاحية المناخ للزراعة، وفي محاصيلها من الأرز وأنواع الفاكهة والخشب الكثير النفيس، ما يوحي بوجود الرخاء العام.. بيد أن الواقع لا يعدو ما شاهدناه ولمسناه في الحواضر الأخرى من شديد التفاوت في أحوال الناس، بين الترف الكبير والفقر الذي يكاد يجعل هذه الخيرات وقفا مقصورا على أصحاب الثراء الواسع..

وقد حدثتك في الحلقة السابقة عن بؤس سائق البتشاك، وقبلها عرضت للفجوة الهائلة التي تفصل ما بين حامل الليسانس (بكالوريوس) مدرسا، والممثل في البرلمان نائباً، وقد تكررت هذه الصورة في لقاءات متشابهة، وكان أحدها مع واحد من خريجي جامعتنا يعمل في إحدى المدارس الأهلية ويتلقى أجره من الحكومة، وهو بذلك يعتبر من المحظوظين بالنسبة إلى زميل له يتناول راتبه من المدرسة نفسها..

سألت هذا الأخ عن مقدار شهريته فقال: بدأت بثلاثين ألفا..

ــ وكم تعول من الأفراد؟

ــ زوج وأولاد ـ لا أذكر الآن عددهم ـ

ــ وكيف تؤمن حاجتهم بهذا الراتب؟ أليس ثمة من مورد آخر؟

ــ بلى.. ولكن غير مستقر.. فأنا وأمثالي نلقي الموعظة في بعض الاجتماعات، فنتلقى في إثرها العونَ الذي يجمع لنا من تبرعات بعض الحضور..

وهنا أدركت لماذا يشارك هذا وأشباهه في أحفال يشهدون خلالها أفانين البدع دون أن يقولوا في إنكارها كلمة.. وإذا كان العسر هو الذي يكرههم على مثل هذه المواقف بإزاء المنكرات الدينية، فهم أحق بالإعذار في سكوتهم عن المنكرات الرسمية..

قصة الروبية

وطلبت إلى صديقنا سراج أن يرافقني إلى معرض الخضار لأشتري ما أنا بحاجة إليه من النباتات الملّينة، وهناك رأيت ما لم أتوقع، إذ كان عليّ أن أشمر لأخوض بعض الوحول المتخلفة عن المطر في مدخل السوق، وأن أنقل خطوي بحذر بين النسوة اللاتي يبعن اللحوم والدجاج والتوابل، وهن يعرضن هذا ويقطّعن ذاك ويشذّبن هذه على بعض الأخشاب.. فإذا صرت إلى

جوف السوق واجهت بوادر الظلمة تكاد تعم تلك الجوانب الخشبية المتشابكة التي عُرضت فيها أصناف الخضار...

وغادرت هذا المجمّع البدائي إلى الشارع المرقش بالحفر وأنا أتساءل: كيف يظل الناس هنا في منجاة من الوباء؟.. وماذا يصنع موظفو الصحة والبلدية إذا هم لم يقوموا بتغيير هذا الواقع الكئيب؟!..

وعلى كتف النهر الكبير تنتشر بائعات السمك والدجاج المشوي، فأخذنا منها حاجتنا للإفطار الذي بات موعده قريبا، ومن أمكنة الفواكه تزودنا ببعض اليوسفي والبطيخ الذي قل فيه الصالح على الرغم من جمال منظره، ولا حاجة للقول بأن ذلك قد اقتضانا بضعة آلاف من الروبيات.. وهي أرقام من حقها أن تثير الإشكال في أذهان القراء، الذين لا يعرفون قصة هذا الضرب من العملات الهابطة، وبدافع من هذا الإشكال حاولت الحصول على حل من بعض العارفين، فكان الجواب كما يلي:

يقول صاحبي ــ وهو من كبار التجار ــ في العام ١٩٥٠م كان الدولار الأميركي لا يعدو ثلاث روبيات وثلاثة أرباع الروبية، وحدث أن تعرضت الحكومة لأزمة مالية فاضطرت إلى استلاف نصف الروبيات المتداولة في الدولة، ومن أجل ذلك عمدت إلى تقطيع الورق النقدي جزأين تحتجز أحدهما في مصرفها، وتدع الشطر الآخر بيد المالك. وأعقب ذلك اضطراب الأسواق، وتصاعدت أسعار الدولار، حتى كان عام ١٩٥٩ حيث هبطت الروبية إلى عُشر مستواها، ثم تتابع انحدارها هُوِيًّا حتى أصبح الألف منها لا يساوي اليوم أكثر من أربعة أريلة سعودية!..

ولو أنك استفسرت أحد الاقتصاديين عن أسرار هذا السقوط المروّع لما تجاوز في جوابه الحدود المعهودة من حيث الظروف العالمية، وتدني أسعار المحاصيل، واختلال الميزان التجاري، وما إلى ذلك من الأسباب المادية.. أما أصحاب النظر القرآني، فمع أنهم لا ينكرون هذه الجوانب، إلا أنهم لا يقفون عندها، بل يتجاوزون ذلك إلى السُّنن الإلهية التي اقتضت ألاّ يتوافر الأمن والرخاء والاستقرار، إلا حيث يتوافر الالتزام التام بمنهج الإسلام، الذي يقول منزله (وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غَدَقاً. ١٦/٧٢) وليست الزلازل الاقتصادية التي تضرب عملات أندونيسية وتركية وسورية وغيرها من ربوع الإسلام هذه الأيام إلا إحدى نتائج الإعراض عن ذلك المنهج العاصم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!..



● مدرسة العناية في بنجرماسن

نقاش هادىء

وفي المسجد الجامع، وهو أكبر مساجد بنجرماسن حتى اليوم، أدينا صلاة العشاء مع الأستاذ مسطور مدير جامعة أنتاسر، والمسجد المذكور واسع البناء رحب الفناء، وحاول الإمام تقديمي للإمامة فاعتذرت، وصلى بنا التراويح عشرين ركعة، يتخللها استراحات أطول منها، تُملأ بالدعوات والأذكار والتهليلات الجماعية، ويشترك فيها الصغار والكبار، دون أن يفقه سوادهم منها حرفا.

وبعد اختتام العشرين بالوتر دُعيت للكلام، وتقدم أحدهم لترجمته إلى المصلين.. ولكني شكرته على تطوعه بذلك واستأذنته بأن يتولى هذه المهمة الأخ سراج الذي ألف أسلوبي، وألفت طريقته، إلا أن سراجا اعتذر وأصر على الاعتذار، وقد أخبرني فيما بعد أنه انما فعل ذلك لأن ثمة بعض الاختلاف بين لهجته ولهجة هذه المنطقة..

وقدمت بين يدي ما أريد بكلمة أعربت بها عن إعجابي بما رأيت في هذا المسجد، وفي كل مسجد **وقفت** للصلاة فيه بأندونيسية، من إقامة للصلاة على الوجه الأتم من حيث الطمأنينة وتوفية حركاتها وسكناتها، وتسوية صفوفها، حتى لا أرى فيها عوجا ولا أمتا، ولا جرم أن هذا من متطلبات الخشوع الذي هو لب العبادة، إذ لا دليل على خشوع القلب إلا خشوع الجوارح، ولقد أثنى الله على الخاشعين بقوله الحق (قد أفلحَ المؤمنون الذين هم في صلاتِهم **خاشعون** ٢٣/١ـ ٢).

ومن ثم تطرقت إلى هذه التزيدات التي شاهدتها أثناء التراويح وقلت: إن ههنا رجالا من أهل العلم وقد تخرجوا في الأزهر، فإليهم أوجه كلامي راجيا أن نجد منهم التعاون المنشود على إظهار الحق والتزام حدوده.

ومضيت في استقراء هاتيك الظواهر، أعرض كلاً منها على المعروف بالضرورة من كتاب الله وسنة رسوله، ومفهومات السلف من أئمة المذاهب.. فلا أدع الواحد منها حتى أسمع إقرار أولئك **الفضلاء بأنه من المحدثات التي لا سند لها من الدين.. حتى إذا فرغنا من هذه المناقشة العلمية، سألتهم: ما دمنا قد انتهينا إلى الاتفاق على شذوذ هذه الزيادات عن المنهج الصحيح أفلا يكون من الواجب اجتنابها بعد اليوم!**

ولقد كان لهذه الملاحظات وقع عميق في نفوس السامعين وبخاصة أولي العلم منهم، وأحسبهم منتهين ذات يوم بتوفيق الله إلى التوقف عن تلك المحدثات، ولو غضب أنصارها من شيوخهم النهضيين، الذين يعتبرون واجبهم الأول محاربة السلفيين من الداعين للعودة بالعبادات إلى منابع الوحي المصفّى..

الإمام المفترى عليه

ومن يدري فقد يتطوع أحدأتباع (النهضة) من طلابنا في الجامعة الإسلامية فيترجم هذا الكلام إلى بعض شيوخها الأفاضل، فيرون من المصلحة انكار تنكرهم لدعاة السلفية، لذلك نبادر إلى عرض بعض تعاليمهم (المضنون بها على غير أهلها).

في نشرة تصدرها رئاسة نهضة العلماء بمحافظة جاوة الشرقية، وفي عددها الصادر في شهر أكتوبر ١٩٧٩ من السنة الأولى، عرضتْ ما تسميه (دراسات مقارنة في مفاهيم الوهابية) بقلم رباح معصوم، وهو عبارة عن ملخص مستخرج من كتاب (الفجر الصادق) للشيخ جميل أفندي صدقي، وفيه يقول:

إن محمد بن عبد الوهاب قد ادّعى النبوة، ومن خصائص دعوته:

١ ــ تكفير كل مسلم لا ينتمي إلى فرقته.
٢ ــ إنكار الصلاة على الرسول.
٣ ــ تكفير من لَقَّب أحداً من الناس بـ(مولانا) و(سيدنا).
٤ ــ تحريم الدعاء والأوراد عقيب الصلاة..

و يضيف إلى ذلك أن الوهابيين قد قتلوا رجلا أعمى لأنه صلى على الرسول بعد الأذان.. وأنهم كانوا يقتلون كبار المسلمين، وهم يقتلون صغارهم أمام أعين أمهاتهم، وقد قتلوا رجالا كانوا يتدارسون القرآن في أحد المساجد..

والغر يب في أمر هؤلاء السادة أنهم يتبنون هذه المفتر يات، و يتبرعون بتوز يعها على أتباعهم، بعد أن انكشف عوارها وخَبَثُها لكل ذي عينين في العالم الإسلامي، فكأنهم يعيشون وأنصارهم خارج حدود الدنيا، أو كأنهم لم يقرأوا قوله تعالى (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ــ ١٦/١٠٥).

اختلاف !..

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل من صباح الاثنين، حين جاء زميلي يطرق باب حجرتنا ومعه المذياع ينث بلاغ المملكة عن ثبوت العيد.. وكنا نتوقع ذلك فلم نفاجأ به، وهكذا بتنا على إفطار، وحمدنا الله على فضله.. ولكن العيد سيظل متأخرا بالنسبة إلى إخواننا في أندونيسية، فقد تأخروا بصيامهم عنا يوما كاملا، ولذلك سيظلون ممسكين حتى يثبت لديهم في معزل عن ثبوته في أي بلد آخر.. وأذكر أني بلغت مطار كراتشي في اليوم الثاني من رمضان ومع ذلك وجدت الناس لا يزالون مفطر ين لم يبدأ عندهم الشهر.. وقبل ذلك رأيت مسلمي الفلبين أكثر خلافا في هذا الموضوع، حتى ليبلغ التفاوت بينهم في الصوم عدة أيام في البلد الواحد.. بل قد بلغني أن من مسلمي الفلبين من لا يرى صيام الشهر كله فيكتفي منه بأسبوع أو بعض أسبوع.. ولعلى أشرت إلى ذلك في أحاديثي عن ذلك القطر..

وأذكر في هذه المناسبة بحثاً قرأته في إحدى المجلات الإسلامية بقلم أحد المحققين حول هلال رمضان، وفيه يؤكد بالدليل العلمي أن تفاوت المطالع بين مجموع الأقطار الإسلامية لا يبلغ مدة يوم، ولهذا يرى أن ثبوت الرؤ ية في أي منها كاف لقبوله في سائرها..

وأنا إذ أشير إلى هذا الأمر لا أر يد اقناع أحد أو القطع برأي فلذلك أهلُه من علماء الإسلام وذوي الاختصاص، وإنما أعرض له لتسجيل واقع لا يحسن إهماله ولا مندوحة عن معالجته..

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي قدم إلينا عميد كلية التربية ورئيس الجمعية الوصلية، فَحَمَلَنا بسيارته لزيارة بعض المؤسسات، فبدأنا بمدرسة العناية وهي تابعة في مناهجها للجمعية المحمدية، التي سبق ذكرها في مقدمة المؤسسات الإسلامية العاملة لتصحيح العقيدة ومكافحة البدع.. وقد سررنا بما رأينا من الجو التعليمي، على الرغم من مظاهر الفقر البادية على أقسامها(١)..

جهود مشكورة

ومن هناك توجهنا إلى المستشفى الإسلامي التابع للجمعية المحمدية نفسها، والتقينا بعض الفضلاء من القائمين عليه، وتفقدنا بعض أقسامه. والحق أن فيه لجهودا كريمة مشكورة، ففي هذا المستشفى ستة وثلاثون سريرا، وقرابة الثلاثين ما بين طبيب ومساعد، وعلى غرفاته سيما النظافة، وفي كل منها سريران يفصل بينهما حاجز خشبي كالسبورة المتحركة، والأسرّة خشبية بسيطة والفرش بسيطة ونقية، وشاهدنا هناك مُجَمَّعاً للمرضى فيه عدة أسرة من هذا الطراز نفسه، ولكل منها ستارة. وكذلك زرنا أبنيته الجديدة التي لم تتم بعد، وهي عديدة وجميلة التخطيط، وجميعها من الخشب الذي تمتاز به بنجرماسن فجزى الله العاملين والمؤسّسين كل خير عن الإسلام والمسلمين..

ومن هناك اتجهنا نحو الجامعة الإسلامية الحكومية.. فاستقبلنا بالترحاب مديرها خريج الأزهر الحاج مسطور جهري، ومعه بعض العمداء والموظفين، وطِيف بنا على كلياتها ومكتباتها فارتاحت قلوبنا لما رأينا من مظاهر الخير..

إعداد وجهاد

وقد لفت نظري —في صدر إحدى القاعات، وعلى امتداد جدارها المواجه للداخل— ذلك العمل الفني البالغ الروعة والدقة، وهو يمثل شيخاً من بنجرماسن اسمه محمد أرشد في مشاهد متعددة أريد بها تأريخ حركته الإصلاحية..

ففي أحدها التي على اليسار صورة الشيخ وهو يتلقى العلم في إحدى حلقات المسجد الحرام مقابل الكعبة المشرفة، وفي الثاني صورته مدرسا وأمامه مجموعة من الطلبة بعد عودته إلى بنجرماسن، ثم صورته وهو يعدّ طلابه لجهاد المستعمرين الهولنديين ويدربهم على آلات الحرب الحديثة..

(١) لقد جاء من يخبرنا أن هذه المدرسة قد أصابها الحريق فيما بعد، ولا شك أنها مصيبة كبيرة على تلك المحلة.

وهكذا تتابع المشاهد وبمجموعها تمثل عمل الشيخ في التربية والإعداد، وما قام به علماء الإسلام وطلابهم من جهود جبارة منظمة لتحرير بلادهم من مخالب الصليبية خلال القرن الحادي عشر الهجري..

والعمل بأسره مصنوع من الأسمنت المجسّم ومطليّ باللون البني القريب من لون الدم.. وقد قيل لنا إن صانعه رجل مسلم توفي قبل قليل..

وأنا أعرض لهذه المشخَّصات لأقدم إلى القارىء صورة وافية عن أثر الإسلام في تطهير هذه الجزر من رجس الاستعمار على اختلاف هوياته، وكيف جوزي الإسلام على ذلك باستبعاده عن أجهزة الحكم، والاستعاضة عن شريعته الإلهية بذلك اللغو الجاهلي الذي يسمونه (البانجاسيلا) وليس هذا البانجاسيلا في مراميه القصية سوى واحدة من المحاولات التاريخية، التي تعرض لها الإسلام على أيدي طواغيت القرامطة والعبيديين ودعاة الأحزاب القومية، التي تريد ـ كما يقول أحدهم ـ تفكيك بنية المجتمع لبنائه على أسس جديدة، من تجارب وضعية ملأت الغبراء بالدماء، ودمرت طمأنينة الانسان في كل مكان..

سؤال ولا جواب

وكان آخر ما شهدناه من معالم البلد التي لا يحسن أن نُحرم زيارتها مسجدُ (سبيل المتقين)، والحق لقد كاد يفوتنا غير قليل من متعة البصر لو أغفلنا هذه الزيارة. والفضل في ذلك للأخ الفاضل الحاج مسطور جهري مدير جامعة أنتاسر والإخوة الآخرين فخر الرازي، والشرقاوي ـ خريجي الجامعة الإسلامية ـ ومحمد يمين الطالب في كلية الدعوة بجامعتنا..

عقيب هذه الزيارة كتبت في مذكرتي بوصف هذا المسجد، بل هذه التحفة الرائعة (انه آية في الجمال والاتقان والسعة، تعلوه قبة واحدة، وتزين جدرانه الآيات الكريمة، وأسماء الله الحسنى، وقد نسق كل جزء منه بشكل أخاذ. إنه أروع جمالا وأدعى للخشوع من (مسجد الاستقلال) في جاكرتا، ذلك الذي لم أر له مثيلا في السعة والفخامة، ولكني لم ألمح فيه أي مظهر إسلامي..) ولا أدري كيف أعلل هذا الفرق بين المسجدين من حيث الأثر الروحي.. ولقد ذُكر لنا محافظ بنجرماسن بكثير من الخير، وقيل إنه حج واعتمر أكثر من مرة، فهل لصلته بهذا المسجد من أثر في جماله وجلاله!.

على أن ثمة سؤالا يجول في خاطري وأنا أنقل بصري في بدائع هذا المسجد: أليس من أغرب المتناقضات أن تنفق مئات الملايين على زخرفة بيوت الله، على حين تبيت الملايين من عباده في

أكواخ بالية لا تقيهم حرّا ولا قرّا..؟.. وتكاد لا تلمح قطعة اللحم، ولا تشم رائحة الفاكهة إلا في عالم الأحلام؟!.. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد)(١).

فرحة العيد

وكانت عشية ذلك اليوم، وهي ليلة العيد في بنجرماسن، متعة أخرى حمدناها لأولئك الإخوة الأعزاء.

لقد صلينا العشاء في أحد المساجد، وحملتنا سيارة الأستاذ مسطور لتطوف بنا في أنحاء البلد المتلألىء بأشعة الكهرباء، وكثرت المشاهد التي تنبىء عن فرحة المسلمين بعيدهم.. ولعل أكثرها امتاعا تلك الشاحنات المملوءة بالشباب والأحداث، وهي تجول هنا وهناك، وقد ارتفعت أصواتهم بالتكبير والتهليل، متجاوبة مع أصوات المكبرين من المآذن والأسواق ومن كل جانب.. ولم تنقطع هذه الحركة حتى قبل منتصف الليل..

وفي الوقت المناسب أقبل الإخوة علينا بسيارتهم من جديد، فحملونا إلى الملعب الرياضي الذي اتُّخذت فيه الاستعدادات اللازمة لصلاة العيد..

والملعب هذا ميدان رحب يتصدره من ناحية الغرب ــ وهي جهة القبلة ــ مدرَّج خشبي يتسع لمئتي شخص، وقد فرشت أرض الميدان ببساط من الخضرة الناعمة.. وجعل الناس يتوافدون عليه أفواجا من الذكور والإناث ليأخذ كل من الجنسين مكانه الخاص.. حتى إذا كانت الثامنة، وبلغ الحضور ما يوازي الثلاثين ألفا، قَدِم الإمام الحليق كغيره، وانتصب خلف المنصة المعدة له، المحاطة بالمكبرات في مقدمة الصفوف، وأمسك بيده كراسا مطبوعا كالذي يوزع على مدخل الميدان، وهو من منشورات الجمعية المحمدية.. ويتألف من قسمين.. الأول من الشمال مزيج من العربية والأندونيسية المكتوبة بالحروف الصليبية.. ويبدأ بتحية الإسلام، ثم مقدمة مناسبة فيها التكبير والتحميد والشهادتان والأمر بالتقوى.. ثم يتلو ذلك آيات من كتاب الله، فأحاديث شريفة، فبعض الحكم، حتى قول شوقي:

وإنما الأمـم الأخـلاق ما بقيت   و(إن) همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقبل الخاتمة تذكير للناس بخطر الرشوة التي (إذا دخلت من الباب خرجت الأمانة من الكوة) ثم تأتي الخاتمة دعاء للمؤمنين والمؤمنات، وصلاة على رسول الله وأصحابه والمسلمين..

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبّان ــ أنظر فتح الباري جـ ١ ص ٥٣٩ ط السلفية.

ثم يتلو القسم الثاني بالأندونيسية. يتخلله رسوم لمساجد وأشياء أخرى هي نوع من الإعلانات التجارية التي تحمل التهنئة للمسلمين وتدعوهم إلى بضائعها.. وليس في الكراس من صور لأحياء إلا واحدة وضعت في رأس الافتتاحية هي صورة الخطيب نفسه، الذي هو رئيس الجمعية المحمدية في كلمنتان.

لقد التزم الإمام الخطيب تلاوة مضمون الكراس حرفيا بالعربية والأندونيسية، وما أذكر إذا كان قد قرأ الأخطاء المطبعية كما وردت في الكراس أيضا.. ومن ذلك (أياكم أحسن عملا) بدل (أيكم أحسن عملا).. و(اعجاب المرء لنفسه) بدل (بنفسه)... ثم أقيمت الصلاة وبدأ انفضاض المصلين..

انطباعات

بقيت ملاحظة صغيرة من انطباعاتي هناك، وهي تتعلق بمشهد المرأة في ذلك المصلى..

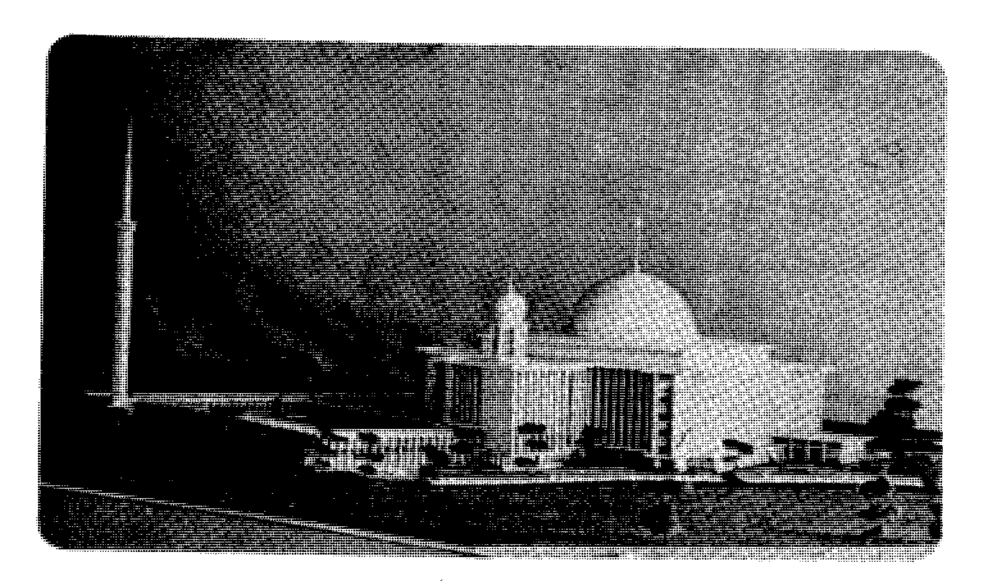
لقد كانت المصليات كثيرات وهي ظاهرة شهدناها في سائر المدن التي صلينا في مساجدها بأندونيسية، وبمناسبة العيد كان معظمهن في زينتهن، وكثير منهن يرتدين الألبسة التي تشف عما تحتها حتى حوامل الأثداء.. والكثيرات جئن حاسرات الرؤوس والأذرع، ومعهن الأكياس الخاصة بثياب الصلاة، ارتدينها في الميدان ثم خلعنها عقيب الصلاة، ولا أذكر أني رأيت امرأة من هذا الجمع قد شذت عن ذلك اللهم إلا واحدة رأيتها تقف قرب حَمَلَةِ صناديق التبرع وهي في زيها السابغ المميز وقد لف رأسها بالخمار الشرعي.. وأغلب الظن أنها من الجمعية المحمدية..

وفي رأيي أن استخفاف المسلمة الأندونيسية بأمر الحجاب قد جر خلفه مؤثرات كثيرة أكتفي بذكر واحدة منها الآن، وهي ظاهرة التكشف المنزلي، إذ أصبحت بيوت المسلمين —أو معظمها— مباحة لأعين المارة يرون ما بداخلها من خلال أبوابها أو واجهاتها الزجاجية دون حجاب!.

وما أحسب عاقلا يماري في أن لهذا الاستهتار أثره الخطير في تربية الجيل على لون من الحياة لا يمتُّ إلى الإسلام بأي صلة.. فأين المؤمنون؟ وأين المفكرون؟ وأين المصلحون؟..

الأربعاء ٢/١٠/١٤٠٠ هـ

ختمنا زيارتنا لبنجرماسن، وبسيارتَي السيد مدير الجامعة الاستاذ مسطور، وسيارة الشؤون الدينية أخذنا طريقنا إلى المطار، وقد أبى إخوة الأمس أن يفارقونا إلا حين ركوب الطائرة، فجزاهم الله كِفاءَ فضلِهم ومودتهم خير ما يستحق المحسنون.



● مسجد الاستقلال بجاكرتا

وها نحن أولاء على متن الغمام، نجتاز سماء خليج (كاريماتا) باتجاه جاكرتا.. وما أراني بقادر على الوفاء بوصف ما أرى إلا القول: سبحان الله.. وما أعظم ملكه!..

وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت العاصمة حين فوجئنا بالضباب يحيط بنا من كل جانب حتى لا نبصر أبعد من زجاج الطائرة.. فاللهم عونك..

يا من هو المؤمنُ السلامُ   نسألك الأمنَ والسلاما

وأخيرا وبعد ساعة وعشرين دقيقة من الطيران، هبطنا برعايته تعالى في أحد مطارات جاكرتا الدولية الثلاثة.. وانتهينا إلى فندق (منتقن) الذي فيه تركنا أمتعتنا، وكنت أوثر عليه فندق جوهر ذا الرائحة الإسلامية والعربية، لو وافقني صاحبي..

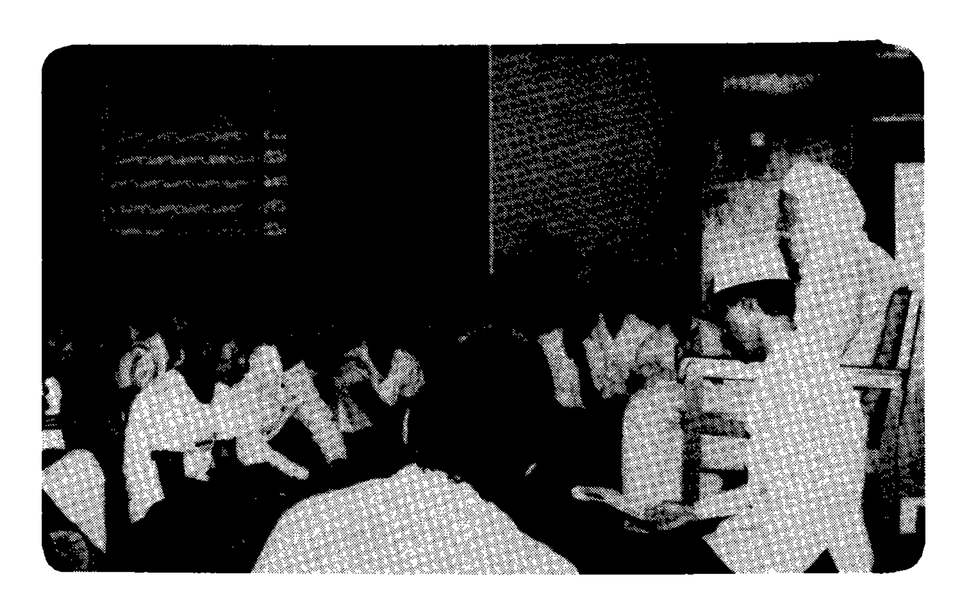
وكان علينا أن نتدبر أمر طعامنا، وهو المشكلة الدائمة بالنسبة للعربي في أندونيسية، وقد سبق

أن تعرضنا لمفاجأتين زودتانا بالكثير من الحذر، وذلك عندما مضى بي زميلي إلى مطعم توهم أنه من النوع الصالح، وبعد أن حُضِّر لنا فيه بعض الشواء خطر لي أن أسأل عن نوع اللحم فإذا هو من الخنزير، فتركناه وانصرفنا إلى مطعم آخر وإذا هو من الطراز نفسه. ومن قبلُ جهدت طويلا للوصول إلى مطعم مسلم حتى كدت أيأس، لولا أن قيض الله لي أحد الإخوان فدلني على مطعمين أحدهما سياميّ والآخر عربي باسم (الشرق الأوسط) ومن كليهما تزودت، ولذلك أخذنا طريقنا إلى الأخير حتى انتهينا إليه فإذا هو مغلق بسبب العيد، وحاولنا التعرف لمنزل أصحابه رجاء أن يكون قريبا، فيؤمنوا لنا حاجتنا، ولكن بدلا من العثور بهم وجدنا أنفسنا على مدخل منزل استقبلنا منه فتى عربيّ الوجه واللسان.. فاسترحنا إلى لقائه وقبلنا دعوته للدخول، فإذا هناك شيخ حضرمي لا يزال محتفظا بكسوته الأصيلة، وفي وجهه الأسمر الوسيم سيما الفضل والوقار وملامح الهاشمية التي ينتسب إليها، وكنا قد واجهنا أثناء القدوم عليه مجموعة من النساء المحتشمات يغادرن المنزل.. ثم علمنا منه أنهن يتلقين عنده دروسا في الدين والعربية.. ولا شك أن ذلك ضرب من الجهاد عظيم، لاستبقاء الصبغة المباركة على هذا الجيل من مهاجري الجزيرة العربية.. ثم علمنا أن الفتى الذي قادنا إلى هذه الزيارة واحد من أحفاده، ويتلقى دراسته في جامعة الأزهر بالقاهرة.

وبعد تناول شيء من حلويات العيد لدى الشيخ ودعناه شاكرين معتذرين عن قبول دعوته للعشاء.

وفي صباح الخميس ١٠/٣ كان عليّ أن أفرغ لانجاز إجراءات السفر.. وكان الأخ حلمي أمين الدين –سكرتير الملحقية– قد استحصل لي على بديل من بطاقة السفر التي أضاعها، وثبَّت لي الحجز على طائرة الغد.. ولم يبق لي في الملحقية سوى استرداد ما أديته عن مرافقنا الأخ سراج الدين أثناء رحلتنا الطويلة، وقد قارب المائة والأربعين ألف روبية، وهو حق على الملحقية التي لم تزوده بأكثر من تذاكر الطيران، لأن الملحق المسافر لم يدع لأمين سره ما يساعده على تسديد تكاليفه الأخرى، على الرغم من علم الملحق التام بأن نفقات المعيشة والفنادق والمواصلات تلتهم الأخضر واليابس في هذه البلاد. وكان المأمول أن نلقاه عقيب عودتنا من الرحلة، ولكن ذلك بات مستحيلاً ما دام مستمر الغياب، ومادمت مضطرا للعودة يوم غد إلى المدينة.. والعوض على الله..

وفي الفندق وجدت رسالة من شاعر العربية في أندونيسية الشيخ عبدالله بن نوح، يؤذنني بزيارته إياي بعد عصر اليوم، فكان عليّ أن ألازم غرفتي للقائه في موعده. وأقبل الشيخ مع الأصيل، وبصحبته ثلاثة من أختانه وتلاميذه، وليس فيهم مَن يحسن النطق العربي سواه.. وكانت فرصة طيبة أتاحت لنا الاطلاع على الطيب الكريم من خصائص الشيخ الموهوب، ولقد



● المؤلف في مسجد بجاكرتا

تفضل فسلم إليّ أجوبة الاستطلاع الذي تركته لديه في بوغور، ومعها نماذج صالحة من آثاره الأدبية والفكرية..

وأثناء وجود الشيخ عندي تلقيت مكالمة هاتفية من الأخ الأستاذ محمد سعيد أكوسجيء تنبئني بأنه مع الدكتور محمد ناصر سيقدمان لزيارتي في تمام الساعة التاسعة من ضحى الغد.. ثم مكالمة أخرى من الأخ سراج الدين ينقل إليّ بها رغبة الأستاذ عبدالرحمن عميد كلية أصول الدين بالجامعة الحكومية في زيارتي يوم غد أيضا..

وهكذا سعدت في الموعد المقرر ــضحى الجمعة ١٠/٤ــ بزيارة الأخوين الدكتور ناصر وأكوسجيء، وحضر هذه الزيارة الزميل الشيخ ناصر، وقد استغرق الاجتماع قرابة الساعة تناولنا خلالها مختلف الشؤون الإسلامية، وشكرت للدكتور محمد ناصر تفضله بالإجابة على استطلاعي الآخر الذي سأبني عليه ترجمته للجزء الثاني من كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم).

وأثناء الاجتماع الأخوي دق جرس الباب، ثم أطل علينا منه رجل لا أذكر أني شاهدته من قبل، وتوهمت لأول وهلة أنه أخطأ في رقم الغرفة، ولكن ابتسامته البريئة ردت إليّ ما غفلت عنه،

فاعتنقته فرحا وأنا أردد: الأستاذ عبدالرحمن!... وما اجملها من خاتمة أن يقدّر لي لقاء هؤلاء الأحبة مجتمعين في آخر أيامي بأندونيسية!..

ولقد ودعتهم يومئذ بأحر عبارات الشكر، وفي ظني أن ذلك آخر العهد بهم هنا، ولكن الدكتور أبى إلا أن يكون وداعنا الأخير في المطار..

وكانت الساعة ٣٫٤٥ بعد الظهر عندما أقبل بسيارته لإيصالنا إلى المطار، وفي الوقت نفسه وافى الأخ أحمد يزيد رملي بسيارته الأخرى، وهو الذي أنجدنا به الله يوم وصولنا مطار جاكرتا أول مرة.. ومن ثَم انطلقتْ بنا السيارتان، ولبثت أكثر الطريق أتأمل في تلك المعالم الخلابة بروح المعجب الذي يفارق شيئا لا يستطيع أن ينساه.. وبصورة عفوية أجدني أتمتم:

تمتعْ من شميم عَرارِ نجدٍ ... فما بعد العشيةِ من عَرار

ولكم وددت لو يمتد بي المقام في هذه الجزر، التي أحببتها طبيعةً وسكانا، زمنا أطول حتى ترتوي روحي من كلتيهما. وإني لأفارقها وفي قلبي شوق لم يبتلّ قط إلى سومطرة ــ الشمالية ــ التي قيل لي إنها الجزء الوحد الذي لم يضع سلاحه حتى ظفر ببغيته من تحكيم شريعة الله...

ثم امنية أخرى كنت أتطلع إليها، هي أن أحضر مؤتمر الاعلام الإسلامي الذي سيعقد في جاكرتا بعد أسبوعين، لأشهد بعيني كيف يقرر بعضهم نصرة الكلمة المؤمنة بكل موحياتها، ثم يحاربها في نطاق سلطانه بكل ما يملك من أسلحة الإعلام!.

وما أروع تعقيب مجلة (البعث الإسلامي) على مقررات ذلك المؤتمر حين قالت في عدد المحرم ١٤٠١هـ: (كان المؤتمر... مظاهرة إسلامية في قطر نُكِب فيه الإسلام والمسلمون بمختلف المؤثرات التي بعدت بهم عن ممارسة الحياة الإسلامية الصحيحة..).

وفي غمرة هذه التأملات كدتُ أذهل عن الوجهة التي أنا قاصد إليها، فلم أنتبه لأمري إلا عندما رأيت الدكتور ناصر يترجل من السيارة، فتابعته ومضيت خلف حقيبتي لإنجاز معاملة السفر. وغِبَّ إلحاح كثير استطعت إقناعه والإخوان الآخرين بالعودة، بعد أن أتموا لنا كل ما يعوزنا من الإجراءات. فجزاهم الله عنا كل خير...

وها نحن أولاء في قاعة المسافرين نترقب وقت المغرب لنجمعها مع العشاء قبل طيراننا الذي سيكون عند الساعة ٦٫١٥، ولكنا أُعجِلنا عن الصلاة في المطار فاضطررنا لأدائها في الطائرة الجبارة، التي تراءت كالقلعة الهائلة من الخارج، وقد تزاحم المسافرون داخلها على مد البصر..

وفي الطائرة، ولأول مرة منذ وطئت قدماي صعيد أندونيسية، أجد الطعام الذي استسيغه بل أوثره على كثير من الألوان، لأنه كان رائعا كأحسن ما أحب..

ولقد استغرقتْ رحلة العودة إلى جدة قرابة الاثنتي عشرة من الساعات، وذلك بعد توقفين في كراتشي وأبوظبي..

وهأنذا أخيرا في بهو المسافرين بانتظار الطيران إلى المدينة الحبيبة خلال دقائق...

ولله الحمد أولا وأخيرا.....



فهرست

الموضوع	الصفحة

إصدارات تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

• الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر*
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
• نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير

• قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى (ديوان شعر)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي	الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار .. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد ا لسباعي
• سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• إليها .. (ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي
• أيامي	الأستاذ أحمد السباعي

• التعليم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية	الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى (ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة	الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور (ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي

تحت الطبع :

• ماما زبيدة (مجموعة قصصية)		الأستاذ عزيز ضياء
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• عمر بن أبي ربيعة		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز (تراجم)		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• دعوة ودفاع		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• لن تلحد		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• سرايا الإسلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
• حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى (قصة طويلة)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• الحضارة تحد	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• الجبل الذي صار سهلا	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جحوم الدكتور محمد عيد
النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبدالمنعم رسلان
النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
مباديء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
النظرية النسبية	الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن	الدكتور خضير سعود الخضير

تحت الطبع :

المنظمات الاقتصادية الدولية	الدكتور حسين عمر
الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
التعلم الصفي	الدكتور محمد زياد حمدان
الاقتصاد الصناعي	الدكتور سليم كامل درويش
مباديء الأحصاء	الدكتور جلال الصياد
مباديء الطرق الاحصائية	الدكتور جلال الصياد

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منهـــا :

• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزّي
• الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول	الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت	الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
• العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن	الأستاذة أميرة علي المداح
• القصة في أدب الجاحظ	الأستاذ عبدالله باقازي
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف	الأستاذة فوزية حسين مطر
• النظرية التربوية الإسلامية	الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
• نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون	الأستاذ رشاد عباس معتوق
• المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة)	الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
• الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية	الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
• دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام	الأستاذة فتحية عمر حلواني
• الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام	الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
• دراسة اثنوغرافية لمنطقة الإحساء (باللغة الانجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة)	الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
• افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي	الأستاذ عبدالكريم علي باز
• دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• تقويم النمو الجسماني والنشوء	الدكتورة ظلال محمود رضا

تحت الطبع :

• الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فاروق صالح الخطيب
• العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر	الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
• التصنيع والتحضر في مدينة جدة	الأستاذة عواطف فيصل بياري



صدر منها :

• حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي		الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية		إعداد إدارة النشر بتهامة
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي	(باللغة الانجليزية)	إعداد إدارة النشر بتهامة
• تسالي	(من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني		الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
	(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي		الدكتور عاطف فخري
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور اسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
• القرآن وبناء الإنسان		الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ علي عبده بركات
• الطب النفسي معناه وأبعاده		الدكتور محمد محمد خليل
• الزمن الذي مضى	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
• مجموعة الخضراء	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
• ديوان السلطانين		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الامكانات النووية للعرب وإسرائيل		الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس	(ديوان شعر)	الأستاذة منى غزال

- من فكرة لفكرة — الأستاذ مصطفى أمين
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب
- تاريخ طب الأطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي / الدكتور لطفي بركات أحمد
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- قريش والاسلام — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدفاع عن الثقافة — الدكتور عبدالعزيز شرف
- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي
- مشكلات لغوية — الدكتور شوقي النجار
- مشكلات بنات — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- دليل مكة السياحي — إعداد تهامة للنشر والمكتبات
- من فكرة لفكرة (الجزء الثاني) — الأستاذ مصطفى أمين

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني / الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب للأطفال

صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد ● الكلب ● السلحفاة ● الأسد ● الحمار الأهلي ● الفرس ● الغزال ● الوعل ● الضفدع
- الضب ● الغراب ● الجمل ● البغل ● الفراشة ● الدجاج ● الحمار الوحشي ● الجاموس ● الدب
- الثعلب ● الأرنب ● الذئب ● الفأر ● الخروف ● البط ● الببغاء ● الحمامة ● الخرتيت
- البوم ● البجع ● الهدهد ● الكنغر ● الخفاش ● النعام ● فرس النهر ● التمساح

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر ● الصــلاة ● صلاة المسبوق ● الشهادتان ● التيمم
- قد قامت الصلاة ● الاستخارة ● صلاة الجمعة ● أركان الإسلام ● الوضـــوء
- الصـــوم ● صلاة الجنازة ● صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عز يز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D.EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five Year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition
  By Dr. Abdulla Mohamed A Zaid
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who,s Who in Saudi Arabia.
- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of

  The Al Hasa Of Eastern Saudi Arabia

  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib